الله ... الإلـه القـمر

الجــذور الوثنيـة للديـانـة الإسـلاميـة

إعــــداد

شــاكـر فضل الله النعمـانـي

مقـدمـة

كـان قـدماء المصـريين يعبـدون إلهـا إسـمه " **رع** ". وكـان الإغريـق يعبـدون إلهـا إسـمه " **زوس**". أمـا المسـلمون فيعبدون إلها إسمه " **الله** ".

والإسم " **الله** " كان يطلق على الإله القمر وهو الذي كـان يُرمز إليـه علـى الأرض بالصـنم " هُبل " أعظـم أصـنام كعبة قريش.

هُبل هذا هو الذي كان عبد المطلب جد نبي الإسلام يقوم عنده ليصـلي الـى " الله " بخصـوص نـذره بـأن بـذبح أحـد أبناءه وهو عبد الله والد نبي الإسلام كما جاء في السيرة النبوية لإبن اسحق.

ولا عجب أن نرى اليوم الهلال علـى قبـاب الجوامـع وعلـى أعـلام الـدول الإسـلامية وعلـى عربـات إسـعاف الهـلال الأحمر.

لقد إتخذ المسلمون الأوائل الإسم " الله " من المعبود الوثن واسبغوا عليه الصفات الإلهية التـي اسـتعاروها مـن أهـل الكتاب فأطلقوا عليه أسماء مثل الرحمن والرحيم والسميع والبصير...الخ. وهم يتعبدون إليه اليوم ويترجون رضـاه ويطمعون في جنته. ظنا منهم أنه الإله الواحد الحق الحقيقي.

هذا الكتاب يبحث في هذه القضية الخطيرة ويقدم الأدلة والبراهين على وهمية هذا الإعتقاد المميت.

ونحن إذ نقدم هذا البحث لا نبغي الإساءة الى أحد أو التقليل من شـأن الديانـة الإسـلامية بـل كـل مُبتغانـا هـو تبصـير أخوتنا في الوطن بخطورة ما يؤمنون به راجين إنقاذهم من الخلود في جهنم وداعين لهم بالهداية والرشاد.

الفهرس

رقم الصفحة

المصــادر

1 - المفصل في أديان العرب قبل الإسلام.
د. محمد جواد علي ـ دار الشعاع ـ طبعة أولى 2004.

2 - أخبار مكة وما جاء فيها من آثار.
أبو الوليد محمد الأزرقي ـ دار الشعاع ـ طبعة أولى 2007.

3 - موسوعة أساطير العرب عن الجاهلية ودلالاتها.
د. محمد عجينة ـ دار الفارابي ـ طبعة أولى 1994.

4 - شقيقات قريش.
فاضل الربيعي ـ دار الريس للكتب والنشر ـ طبعة أولى 2002.

5 - تاريخ الكعبة.
د. علي حسني الخربوطلي ـ دار الجيل - 2004.

6 - كتاب الأصنام.
أبي المنذر هشام بن محمد بن السائب الكلبي ـ دار الكتب المصرية ـ الطبعة الثالثة 1995.

7 - دائرة المعارف الإسلامية.
مركز الشارقة للإبداع الفكري ـ الطبعة الأولى 1998.

8 - الأسطورة والتراث.
د. سيد محمود القمني ـ دار سينا للنشر ـ الطبعة الأولى 1992.

9 - الجذور التاريخية للشريعة الإسلامية.
الشيخ خليل عبد الكريم ـ دار مصر المحروسة 2004.

10- المسكوت عنه ـ الجذور الوثنية للأديان التوحيدية
عشتروت لخدمات الطباعة ـ الطبعة الأولى 2003.

الباب الأول

هل بنى إبراهيم وإسماعيل الكعبة؟

سلسلة نسب إبراهيم بحسب ما جاء في التوراة والإصحاح الأول من سفر أخبار الأيام الأول.

سلسلة النسب من آدم الى إبراهيم:

من آدم الى نوح:

هذا سِجل بأسماء مواليد البشر حسب تعاقُبهم: آدم، شِيت، أنوشُ، مهللئيل، يـاردُ، أخنوخُ، متوشالحُ، لامكُ، نوحُ، سامُ، حامُ، يافثُ.

أبناء يافث:

أما أبناء يافث فهم، جُومر ومـاجُوج ومـاداي ويـاوانُ وتوبـال وماشـك وتيراس. وأبنـاء جـومر: أشكنازُ وريفاثُ وتُوجرمةُ. وأبناء ياوان: أليشةُ وترشيشةُ وكتيم ودُودانيم.

أبناء حام:

أما أبناء حام فهم: كوشُ ومصرايم وفوطُ وكنعانُ. وأبنـاء كوش: سبا وحويلـة وسبتا ورعما وسبتكا. وأبناءرعما: شبا وددان، وأنجب كوش نمرود الذي شب وصـار محاربا مرهوبا في الأرض. وأنجب مصرايم لوديم وعناميم ولهابيم ونفتوحيم، وفتروسيم وكسلوحيم الذين تحدر منهم الفلسطينيون والكفتوريون. وأنجب كنعان بكره صيدون، ومـن صُلبه تحـدر الحثيـون. واليبوسـيون والأموريـون، والجرجاشـيون، والحويـون والعرقيـون والسـينيون، والأرواديون والصماريو والحماثيون.

أبناء سام:

أما أبناء سام فهم: عيلام وأشور وأرفكشاد ولود وأرام وعوص وحول وجائر وماشك. وأنجب أرفكشاد شالح، وأنجب شالح عابر. وولد لعابر أبنان، اسم أحدهما فالج لأن شعوب الأرض انقسمت في أيامه الى قبائل حسب لغاتها. واسم أخيه يقطان. وأنجب يقطان الموداد وشالف وحضرموت وبارح، وهدورام وأوزال ودقلة، وعيبال وأبيمايل وشباء وأوفير وحويلة ويوباب. وجميع هؤلاء هم أبناء يقطان.

(أما إبراهيم فقد تحدر من نسل) سام، أرفكشاد، شالح، عابر، فالج، رعو، سروج، ناحور، تارح، الذي أنجب أبرام الذي دعي إبراهيم.

نلاحظ في هذه السلسلة اسم واحد من أحفاد سام وهو يقطان ويطلق عليه بالعربية قحطان وهو أبو العرب الأصليين من خلال ابنه هدورام وهو بالعربية جرهام. هؤلاء هم من يطلق عليهم البعض " العرب العاربة ". وأولاد قحطان هم المودا وشالف وحضرموت ويارح وهدورام وأوزال ودقلة وعيبال وأبيمايل وشبا وأوفير وحويله ويوباب.

يتضح مما سبق أن إبراهيم ليس من نسل جرهام (هدورام) على الإطلاق وإنما هو من نسل فالج بن عابر بن شالح بن ارفكشاد بن سام بن نوح.

هل كان إبراهيم رجل بناء؟

جاء في الإصحاح الثاني عشر من سفر التكوين وهو أول أسفار العهد القديم ما يلي:

دعوة أبرام:

وقال الرب لأبرام: " أترك أرضك وعشيرتك وبيت أبيك واذهب الى الأرض التي أريك، فأجعل منك أمة كبيرة وأباركك وأعظم اسمك، وتكون بركة (لكثيرين). وأبارك مُباركيك وألعن لاعنيك، وتتبارك فيك جميع أمم الأرض.

فارتحل أبرام كما أمرهُ الربُّ، ورافقهُ لوط. وكان أبرام في الخامسة والسبعين من عمره عندما غادر حاران. وأخذ أبرام ساراي زوجته ولوطا ابن أخيه وكل ما جمعاهُ من مقتنيات وكل ما امتلكاهُ من نفوس في حاران، وانطلقوا جميعا الى أرض كنعان الى أن وصلوها.

فشرع أبرام يتنقل في الأرض الى أن بلغ موضع شكيم الى سهل مُورة. وكان الكنعانيون آنئذ يقطنون تلك الأرض. وظهر الرب لأبرام وقال له: " سأعطي هذه الأرض لذريتك". فبنى أبرام هناك مذبحا للرب الذي ظهر له. وانتقل من هناك الى الجبل شرقي بيت إيل حيث نصب خيامهُ ما بين بيت إيل غربا وعاي شرقا وشيد هناك مذبحا للرب ودعا بأسمه.

نستنتج من هذه الآيات عدة أشياء:

أولا : إن الله وعد إبراهيم (أبرام) بإعطاء أرض كنعان لذريته.

ثانيا : إن إبراهيم كان يسكن الخيام ولم يبني لنفسه بيتنا.

ثالثا : إن إبراهيم بنى مذبحا للرب. والمذبح عبارة عن عدة حجارة متراصة لا يزيد إرتفاعها عن متر واحد وعليه توضع الذبيحة.

الإصحاح التالي مباشرة (إصحاح13) يحكي لنا عن أن إبراهيم بعد أن عاد من مصر أيضا نصب خياما وبنى مذبحا.

وغادر أبرام مصر وتوجه هو وزوجته ولوط وكل ما كان له، نحو منطقة النقب وكان أبرام يملك ثروة طائلة من المواشي والفضة والذهب. وظل ينقل في منطقة النقب متجها الى بيت إيل الى المكان الذي كان قد نصب فيه خيامه أولا بين بيت إيل وعاي. حيث كان قد شيد المذبح أولا، ودعا هناك أبرام باسم الرب.

(تكوين 13: 1-4)

ولإثبات أن بناء المذبح لم يكن أمرا عسيرا نستتشهد هنا بالمذبح الذي بناه إيليا النبي كما جاء في الإصحاح الثامن عشر من سفر ملوك الأول.

"عندئذ قال إيليا للشعب كله:" تقدموا إليَّ، فدنا جميع الشعب منه، فرمم مذبح الرب المنهدم، ثم أخذ اثني عشر حجرا حسب عدد أسباط إسرائيل، ذرية يعقوب الذي دعاه الله إسرائيل وبنى بهذه الحجارة مذبحا باسم الرب، وحفر حوله قناة تسع نحو كيلتين من الحب".

(1ملوك 18:31-33)

لقد احتاج إيليا الى 12 حجر لكي يبني مذبحا للرب.

شيخوخة إبراهيم:

" وكان إبراهيم وسارة شيخين متقدمين في الأيام وقد إنقطع أن يكون لسارة عادة كالنساء. فضحكت سارة في باطنها قائلة أبعد فنائي يكون لي تنعم وسيدي قد شاخ."

(تكوين 18:11-12)

موت إبراهيم:

جاء في الإصحاح الخامس والعشرين من سفر التكوين ما يلي عن موت إبراهيم:

وعاش إبراهيم مئة وخمسا وسبعين سنة. ثم مات بشيبة صالحة وانضم الى أسلافه. فدفنه أبناه إسحاق وإسماعيل في مغارة المكفيلة، في حقل عفرون بن صوحر الحِثِي مقابل ممرا وهو الحقل الذي اشتراهُ إبراهيم من الحثيين، وفيه دُفن إبراهيم وزوجته سارة. وبعد وفاة إبراهيم بارك الله إسحاق ابنه وأقام إسحاق عند بئر لحي رئي.

(تكوين 25:7-11)

نلاحظ هنا أن إسماعيل إشترك في دفن أبيه في مغارة المكفيلة في حقل عفرون بن صوحر الحثي مقابل ممرا.

الحبل بإسماعيل:

بعد أن صارت هاجر حُبلى من إبراهيم صغرت سيدتها سارة في عينيها ولهذا أذلتها سارة فهربت.

(تكوين 16)

ملاك الرب وهاجر:

فوجدها ملاك الرب بالقر من عين الماء في الطريق المُؤدية الى شُور. فقال:" يا هاجر جارية ساراي، من أين جئت؟ والى أين تذهبين؟". فأجابت:" إنني هاربة من وجه سيدتي ساراي". فقال لها ملاك الرب:" عُودي الى مولاتك وأخضعي لها". وقال لها ملاك الرب:" لأكثرن نسلك فلا يعودُ يُحصى". وأضاف ملاك الرب:" هُوذا أنت حامل وستلدين ابنا تدعينهُ إسماعيل (معناه: الله يسمع) لأن الرب قد سمع صوت شقائك.

(تكوين 16:7-11)

نلاحظ هنا أن ملاك الرب وجدها بالقرب من عين الماء في الطريق المؤدية الى شور. (سنتناول موقع شور بشيء من التفصيل بعد قليل).

طرد هاجر وإسماعيل:

ورأت سارة أن ابن هاجر المصرية الذي أنجبتهُ لإبراهيم يسخرُ من ابنها إسحاق، فقالت لإبراهيم:" اطرد هذه الجارية وابنها، فإن ابن الجارية لن يرث مع ابني إسحاق". فقبح هذا القول في نفس إبراهيم من أجل ابنه. فقال الله لهُ:" لا يسُوءُ في نفسك أمر الصبي أو أمر جاريتك، واسمع لكلام سارة في كل ما تشيرُ به عليك أنهُ بإسحاق يُدعى لك نسل. وسأقيم من ابن الجارية أمة أيضا لأنه من ذريتك".

فنهض إبراهيم في الصباح الباكر وأخذ خبزا وقربة ماء ودفعهما الى هاجر، ووضعهما على كتفيها، ثم صرفها مع الصبي. فهامت على وجهها في برية بئر سبع. وعندما فرغ الماء من القربة طرحت الصبي تحت إحدى الأشجار، ومضت وجلست مقابله، على بعد نحو مئة متر، لأنها قالت:" لا أشهد موت الصبي". فجلست مقابله ورفعت صوتها وبكت.

فسمع الله صوت الغلام ونادى ملاك الله هاجر من السماء وقال لها:" ما الذي يزعجُك يا هاجر؟ لا تخافي، لأن الله قد سمع بكاء الصبي من حيثُ هو مُلقى. قومي واحملي الصبي، وتشبثي به لأنني سأجعله أمة عظيمة". ثم فتح عينيها فأبصرت بئر ماء، فذهبت وملأت القربة وسقت الصبي. وكان الله مع الصبي فكبر، وسكن في صحراء فاران، وبرع في رمي القوس. واتخذت له أمه زوجة من مصر.

(تكوين 21:9-21)

نلاحظ هنا عدة أشياء:

أولا : أن ملاك الرب وجد هاجر وإسماعيل في برية بئر سبع.

ثانيا : أن الله وعد بأن يجعل إسماعيل أمة عظيمة.

ثالثا : أن أمه إتخذت له زوجة من مصر وهذا ليس مستغربا لأن هاجر نفسها مصرية ولقرب فاران من مصر. (سوف نتناول موقع فاران بشيء من التفصيل بعد قليل).

ذرية إسماعيل:

وهذا سجل مواليد إسماعيل بن إبراهيم الذي أنجبته هاجر المصرية جارية سارة لإبراهيم. وهذه أسماء أبناء إسماعيل مدونه حسب ترتيب ولادتهم: نبايُوت بكرُ إسماعيل، وقيدارُ وأدبئيل ومبسام، ومشماعُ ودُومه ومسا، وحدارُ وتيما وتطورُ ونافيش وقدمةُ. هؤلاء هم بنو إسماعيل، وهذه هي أسماءهم حسب ديارهم وحُصُونهم، وقد صاروا اثني عشر رئيسا لإثنتي عشرة قبيلة. ومات إسماعيل وله من العمر مئة وسبع وثلاثون سنة، ولحق بقومه. أما ذريتهُ فقد انتشرت من حويلة الى شور المُتاخمة لمصر في اتجاه اشور، وكانت على عداء مع بقية إخوتها.

(تكوين 25:12- 18)

نفهم من هذه الآيات أن ذرية إسماعيل كانت منتشرة من حويلة الى شور المتاخمة لمصر.

نوجه عنايتنا الآن الى موقع شور وفاران كما جاءا في أسفار العهد القديم ومنها يتضح أن برية شور هي الثلث الشمالي لشبة جزيرة سيناء وأن برية فاران هي الثلث الأوسط لشبة جزيرة سيناء كما هو واضح من الخريطة المرفقة.

لقد جاء ذكر شور وفاران عدة مرات في أسفار العهد القديم سوف نستشهد هنا بأجزاء متفرقة منه ثم نعلق عليها في النهاية.

فإنهم قد تآمروا معا بقلب واحد، وعقدوا حِلفا ضِدك. عشائر أدوم وبنو إسماعيل، نسل مُوآب وبنو هاجر. جبالُ وعمون وعماليق، الفلسطينيون وأهل صور، وقوم أشور أيضا انضموا إليهم، صاروا عونا لبني لوط.

(مزمور 83:5-7)

وانطلق داود ورجالُهُ يشنون الغارات على الجشوريين والجرزين والعمالقة الذين استوطنوا من قديم الأرض الممتدة من حدود شور الى تخوم مصر. وهاجم داود سكان الأرض، فلم يستبق نفسا واحدة. واستولى على الغنم والبقر والحمير والجمال والثياب، ثم رجع الى أخيش.

(1صموئيل 27:8 - 9)

لقد قال الرب إلهنا لنا في جبل حوريب: كفاكم المقام في هذا الجبل. تحولو وتقدموا وادخلوا جبل الأموريين وكل ما يليه من وادي العربة والجبل والسهل والنقب وساحل بحر أرض الكنعانيين ولبنان، الى النهر الكبير نهر الفرات. انظروا فها أنا قد وهبتكم الأرض، فادخلوا وتملكوها لأني أقسمت أن أعطيها لأبائكم إبراهيم وإسحاق ويعقوب ولنسلهم من بعدهم.

(تثنية 1:6- 8)

وهذه هي البركة التي بارك بها موسى، رجل الله، بني إسرائيل قبل موته، فقال:" أقبل الرب من سيناء، وأشرف عليهم من سعير، وتألق في جبل فاران، جاء محاطا بعشرات الألوف من الملائكة وعن يمينه يُومضُ برق عليهم. حقا إنك أنت الذي أحببت الشعب، وجميع القديسين في يدك، ساجدون عند قدميك يتلقون منك أقوالك.

(تثنية 23:1-3)

ومات صموئيل، فأجتمع جميع بني إسرائيل وناحوا عليه ودفنوهُ في بيته في الرامة. فأنتقل داود الى صحراء فاران.

(1صموئيل 25:1)

وفي اليوم العشرين من الشهر الثاني (أي شهر نيسان/ابريل) من السنة الثانية (العبرية) ارتفعت السحابة عن مسكن الشهادة، فارتحل بنو إسرائيل في صحراء سيناء من مكان الى آخر الى أن استقرت السحابة في برية فاران.

(عدد 10:11-12)

واحتد غضب الرب عليهما، ثم مضي عنهما. فلما ارتفعت السحابة عن خيمة الإجتماع، إذا مريم برصاء كالثلج فالتفت هرون وموسى نحو مريم وإذا هي مصابة بالبرص.

فقال هرون لموسى:" أرجوك يا سيدي، لا تُحملنا الخطيئة التي ارتكبناها كالحمقى. وأسأنا بها إليك. ولا تجعل مريم كالجنين الميت الخارج من رحم أمه وقد تهرأ نصف لحمه، فصرخ موسى الى الرب قائلا:" واللهم أشفها" فأجابه الرب:" لو أن أباها بصق في وجهها، أما كانت تمكث خجلة سبعة أيام؟ فتحجز خارج المخيم سبعة أيام وبعد ذلك ترجع". فحجزت مريم سبعة أيام خارج المخيم، ولم يرتحل الشعب حتى عادت مريم، وبعد ذلك ارتحل الشعب من حصيروت ونزلوا في صحراء فاران.

(عدد 12:9-16)

وبعد أربعين يوما رجعوا من استكشاف الأرض. فأقبلوا على موسى وهرون وسائر شعب إسرائيل في صحراء فاران في قادش، وبلغوهم بما شاهدواهُ وأروهم ثمر الأرض. وقالوا:" قد انطلقنا الى الأرض التي أرسلتنا إليها، فوجدناها تفيض حقا لبنا وعسلا، وهذه هي ثمارُها، غير أن الشعب المستوطن فيها بالغ القوة ومدنه منيعة وعظيمة جدا. كما شاهدنا هناك بني عناق، فالعمالقة مقيمون في أرض الجنوب، والجثيون واليبوسيون والأموريون متمنعون في الجبل، والكنعانيون مستوطنون عند البحر وعلى محاذاة الأردن.

(عدد 13:25-29)

وحدث في زمان أمرافل ملك شنعار وأربوك ملك ألاسار وكدرلعومر ملك علام وتدعال ملك جوييم أن حربا نشبت بينهم وبين بارع ملك سدوم وبرشاع ملك عمورة وشناب ملك أدمة وشمئيبر ملك صبوييم ومل بالع المعروفة بصوغر هؤلاء جميعهم احتشدوا في وادي السديم وهو بحر الملح (البحر الميت) وكان كدرلعومر قد استعبدها طوال اثنتي عشر سنة، وفي السنة الثالثة عشرة تمردوا عليه. وفي السنة الرابعة عشرة اجتمع كدرلعومر وحلفاؤهُ الملوك وقهروا الرفائيين في عشتاروت قرنايم والزوزبيين في هام والإيميين في سهل قريتايم والحوريين في جبلهم سعير حتى بُطمة فاوان على حدود الصحراء. ثم استداروا حتى أقبلوا على عين مشفاط التي هي قادش فهزموا بلاد العمالقة كلها والأموريين الساكنين في حصون تامار.

(تكوين 14:1-7)

هذه صلاة النبي حبقوق:" يا رب قد بلغني ما فعلت فخفت يارب، عملك في وسط السنين أحيهِ، وعرف به على مر الأيام، واذكر الرحمة في الغضب.

قد أقبل الله من أدُوم، وجاء القدوس من جبل فاران. غمر خلالهُ السماوات وامتلأت الأرضُ من تسبيحهِ. إن بهاءهُ كالنور، ومن يدهِ يُومِضُ شُعاعٌ، وهناك يحجُبُ قوتهُ. يتقدمُهُ وبأً، والموت يقتفي خُطاهُ. وقف وزلزل الأرض، تفرس فأرعب الأمم، اندكت الجبال الأبدية وانهارت التلالُ القديمة، أما مسالكُهُ فهي من الآزل. لقد رأتُ خِيام كوشان تنوءُ بالبلية وشُقق أخبية ديار مديان ترجُفُ رُعبا.

(حبقوق 3:1-7)

وأثار الرب على سليمان هدد سليل النسل الملكي الأدومي، ففيما كان داود في أدوم، صعد يُواب رئيسُ الجيش لدفن القتلى، وقضى على كل ذكر في أدوم. إذ إن يُواب وكل جيشهِ أقاموا هناك ستة أشهر، أفنوا خلالها كل ذكر في أدوم، ولكن هدد وبعض رجال أبيهِ الأدوميين استطاعوا الهرب واللجوء الى مصر، وكان هدد أنئذ فتى صغيرا. وأقاموا في باديء الأمر في مديان، ثم انتقلوا الى فاران حيثُ انضم إليهم عدد أخر من الرجال، توجهوا جميعا الى فرعون مصر، فأعطى فرعون هدد بيتا وأرضا وطعاما.

(1ملوك 11:14-18)

يتضح جليا مما سبق أن فاران كانت في طريق خروج شعب إسرائيل من مصر وذهابهم الى أرض فلسطين وكذلك أن شور كانت متاخمة لمصر في شمال سيناء.

من الآيات (والخرائط المرفقة أيضا) يتضح أن المديانيين كانوا يعيشون في المنطقة المعروفة الأن بخليج إيلات.

والمديانيون قد تصاهروا مع الإسماعيليين وهم الذين اشتروا يوسف من إخوته كما نقرأ في الإصحاح السابع والثلاثين من سفر التكوين.

خلاصة هذا الباب:

1 - إبراهيم لم يكن رجل بناء.

2 - الله وعد إبراهيم بأن يعطي أرض كنعان لذريته.

3 - إبراهيم كان شيخا عندما بشره الملاك بمولد إسحق.

4 - إبراهيم صرف هاجر وإسماعيل ولم يذهب معهما استجابة لقول الرب له.

5 - الملاك وجد هاجر عند بئر سبع في فلسطين.

6 - إسماعيل تزوج من مصرية وعاش في فاران بين فلسطين ومصر.

7 - ذرية إسماعيل عاشت في نفس المنطقة وتصاهروا مع المديانيين.

8 - إسماعيل إشترك في دفن أبيه إبراهيم في فلسطين.

نستنتج مما سبق أن إبراهيم لم يبني كعبة في مكة على الإطلاق وبالتالي فإن قصة بناء إبراهيم للكعبة لا تعدو أن تكون أسطورة من أساطير العرب.

كيف بنى إبراهيم وهو شيخ وليس رجل بناء كعبة في أرض لم يعده الله بأن يعطيها لنسله؟**!**

وكيف يبني إبراهيم بناءا مكعبا للرب مخالفا للمواصفات التي أعطاها الرب بعد ذلك لموسى في إصحاحي 25و26 من سفر التكوين؟.

لا عجب إذن أن يعترف عميد الأدب العربي بهذا في كتابه الأشهر " في الشعر الجاهلي".

في الشعر الجاهلي:

طـه حسين ـ الطبعة الأولى ـ مطبعة دار الكتب المصرية 1926.

جاء في صفحة 28-29:

فمن المعقول جدا أن تبحث هذه المدنية الجديدة لنفسها عن أصل تاريخي قديم يتصل بالأصول التاريخية الماجدة التي تتحدث عنها الأساطير. إذا فليس ما يمنع قريشا من أن تقبل هذه الأسطورة التي تفيد أن الكعبة من تأسيس إسماعيل وإبراهيم كما قبلت روما قبل ذلك ولأسباب متشابهة أسطورة أخرى صنعها لها اليونان تثبت أن روما متصلة بإينياس ابن بريام صاحب طروادة.

أمر هذه القصة إذن واضح فهي حديثة العهد ظهرت قبيل الإسلام واستغلها الإسلام لسبب ديني وقبلتها مكة لسبب ديني وسياسي أيضا. إذن يستطيع التاريخ الأدبي واللغوي ألا يحفل بها عندما يريد أن يتعرف أصل اللغة العربية الفصحى التي كانت تتعلمها العدنانية واللغة التي كانت تتكلمها القحطانية في اليمن إنما هي كالصلة بين اللغة العربية وأي لغة أخرى من اللغات السامية المعروفة. وإن فئة " العاربة" و " المستعربة " وتعلم إسماعيل العربية من جرهم كل ذلك أساطير لا خطر له ولا غناء فيه.

وجاء في صفحة 81:

وشاعت في العرب أثناء ظهور الإسلام وبعده فكرة أن الإسلام يجدد دين إبراهيم. ومن هنا أخذوا يعتقدون أن دين إبراهيم هذا قد كان دين العرب في عصر من العصور ثم اعرضت عنه لما أضلها به المضلون وانصرفت الى عبادة الأوثان. ولم يحتفظ بدين إبراهيم إلا أفراد قليلون يظهرون من حين الى حين وهؤلاء الأفراد يتحدثون فنجد في أحاديثهم ما يشبه الإسلام. وتفسير هذا من الوجهة العلمية يسير أيضا فأحاديث هؤلاء الناس وضعت لهم وحملت عليهم حملا بعد الإسلام لا لشيء إلا ليثبت أن للإسلام في بلاد العرب قدمة وسابقة. وعلى هذا النحو تستطيع أن تحمل كل ما تجد من هذه الأخبار والأشعار والأحاديث التي تضاف الى الجاهليين والتي يظهر بينها وبين ما في القرآن من الحديث شبه قوي أو ضعيف.

الباب الثاني

الكعبة والحج فى القرآن والسِنة

بعض الآيات الدالة على مكانة الكعبة في القرآن:

جعل الله الكعبة البيت الحرام قيما للناس والشهر الحرام والهدى والقليد ذلك لتعلموا أن الله يعلمُ ما في السموات وما في الأرض وأن الله بكل شيء عليم.

(المائدة: 97)

وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا واتخذوا من مقام إبراهيم مُصلى وعهدنا الى إبرهيم وإسمعيل أن طهرا بيتي للطايفين والعكفين والركع السُجُود.

(البقرة: 125)

فيهِ ءَايتُ بينتُ مقامُ إبراهيم ومن دخَلهُ كان ءامنا ولله على الناس حجُ البيت من استطاع إليهِ سبيلا ومن كفر فإن الله غنيٌ عن العلمين.

(آل عمران: 97)

إن الصفا والمروةَ من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جُناح عليهِ أن يطوف بهما ومن تطوع خيرا فإن الله شاكرٌ عليمٌ.

(البقرة: 189)

[1] لا يلفِ قُريش

[2] إلفهم رحلةَ الشتاء والصيف

[3] فليعبُدُوا ربَّ هذا البيت

[4] الذي أطعمهم من جُوع وءامنهُم من خوف

(قريش 1-4)

قصة بناء إبراهيم وإسماعيل للكعبة كما جاءت في صحيح البخاري جزء 4 وحديث رقم 583:

وحدثنا عبد الله بن محمد: حدثنا عبد الرزاق: أخبرنا معمرُ، عن أيوب السختياني وكثير بن كثير ابن المطلب بن ابي وداعة، يزيد أحدهما على الآخر، عن سعيد بن جُبير: قال ابن عباس: أول ما اتخذ النساء المنطق من قبل أم إسماعيل، اتخذت منطقا لتُعفى أثرها على سارة. ثم جاء بها إبراهيم وبإبنها إسماعيل وهي تُرضعهُ حتى وضعهما عند البيت عند دوحة فوق الزمزم في أعلى المسجد وليس بمكة يومئذ أحد وليس بها ماء فوضعهما هنالك. ووضع عندهما جرابا فيه تمر وسقاء فيه ماء ثم قفى إبراهيم منطلقا. فتبعتهُ أم إسماعيل فقالت: يا إبراهيم، أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه أنيس ولا شيء؟ فقالت له ذلك مرارا. وجعل لا يلتفت إليها فقالت لهُ: اللهُ الذي أمرك بهذا؟ قال: نعم، قالت: إذن لا يُضيعُنا ثم رجعت فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونهُ استقبل بوجهه البيت ثم دعا بهؤلاء الدعوات "رفع يديه فقال - ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع - حتى بلغ - يشكرون - وجعلت أم إسماعيل أُرضعُ إسماعيل وتشربُ من ذلك الماء حتى إذا نفذ ما في السقاء عطشت وعطش ابنها وجعلت تنظر إليه يتلوى، أو قال يتلبط، فانطلقت كراهية أن تنظر إليه، فوجدت الصفا أقرب جبل في الأرض يليها، فقامت عليه ثم استقبلت الوادي تنظرُ هل ترى أحدا فلم تر أحدا، فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت الوادي رفعت طرف درعها ثم سعت سعي الإنسان المجهود حتى جاوزت الوادي، ثم أتت المروة فقامت عليها ونظرت هل تر أحدا فلم تر أحدا، ففعلت ذلك سبع مرات. قال ابن عباس: قال النبي (ص): فذلك سعى الناس بينهما. فلما أشرفت على المروة سمعت صوتا فقالت صه تريد نفسها، ثم تسمعت فسمعت أيضا، فقالت: قد أسمعت إن كان عندك غواث فإذا هي بالملك عند موضع زمزم فبحث بعقبهِ أو قال بجناحهِ حتى ظهر الماءُ فجعلت

تُحوضهُ وتقول بيدها هكذا، وجعلت تغرف من الماء في سقائها وهو يفور بعد ما تعرف. قال ابن عباس: قال النبي (ص): يرحم الله أم إسماعيل لو تركت أو قال لو لم تغرف من زمزم لكانت زمزم عينا مُعينا، قال: فشربت وأرضعت ولدها، فقال لها الملكُ: لا تخافوا الضيعة، فإن هذا بيت الله يبنى هذا الغلامُ وأبوه، وإن الله لا يُضيعُ أهلهُ. وكان البيت مرتفعا من الأرض كالرابية تأتيه السيول فتأخذُ عن يمينه وشماله، فكانت كذلك حتى مرت بهم رفقة من جرهم أو أهل بيت من جُرهم مقبلين من طريق كداء فنزلوا في أسفل مكة فرأوا طائرا عائفا فقالوا: إن هذا الطائر ليدورُ على ماء، لعهدنا بهذا الوادي وما فيه ماء. فأرسلوا جريا أو جريين فإذا هُم بالماء. فرجعوا فأخبروهم بالماء فأقبلوا, قال: وأم إسماعيل عند الماء. فقالوا: أتأذنين لنا أن ننزل عندك؟ قالت: نعم، ولكن لا حق لكم في الماء، قالوا: نعم. قال ابن عباس: قال النبي (ص): فألفى ذلك أم إسماعيل وهي تحب الأنس فنزلوا وأرسلوا الى أهليهم فنزلوا معهم حتى إذا كان بها أهل أبيات منهم، وشب الغلام وتعلم العربية منهم. وأنفسهم وأعجبهم حين شب، فلما أدرك زوجوهُ امرأة منهم. وماتت أم إسماعيل فجاء إبراهيم بعد ما تزوج إسماعيل. فسأل امرأته عنه فقالت: خرج يبتغي لنا، ثم سألها عن عيشهم وهيئتهم، فقالت: نحن بشر، نحن في ضيق وشدة، فشكت إليه، قال: فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام وقولي له يغير عتبة بابه. فلما جاء إسماعيل كانه آنس شيئا فقال: هل جاءكم من أحد؟ قالت: نعم، جاءنا شيخٌ كذا وكذا فسألنا عنك فأخبرته، وسألني كيف عيشنا، فأخبرته أنا في جهد وشدة، قال: فهل أوصاك بشيء؟ قالت: نعم، أمرني أن أقرأ عليك السلام ويقول غير عتبة بابك. قال: ذاك أبي، وقد أمرني أن أفارقك، الحقي بأهلك فطلقها. وتزوج منهم أخرى فلبث عنهم إبراهيم ما شاء الله ثم أتاهم بعدُ فلم يجدهُ. فدخل على امرأتهِ فسألها عنهُ فقال: خرج يبتغي لنا، قال: كيف أنتم؟ وسألها عن عيشهم وهيئتهم. فقالت: نحن بخير وسعة، وأثنت على الله عز وجل. فقال: ما طعامكم؟ قالت: اللحم، قال: فما عرابكم؟ قالت: الماء، قال: اللهم مبارك لهم في اللحم والماء. قال النبي (ص): ولم يكن لهم يومئذ حب، ولو كان لهم دعا لهم فيه. قال: فهما لا يخلوا عليهما أحد بغير مكة إلا لم يوافقاهُ، قال: فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام ومُريهِ يُثبت عتبة بابه. فلما جاء إسماعيل قال: هل أتاكم من أحد؟ قال: نعم، أتانا شيخ حسن الهيئة وأثنت عليه، فسألني عنك فأخبرته، فسألني كيف عيشنا فأخبرته أنا بخير، قال: فأوصاك بشيء؟ قالت نعم، هو يقرأ عليك السلام ويأمرك أن تثبت عتبة بابك قال: ذاك أبي وأنت العتبة، أمرني أن أمسكك، ثم لبث عنهم ما شاء الله ثم جاء بعد ذلك وإسماعيل يبري نبلا له تحت دوحة قريبا من زمزم، فلما رآهُ قام إليه فصنعا كما يصنع الوالد بالولد والولد بالوالد. قال: يا إسماعيل، إن الله أمرني بأمر، قال: فاصنع ما أمرك ربك، قال: وتعينني؟ قال: وأعينك. قال: فإن الله أمرني أن أبني هاهنا بيتا، وأشار الى أكمة مرتفعة على ما حولها. قال: فعند ذلك رفعا القواعد من البيت، فجعل إسماعيل يأتي بالحجارة وإبراهيم يبني حتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر فوضعه له فقام عليه وهو يبني وإسماعيل يُناولهُ الحجارة وهما يقولان ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العيم ـ قال: فجعلا يبنيان حتى يدورا حول البيت وهما يقولان ـ ربنا تقبل منا إنك السميع العليم ـ

في كتابه الشهير " شقيقات فريش " ينقل لنا الأستاذ فاضل الربيعي عن " مروج الذهب " للمسعودي المزيد من الأساطير العربية عن إبراهيم وإسماعيل.

نص المسعودي:

" وإستأذن إبراهيم سارة في زيارة إسماعيل فإستحلفتهُ غيرة عليه أنه إذا أتى الموضع لا ينزلُ عن ركابه. وقد تنازع الناس على أي شيء كان راكبا، فمنهم من قال إنه كان راكبا على البُراق، ومنهم من قال على أتان؛ وقيل غير ذلك من الحيوان. فلما أتى إبراهيم الوادي سلم على زوجة إسماعيل الجُرهُمية فسلمت عليه ورحبت به وتلقتهُ بأحسن لقيان".

(مروج الذهب للمسعودي:163:2)

لسان إسماعيل:

"... إن الله ـ عز وجل ـ أعطى إسماعيل هذه اللغة وذلك أن إبراهيم خلفه وأمه هاجر ـ وإسماعيل ابن ست عشرة سنة وقبل ابن أربع عشرة سنة ـ وعلم إسماعيل هذه اللغة العربية. وقالوا: لغة جُرهُم غير هذه اللغة ..."

(مروج الذهب للمسعودي:193:2)

الباب الثالث

أساطير بناء الكعبة كما جاءت في كتاب تاريخ الكعبة

1- روايات حول الكعبة قبل إبراهيم:

قام إبراهيم وإبنه إسماعيل ببناء الكعبة بعد نزوحهما من فلسطين الى بلاد الحجاز بأمر من الله سبحانه وتعالى. وهو ما يؤكده القرآن الكريم، ويجمع عليه المؤرخون. ولكن يحلو لبعض المؤرخين أن يذكروا بعض الروايات التي تدور حول تاريخ بناء الكعبة، فيجعلون لتاريخ الكعبة أصولا وجذورا تمتد الى ما قبل عهد إبراهيم وإسماعيل، ويصبح الخيال الواسع عنصرا بارزا في بعض الروايات. وإختلاف بعض الروايات وتناقضها، وعدم موافقتها للكتب السماوية، يجعلنا لا نؤمن بصحتها. ولكننا ونحن ندرس تاريخ الكعبة المعظمة لا نرى بأسا من أن نذكر بعض هذه الروايات التي حوتها كتب بعض المؤرخين الأقدمين فقد أصبحت جزءا من تواريخهم وهي محط أنظار القراء في كل زمان وحتى يمكننا أن نناقش هذه الروايات ونحكم عليها حكما تاريخيا منهجيا.

فهناك من المؤرخين القدماء من ينسب بناء البيت الى الملائكة قبل أن يبرأ الله عز وجل الأرض ومنهم من نسب بناءها الى آدم عليه السلام الى إبنه (شيث) ولكن هذه الروايات لا تستند الى مصدر أصلي قديم وجميع الشواهد تؤكد أن وادي مكة قبل نزوح إبراهيم وإسماعيل كان غير ذي زرع، ولا يسكنه أحد، لعدم توافر وسائل الحياة.

أما المؤرخين الذين ينسبون بناء البيت الى الملائكة فيذكرون أن الله عز وجل غضب على الملائكة حين قال لهم: (إني جاعل في الأرض خليفة، قالوا: أتجعل فيها من يفسد ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك) وغضب الله سبحانه وتعالى على الملائكة وأعرض عنهم فلاذ الملائكة بالعرش ورفعوا رءوسهم وأشاروا بالإصابع يتضرعون ويبكون إشفاقا من هذا الغضب وطافوا بعرش الله سبعا كما يطوف الناس بالبيت الحرام وهم يقولون:" لبيك اللهم لبيك، ربنا معذرة إليك، نستغفرك ونتوب إليك" فنظر الله عز وجل إليهم ونزلت الرحمة عليهم ووضع الله سبحانه وتعالى تحت العرش بيتا هو البيت المعمور ثم قال للملائكة: طوفوا بهذا البيت ودعوا العرش فكان طوافهم بهذا البيت أيسر عليهم من طوافهم بعرش الخالق.

ثم أمر الله سبحانه وتعالى الملائكة كما يذكر المؤرخون، من سكان الأرض، أن يبنوا في الأرض بيتا على مثال البيت المعمور وأمر من في الأرض أن يطوفوا به كما يطوف أهل السماء بالبيت المعمور.

فبنته الملائكة قبل خلق آدم بألفي عام وكانوا يحجون إليه. فلما حج آدم الى هذا البيت قالت الملائكة له: " بر حجك يا آدم، حججنا هذا البيت قبلك بألفي عام"

وروى العمري في كتابه " مسالك الأبصار" (1) عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه قال:" خلق الله البيت قبل الأرض بألفي سنة وكان عرشه الى الماء على زبدة بيضاء فدحيت من تحته" واسند العمري هذه الرواية أيضا الى مجاهد وقتادة والسدى.

وأسند العمري الى قتادة أنه قال:" ذكر لنا أن البيت هبط مع آدم وحين اهبط معك بيتي يطاف به كما يطاف حول عرشي. فطاف حوله آدم ومن كان بعده من المؤمنين حتى إذا كان زمن الطوفان رفعه الله وطهره من أن تصيبه عقوبه أهل الأرض، فصار معمورا في السماء. ثم أن إبراهيم تتبع منه أثرا بعد ذلك، فبناه على أساس قديم كان قبله" (2).

وقال عطاء بن أبي رباح: وجه آدم الى بكة (3) حين استوحش فشكا ذلك الى الله عز وجل في دعائه. فلما انتهى الى بكة أنزل الله ياقوتة من ياقوت الجنة فكانت على موضع البيت الآن. فلم يزل يطوف به حتى أنزل الله الطوفان فرفعت تلك الياقوتة حتى بعث الله عز وجل إبراهيم فبناه فذلك قوله تعال:" وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت". ويسند العمري هذه الرواية الى أبي عروبة.

وروى أبو الوليد الأزرقي بسنده عن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب قال:" إن الله تبارك وتعالى بعث ملائكته فقال ابنوا لي بناء في الأرض تمثال البيت وقدره. وأمر الله من في الأرض من خلقه أن يطوفوا به كما يطوف أهل السماء بالبيت المعمور. قال:" وكان هذا قبل خلق آدم عليه السلام والله أعلم (4).

ومن الروايات التي تدور حول بناء آدم البيت، رواية تفرد ابن لهيعة في نسبتها الى الرسول أنه قال: " بعث الله جبريل الى آدم وحواء فقال لهما:" ابنيا لي بيتا فخط لهما جبريل فجعل آدم يحفر وحواء تنقل حتى إذا أجابه الماء نودي من تحته: حسبك يا آدم. فلما بنيا أوحى الله تعالى إليه أن يطوف به وقيل له: أنت أول الناس وهذا أول بيت. ثم تنسخت القرون حتى رفع إبراهيم القواعد فيه".

وينسب ابن قتيبة في كتابه " المعارف " (5) بناء الكعبة الى شيث بن آدم، فروى" كان شيث بن آدم أجل ولد آدم وأفضلهم وأشبههم به وأحبهم إليه وكان وصي أبيه وولي عهده وهو الذي ولد البشر كلهم إليه إنتهى أنساب الناس، وهو الذي بنى الكعبة بالطين والحجارة وكان هناك خيمة لآدم وضعها الله له من الجنة " ويروي العمري (6):

(وقيل إن آدم أول من بناها ـ أي الكعبة ـ وقيل شيث بن آدم، وكانت قبل بنائه خيمة من ياقوتة حمراء، يطوف بها آدم). ولكن العمري بعد أن عدد روايات كثيرة لا يجزم إذا كان بناء الكعبة قبل إبراهيم كان على يد الملائكة أو على يد آدم، أو على يد إبنه شيث.

وهناك روايات كثيرة يذكرها مؤرخون أقدمون ولا نرى بأسا من ذكر بعضها، فيذكر المؤرخ المسعودي أن عاد لما أصابهم القحط " وفدوا الى مكة يستسقون وكانوا يعظمون موضع الكعبة قبل أن يشيد بناءها إبراهيم وكانت ربوة حمراء" وتتعدد الروايات عند بعض المؤرخين فيذهبون الى أنه كان في مكان الكعبة معبد قديم للعماليق إندثر واختفى قبل قدوم إبراهيم الى بلاد الحجاز " البلاد المقدسة".

قبل الكعبة كان لعبض الأنبياء بيوت فقد عرف نوح البيوت وسكنها قبل إبراهيم وكان لإبراهيم بيوت في وطنه، ولكن الكعبة كانت أول بيت وضع للناس لعبادة الله الواحد الأحد وفيه آيات بينات.

2- <u>بناء إبراهيم وإسماعيل الكعبة:</u>

قدوم إبراهيم وإسماعيل الى الحجاز:

يرتبط تاريخ بناء الكعبة بقصة إبراهيم وإبنه إسماعيل عليهما السلام ونزوحهما من فلسطين الى مكة ببلاد الحجاز، مما يجعلنا نشير الى قصتهما في إيجاز:

نشأ إبراهيم في بلاد العراق وكان أبوه نجارا تخصص في صناعة الأصنام التي كان يعبدها مواطنوه وكان إشتراك إبراهيم مع أبيه في تشكيل الأوثان دافعا على العزوف عن عبادتها. حتى إذا أصبح شابا تسلل الى المعبد وحطم الأصنام عدا كبيرها، وسأله مواطنوه (أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم؟ قال بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون) (7). وعاقب الوثنيون إبراهيم على تحطيمه أوثانهم بأن ألقوه في النار ولكن الله عز وجل جعلها بردا وسلاما. وخرج إبراهيم الى فلسطين ناجيا بنفسه وبزوجه سارة.

ثم رحل إبراهيم الى مصر حيث كان يحكمها ملوك الهكسوس (العماليق) وكان أحد ملوكهم ينتزع الزوجات الجميلات بعد أن يقتل أزواجهن. وأعلن إبراهيم بين الناس أن سارة أخته حتى ينجو من القتل. وانتزع الملك سارة من إبراهيم، ولكن العناية الإلهية كانت تحيط بإبراهيم، فرأى الملك في نومه أن سارة ما هي إلا زوجة إبراهيم، فندم وأعادها الى زوجها ومنحه كثيرا من الهدايا ومن بينها جارية تدعى هاجر.

وكانت سارة لم تنجب لإبراهيم ودفعتها عاطفة الأمومة الى أن تطلب من إبراهيم الدخول بهاجر حتى تنجب له غلاما يقر الله به عيونهما فأنجب إبراهيم من هاجر ولدا أسموه إسماعيل. وبعد فترة أنجبت سارة إبنها إسحاق.

وتساوى عطف إبراهيم على ولديه إسماعيل وإسحاق ولكن سارة غضبت من أن يساوي زوجها بين إبن جاريتها وإبنها، وهي الحرة. وأصرت سارة على أن يخرج إبراهيم بهاجر وإسماعيل بعيدا عنها. فخرج بهما من فلسطين الى الحجاز، وانتهى الى الوادي الذي قامت فيه مكة فيما بعد. وكان واديا فقرا غير ذي زرع تتخذه بعض القوافل محطة تستريح فيه خلال رحلاتها التجارية وفي ذلك يقول الطبري (8):" واوحى الله الى إبراهيم أن يأتي مكة وليس يومئذ بمكة بيت" وترك إبراهيم إبنه إسماعيل وأمه هاجر بعد أن ترك لهما اليسير من الطعام والماء وعاد الى فلسطين حيث ترك سارة وإسحاق.

تحدث المؤرخ المسعودي (9) عن المكان الذي نزل فيه إبراهيم وهاجر وإسماعيل فقال:" ولما أسكن إبراهيم ولده إسماعيل مكة مع أمه هاجر واستودعهما خالقه على حسب ما أخبر الله عنه أنه أسكنه بواد غير ذي زرع كان موضع البيت ربوة حمراء، أمر إبراهيم هاجر أن تتخذ عليها عريشا يكون لها مسكنا".

وفرغ الطعام والماء وتعالت صيحات الطفل وخشيت هاجر على إبنها من الموت عطشا وجوعا وغادرت مكانها لتبحث عن الماء، مما يدفع عنهما الهلاك وأخذت تهرول بين الصفا والمروة حتى إذا أتمت السعي سبع مرات عادت الى إسماعيل فإذا به يفحص الأرض بقدمه حيث نبع الماء من الأرض، وظهرت بئر زمزم، وكتب الله لإسماعيل وأمه النجاة.

ويروي الطبري أن الله عز وجل أنزل جبريل ففجر هذه البئر وقد بشر جبريل هاجر بعودة إبراهيم في يوم ما وبنائه الكعبة قال الطبري (10):" وقال لها الملاك: لا تخافي الظمأ على أهل هذا البلد فإنها عين لشرب ضيفان الله أن أبا هذا الغلام سيجيء فيبنيان لله بيتا هذا موضعه".

وصادف أن مرت قبيلة جرهم بهذا المكان فشاهدت طيورا تحلق في السماء فأدركوا أن هناك ماء، وعجبوا من ذلك فقد كانوا يمرون بالمكان فيجدونه قفرا جدبا، وعثرت جرهم على هاجر وإبنها واستأذنوا منها في الإقامة الى جانب هذه البئر فأذنت لهم وشب إسماعيل في قبيلة جرهم وتعلم منهم اللغة العربية فيقول المسعودي (11):" وأذنت لهم في النزول فتلقوا من كان وراءهم من أهليهم وأخبروهم خبر الماء، فنزلوا الوادي مطمئنين مستبشرين بالماء، مما أضاء الوادي من نور النبوة وموضع البيت الحرام، فرحين" وعيل إسماعيل وتكلم إسماعيل بالعربية خلاف لغة أبيه".

مقدمات بناء الكعبة:

مرت السنون وماتت هاجر وهي في التسعين من عمرها. وأصبح إسماعيل شابا يافعا وتزوج إحدى فتيات قبيلة جرهم وتدعى الجداء بنت سعد. وفي يوم اشتاق إبراهيم لرؤية إبنه إسماعيل فإستأذن من زوجته سارة في الرحيل، فأذنت له. وقصد إبراهيم الى دار إسماعيل وكان حينئذ غائبا في رحلة صيد: وطرق إبراهيم الباب فخرجت له الجداء فقال لها إبراهيم: أين صاحبك؟ قالت: ليس هاهنا، ذهب يتصيد، فقال إبراهيم: هل عندك ضيافة، هل عندك طعام أو شر اب؟ قالت: ليس عندي، وما عندي أحد. فقال إبراهيم: إذا جاء زوجك فأقرئيه السلام وقولي له فليغير عتبة بابه. وعاد إسماعيل من رحلته وعلم بالقصة فطلق زوجته وتزوج من فتاة جرهمية أخرى تدعى سامة بنت مهلهل (12).

ودفع الشوق إبراهيم الى القدوم مرة أخرى الى مكة ليرى إبنه إسماعيل وأذنت له سارة بذلك واشترطت عليه ألا ينزل عن جواده، فجاء إبراهيم حتى انتهى الى باب إسماعيل فقال لإمرأته: أين صاحبك؟ قالت: ذهب يتصيد وهو يجيء الآن إن شاء الله فإنزل يرحمك الله. قال لها: هل عندك ضيافة؟ قالت: نعم. قال: هل عندك خبز أو بر أو شعير أو تمر؟ فجاءت باللبن واللحم. فدعا لهما بالبركة. فلو جاءت يومئذ بخبز أو بر أو تمر أو شعير لكانت أكثر أرض الله برا أو شعيرا أو تمرا (13).

ويروي المسعودي (14) رواية عن تبشير إبراهيم ببناء الكعبة فروى:" وألحت الجرهمية على إبراهيم في النزول فأبى، فقدمت إليه لبنا وشرائح من لحم الصيد، فدعا له بالبركة وجاءته بحجر كان في البيت فمال عن ركابه وجعلته تحت قدمه اليمنى ثم رجلت شعره ودهنته ثم حولت الحجر الى شماله فوضع رجله اليسرى عليه أيضا ومال برأسه نحوها فرجلته ودهنته فأثرت قدماه في الحجر على ما وصفنا من ترتيب اليمين والشمال فلما رأت الجرهمية ذلك أكبرت من شاهدته وهذا الحجر هو مقام إبراهيم فقال لها إبراهيم: إرفعيه فسيكون له شأن ونبأ بعد حين. ثم قال لها: إذا جاءك إسماعيل فقولي له: إن إبراهيم يقرأ عليك السلام ويقول لك: إحتفظ بعتبة بيتك فنعمت العتبة هي، وسار إبراهيم راجعا نحو الشام".

تطورت مكة وزاد عدد سكانها فقد علمت بطون جرهم والعماليق بحلول الماء والخصب في مكة فأقبلوا على النزول بها وأصبح الحارث بن مضاض بن عمرو الجرهمي زعيم أهل مكة (15).

بناء الكعبة:

قدم إبراهيم مرة أخرى الى مكة وكان إسماعيل حينئذ في الثلاثين من عمره وفي هذه المرة أمر الله عز وجل إبراهيم ببناء الكعبة، وتعاون الأب والإبن على تنفيذ أمر المولى سبحانه وتعالى.

وروى المؤرخون كثيرا من الروايات حول بناء الكعبة. ومن أدق هذه الروايات وأوجزها ما رواه الطبري (16) عن سعيد بن جبير عن إبن عباس:" جاء إبراهيم فوجد إسماعيل يصلح نبلا له من وراء زمزم. فقال إبراهيم: يا إسماعيل إن ربك قد أمرني أن أبني له بيتا. فقال له إسماعيل: فأطع ربك فيما أمرك. فقال إبراهيم: قد أمرك أن تعينني عليه. قال: إذا أفعل. فقام معه فجعل إبراهيم يبنيه وإسماعيل يناوله الحجارة ويقولان: (ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم)، فلما إرتفع البنيان وضعف الشيخ عن رفع الحجارة قام على حجر وهو مقام إبراهيم فجعل يناوله ويقولان: تقبل منا إنك أنت السميع العليم. فلما فرغ إبراهيم من بناء البيت الذي أمره الله عز وجل ببنائه أمره الله أن يؤذن في الناس بالحج فقال له: (وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق).

ولكن الطبري روى روايات أخرى كثيرة لا تختلف عن الروايات الأولى في جوهرها، ولكنها تزيد عليها في بعض التفاصيل. وتعددت الروايات، واختلفت في بعض عناصرها وتفاصيلها. وتختلف الروايات حول من دل إبراهيم الى المكان الذي أقام فيه الكعبة وهل هي ريح السكينة أو جبريل عليه السلام؟ من هذه الروايات:" أن رجلا قام الى علي بن أبي طالب فقال: ألا تخبرني عن البيت، أهو أول بيت وضع في الأرض؟ فقال: لا ولكنه أول بيت وضع في البركة مقام إبراهيم ومن دخله كان آمنا وإن شئت أنبأتك كيف بني، إن الله عز وجل أوحى الى إبراهيم أن ابن لي بيتا في الأرض: فضاق إبراهيم بذلك ذراعا فأرسل عز وجل السكينة وهي ريح خجوج ولها رأسان فاتبع أحدهما صاحبه حتى إنتهت الى مكة فتطوت على موضع البيت كتطوي الحية وأمر إبراهيم أن يبني حيث تستقر السكينة، فبنى إبراهيم (17).

ويروي الطبري عن إبن إسحاق أن جبريل سحب إبراهيم من الشام الى الحجاز ليدله على مكة التي ستقام فيها الكعبة وأسند هذه الرواية الى ابن إسحاق فقال: عن مجاهد وغيره من أهل العلم، إن الله عز وجل لما بوأ لإبراهيم مكان البيت ومعالم الحرم، خرج وخرج معه جبرائيل يقال كان لا يمر بقريه إلا قال: بهذه أمرت يا جبرائيل؟ فيقول جبرائيل: أمضه. حتى قدم به مكة وهي إذ ذاك غضاة سلم وسمر وبها أناس يقال لهم العماليق خارج مكة وما حولها والبيت يومئذ ربوة حمراء مدارة. فقال إبراهيم لجبرائيل: أها هنا أمرت أن أضعهما؟ قال: نعم (18).

ويروي العمري (19) عن سعيد بن أبي عروبة عن قتادة أنه قال:" ذكر لنا أن قواعد البيت من حراء وذكر لنا أن البيت من خمسة أجبل: حراء ولبنان والجودي وطورسينا وطورزيتا " كما روى العمري أيضا عن السهيل:" إن الملائكة كانت تأتي إبراهيم عليه السلام بالحجارة ".

الحجر الأسود:

مضى إبراهيم وإسماعيل في بناء الكعبة كما أمرهما الله عز وجل وأوشك البناء أن ينتهي وبقي حجر واحد " فذهب الغلام يبني شيئا فقال إبراهيم: لا أبغ حجرا كما آمرك فإنطلق الغلام يلتمس له حجرا فأتاه به، فوجده قد ركب الحجر الأسود في مكانه فقال يا أبت من أتاك بهذا الحجر؟ فقال: أتاني به من لم يتكل على بنائك، أتاني به جبرائيل من السماء " (20).

ويروي الطبري (21) رواية أخرى لا تختلف في جوهرها عن الرواية السابقة ولكنها تزيد عليها في بعض التفاصيل وقد أسندها الطبري الى علي بن أبي طالب فقال:" فوضع إبراهيم الأساس ورفع البيت هو وإسماعيل حتى إنتهيا الى موضع الركن. فقال إبراهيم لإسماعيل: يا بني أبغ لي حجرا أجعله علما للناس فجاءه بحجر فلم يرضه. وقال: أبغني غير هذا. فذهب إسماعيل ليلتمس له حجرا، فجاءه فقد أتى بالركن فوضعه في موضعه فقال: يا أبتِ من جاءك بهذا الحجر؟ قال: من لم يكلني إليك يا بني".

والحجر الأسود حجر صقيل بيضي غير منتظم ولونه أسود يميل الى الإحمرار وفيه نقط حمراء وتعاريج صفراء ويقول أحد الكتاب (22) "هذا الحجر قد يكون من نوع النيازك بدليل وصفه أنه كان يتلألأ نورا فأضاء شرقا وغربا وشاما ويمنا الى منتهى إنصاب الحرم. وتلألؤه الموصوف دليل على إنه كان ذا لون غير السواد، ولكن بعض المؤرخين يعلل سواده بأنجاس الجاهلية وارجاسها. وبعض النيازك يتغير لونها بمجرد مرور الزمن عليها ومنها ما يتلألأ ويلمع. والكلمة من أصل فارسي "ينزه" وهو أحد أقسام الشهب والشهاب ما يرى كأنه كوكب إنقض من السماء وتكثر في شهر آب".

ويرى كاتب آخر (23) أن تقديس الحجر الأسود نجم من إرتباطه بشيء مقدس محترم فهذا الحجر وضعه إبراهيم عليه السلام في الكعبة أما أن يكون قد وضعه تذكارا لصدعه بأمر ربه حين أمره برفع قواعد هذا البيت المعظم وأما أن يكون رمزا للعهد الذي أخذه إبراهيم على نفسه وولده بجعله هذا البيت بمثابة للناس وأمنا، وأما أن يكون

قد أقامه إبراهيم عليه السلام حجة عليه وعلى ولده بأن هذا البيت انتقل من ملكيتهم الى الله تعالى ليكون للناس مصلى ومسجدا للطائفين والعاكفين والركع السجود. ولذا وضعه في الركن الأقرب الى الباب ليكون أول حدود هذا البيت المكرم الذي يبتديء منه الطائفون واختار له اللون الأسود لسهولة تعيينه وتحديد مكانه لذلك كان الحجر الأسود محترما من إبراهيم محترما من ولده مقدسا عند المسلمين الى اليوم والى الغد.

وروى الإمام أحمد والبخاري ومسلم أن الرسول (ص) وقف عند الحجر الأسود فقال:" إني لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع" ثم قبله. ولما حج أبو بكر وقف عند الحجر وقال: إني لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ولولا إني رأيت رسول الله يقبلك ما قبلتك. وكذلك فعل عمر بن الخطاب عند حجه بالناس.

وصف الرحالة ابن بطوطة (24) الحجر الأسود كما شاهده خلال رحلته الى مكة فقال:" وأما الحجر الأسود فإرتفاعه عن الأرض ستة أشبار فالطويل من الناس يتطا من لتقبيله والصغير يتطاول إليه وهو ملصق في الركن الذي الى جهة الشرق، وسعته ثلثا شبر وطوله شبر وعقد، ولا يعلم قدر ما دخل منه في الركن، وفيه أربع قطع ملصقة. وجوانب الحجر مشدودة بصفيحة من فضة يلوح بياضها على سواد الحجر الكريم فتجتلي منه العيون حسنا باهرا. ولتقبيله لذة ينعم بها الفم ويود لاثمه ألا يفارق لثمه خاصة مودعة فيه وعناية ربانية له. وكفى قول رسول الله (ص): إنه يمين الله في أرضه (نفعنا الله بالإستلامه ومصافحته وأوفد عليه كل شيق إليه) وفي القطعة الصحيحة من الحجر الأسود مما يلي جانبه الموالي ليمين مستلمه نقطة بيضاء صغيرة مشرقة كأنها خال في تلك الصحيفة البهية ونرى الناس إذا طافوا بها يتساقط بعضهم على بعض إزدحاما على تقبيله فقلما يتمكن أحد من ذلك إلا بعد المزاحمة الشديدة وكذبك يصنعون عند دخول البيت الكريم. ومن عند الحجر الأسود ابتداء الطواف وهو أول الأركان التي يلقاها الطائف إذا استلمه تقهقر عنه قليلا وجعل الكعبة الشريفة عن يساره ومضى في طوافه ثم يلقى بعده الركن العراقي وهو الى جهة الشمال ثم يلقى الركن الشامي وهو الى جهة الغرب ثم يلقى الركن اليماني وهو الى جهة الجنوب ثم يعود الى الحجر الأسود وهو الى جهة الشرق".

الكعبة بعد تمام بنائها:

أتم إبراهيم وإسماعيل بناء الكعبة ووصف المؤرخ المسعودي (25) البيت الحرام بعد تمامه فقال:".. وطوله ثلاثون ذراعا والحجر فيه وهو سبعة أذرع وعرضه اثنان وعشرون ذراعا، وسمكه سبعة أذرع وعرضه اثنان وعشرون ذراعا وسمكه سبعة أذرع وجعل له بابا ولم يسقف. ووضع الركبة موضعه والصق المقام بالبيت وذلك قوله عز وجل: (وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل) ـ الآية. وأمر الله تعالى إبراهيم أن يؤذن في الناس بالحج".

ووصف صاحب كتاب " تاريخ الكعبة المعظمة" بيت الله الحرام بعد انتهاء إبراهيم وإسماعيل من بنائه وصفا مفصلا فقال: إن إبراهيم جعل إرتفاع البيت الى اليسار تسع أذرع وطوله من الشمال الى الجنوب مما يلي الجهة الشرقية اثنتين وثلاثين ذراعا ومن الشمال الى الجنوب مما يلي الجهة الغربية أيضا احدى وثلاثين ذراعا ومن الشرق الى الغرب مما يلي الجهة الجنوبية أن من الحجر الأسود الى الركن اليماني عشرين ذراعا ومن الشرق الى الغرب أيضا مما يلي الجهة الشمالية أي من جهة حجر إسماعيل اثنتين وعشرين ذراعا وجعل له بابين ملاصقين الأرض أولهما في الجهة الشرقية مما يلي الحجر الأسود والآخر من الجهة الغربية مما يلي الركن اليماني على سمت الباب الشرقي وحفر في داخله بئرا تكون خزانة له ولم يجعل عليه سقفا ولا وضع على بابيه أبوابا تفتح وتغلق.

ويعلق أحد الكتاب (26) على حفر إبراهيم هذه البئر لتكون خزانة للكعبة فيقول وقد ظهر حرص إبراهيم في البناء وقصده الى أن يكون البيت معبدا لله فحسب حساب النذور فحفر في بطن البيت على يمين من دخله حفرة تكون خزانة للبيت يوضع فيها ما يهدى الى البيت.

خلد القرآن الكريم بناء الكعبة. ففي سورة آل عمران: (إن أول بيت وضع للناس، للذي ببكة مباركا وهدى للعالمين فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمنا ولله على الناس حج البيت من إستطاع إليه سبيلا ومن كفر فإن الله غني عن العالمين).

إبراهيم يؤذن بالحج الى الكعبة:

بعد الفراغ من بناء الكعبة أمر الله عز وجل إبراهيم أن يؤذن في الناس بالحج كما جاء في الآية الكريمة: (وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضام يأتين من كل فج عميق) وروى الطبري (27) عن ابن عباس أن

إبراهيم قال: يا رب وما يبلغ صوتي فقال عز وجل إذن وعلي البلاغ فنادى إبراهيم: يأيها الناس كتب عليكم الحج الى البيت العتيق فسمعه ما بين السماء والأرض.

وروى الطبري (28) أيضا أن عبد الله بن الزبير سأل عبيد بن عمير الليثي عما بلغه عن دعوة إبراهيم الناس الى الحج فقال:" بلغني أنه لما رفع هو وإسماعيل قواعد البيت وانتهى الى ما أراد الله من ذلك وحضر الحج استقبل اليمن فدعا الى الله والى حج بيته فِأجيب أن لبيك اللهم لبيك ثم الى المغرب فدعا الى الله والى حج بيته فأجيب أن لبيك إللهم لبيك".

وروى الطبري (29) ايضا أن الرسول (ص) قال:" آتى جبرائيل إبراهيم يوم التروية فراح به الى منى فصلى به الظهر والعصر والمغرب والعشاء الآخرة والفجر بمنى ثم غدا به الى عرفات فأنزله الأراك أو حيث ينزل الناس فصلى به الصلاتين جميعا الظهر والعصر ثم وقف به حتى إذا كان كأعجل ما يصلي أحد من الناس المغرب أفاض حتى أتى به جمعا فصلى به الصلاتين جميعا المغرب والعشاء ثم أقام حتى إذا كان كأعجل ما يصلي أحد من الناس الفجر صلى به ثم وقف حتى إذا كان كأبطأ ما يصلي أحد من المسلمين الفجر أفاض به الى منى فرمى الجمرة ثم ذبح وحلق ثم أفاض الى البيت ثم أوحى الله عز وجل الى محمد (ص) (إن أتبع ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين).

وبعد بناء الكعبة عاد إبراهيم الى بلاد الشام وترك وراءه إبنه إسماعيل وقد أصبح رجلا وخليفة أبيه في أمانته وملته الحنيفية. ثم كان تطور مدينة مكة وقد قامت في واد رملي شديد الضيق حتى ليبلغ أقصى إتساع منه نحو سبعمائة خطوة وأما أضيق مكان فيه فلا يزيد على مائة خطوة تكتنفه جبال عارية مقفرة يتراوح إرتفاعها بين مائتي قدم وخمسمائة قدم.

الهـوامـش

(1) مسالك الإبصار في ممالك الأمصار جـ 1 ص93 (طبعة دار الكتب 1924).
(2) مسالك الإبصار جـ 1 ص 93.
(3) أي مكة.
(4) مسالك الأبصار جـ 1 ص94.
(5) المعارف ص 10 (المطبعة الحسينية 1934).
(6) مسالك الإبصار جـ 1 ص 94.
(7) سورة الأنبياء آية 62 و 63.
(8) الطبري جـ 1 ص 179.
(9) مروج الذهب جـ 2 ص 47.
(10) الطبري جـ 1 ص 181.
(11) الطبري جـ 1 ص 48.
(12) مروج الذهب جـ 2 ص 48.
(13) الطبري جـ 1 ص 48.
(14) مروج الذهب جـ 2 ص 48.
(15) مروح الذهب جـ 2 ص 47.
(16) الطبري جـ 1 ص 182.
(17) الطبري جـ 1 ص 176.
(18) الطبري جـ 1 ص 178.
(19) مسالك الإبصار جـ 1 ص 94.
(20) الطبري جـ 1 ص 176.
(21) الطبري جـ 1 ص 177.
(22) لطفي جمعة: ثورة الإسلام ص 59.
(23) الهجرسي: كتاب الحج ص 25.
(24) رحلة ابن بطوطة جـ 1 ص 107 (المطبعة الأميرية 1939).
(25) مروج الذهب جـ 2 ص 49.
(26) لطفي جمعة: ثورة الإسلام ص 59.
(27) الطبري جـ 1 ص182.
(28) الطبري جـ 1 ص 182.
(29) الطبري جـ 1 ص 184.

الباب الرابع

أساطير بناء الكعبة كما جاءت في كتاب " أخبار مكة"

ذكر ما كانت الكعبة الشريفة عليه فوق الماء
قبل أن يخلق الله السموات والأرض وما جاء في ذلك

أخبرني والدي الفقيه الإمام المحدث صدر الدين بقية المشايخ أبو حفص عمر بن عبد المجيد بن عمر القرشي الميانشي رحمة الله عليه قال حدثنا القاضي الإمام أبو المظفر محمد بن علي بن الحسين الشيباني الكبري عن جده الشيخ الإمام الحسين عن الشيخ أبي الحسن علي بن خلف الشامي عن أبي القاسم خلف بن هبة الله الشامي عن أبي محمد الحسن بن أحمد بن إبراهيم بن فراس عن أبي الحسن محمد بن نافع الخزاعي عن أبي محمد إسحاق بن أحمد بن نافع الخزاعي عن أبي الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد بن محمد ابن الوليد بن عقبة بن الأزرق بن عمرو بن الحارث بن أبي شمر الغساني الأزرقي قال حدثنا جدي أحمد بن محمد بن الوليد الأزرقي قال حدثنا سفيان بن عيينة عن بشر بن عاصم عن سعيد بن المسيب قال قال كعب الأحبار: كانت الكعبة غثاء على الماء قبل أن يخلق الله عز وجل السموات والأرض بأربعين سنة ومنها دحيت الأرض، قال حدثنا أبو الوليد قال حدثني مهدي بن أبي المهدي قال حدثنا أبو أيوب البصري عن هشام عن حميد قال سمعت مجاهدا يقول خلق الله عز وجل هذا البيت قبل أن يخلق شيئا من الأرضين؛ قال حدثنا أبو الوليد قال حدثنا جدي عن سعيد بن سلام عن طلحة بن عمرو عن عطاء عن ابن عباس أنه قال لما كان العرش على الماء قبل أن يخلق الله السموات والأرض بعث الله تعالى ريحا هفافة فصفقت الماء فأبرزت عن خشفة في موضع هذا البيت كأنها قبة فدحا الله الأرضين من تحتها فمادت ثم مادت فأوتدها الله تعالى بالجبال فكان أول جبل وضع فيها أبو قبيس فلذلك سميت مكة أم القرى، قال وحدثني يحيى بن سعيد عن محمد بن عمر بن إبراهيم الجبيري عن عثمان بن عبد الرحمن عن هشام عن مجاهد قال: لقد خلق الله عز وجل موضع هذا البيت قبل أن يخلق شيئا من الأرض بألفي سنة وأن قواعده لفي الأرض السابعة السفلى.

ذكر بناء الملائكة الكعبة
قبل خلق آدم ومبتدأ الطواف كيف كان

حدثنا أبو الوليد قال حدثني علي بن هارون بن مسلم العجلي عن أبيه قال حدثنا القاسم بن عبد الرحمن الأنصاري قال حدثني محمد بن علي بن الحسين قال كنت مع أبي علي بن الحسين بمكة فبينما هو يطوف بالبيت وأنا وراءه إذ جاءه رجل شرجع من الرجال يقول طويل فوضع يده على ظهر أبي فالتفت أبي إليه فقال الرجل: السلام عليك يا ابن بنت رسول الله إني أريد أن أسألك فسكت أبي وأنا والرجل خلفه حتى فرغ من أسبوعه فدخل الحجر فقام تحت الميزاب فقمت أنا والرجل خلفه فصلى ركعتي أسبوعه ثم استوى قاعدا فالتفت اليَّ فقمت فجلست الى جنبه فقال يا محمد فأين هذا السائل؟ فأومأت الى الرجل فجاء فجلس بين يدي أبي فقال له أبي عما تسأل؟ قال أسألك عن بدء هذا الطواف بهذا البيت لم كان وأنى كان وحيث كان وكيف كان؟ فقال له أبي نعم من أين أنت؟ قال من أهل الشام قال أين مسكنك؟ قال: في بيت المقدس قال: فهل قرأت الكتابين؟ يعني التوراة والإنجيل قال الرجل نعم قال أبي يا أخا أهل الشام احفظ ولا تروين عني إلا حقا أما بدؤ هذا الطواف بهذا البيت فإن الله تبارك وتعالى قال للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة فقالت الملائكة أي رب أخليفة من غيرنا ممن يفسد فيها ويسفك الدماء ويتحاسدون، ويتباغضون ويتباغون؟ أي رب اجعل ذلك الخليفة منا فنحن لا نفسد فيها، ولا نسفك الدماء، ولا نتباغض، ولا نتحاسد، ولا نتباغى، ونحن نسبح بحمدك، ونقدس لك، ونطيعك، ولا نعصيك فقال الله تعالى إني أعلم ما لا تعلمون قال فظنت الملائكة إن ما قالوا ردا على ربهم عز وجل وإنه قد غضب من قولهم فلاذوا بالعرش، ورفعوا رؤوسهم، وأشاروا بالأصابع يتضرعون، ويبكون اشفاقا لغضبه وطافوا بالعرش ثلاث ساعات

فنظر الله إليهم فنزلت الرحمة عليهم فوضع الله تعالى تحت العرش بيتا على أربع أساطين من زبرجد وغشاهن بياقوتة حمراء وسمي ذلك البيت الضراح ثم قال الله تعالى للملائكة طوفوا بهذا البيت ودعوا العرش قال فطافت الملائكة بالبيت وتركوا العرش وصار أهون عليهم من العرش وهو البيت المعمور الذي ذكره الله عز وجل يدخله في كل يوم وليلة سبعون ألف ملك لا يعودون فيه أبدا ثم إن الله سبحانه وتعالى بعث ملائكة فقال لهم أبنوا لي بيتا في الأرض بمثاله وقدره فأمر الله سبحانة من في الأرض من خلفه أن يطوفوا بهذا البيت كما يطوف أهل السماء بالبيت المعمور، فقال الرجل صدقت يا بن بنت رسول الله (ص) هكذا كان.

ذكر زيارة الملائكة البيت الحرام شرفها الله

حدثنا أبو الوليد قال حدثني مهدي بن أبي المهدي قال حدثنا عبد الرزاق قال حدثنا عمر بن بكار عن وهب بن منبه عن إبن عباس أن جبريل عليه السلام وقف على رسول الله (ص) وعليه عصابة حمراء قد علاها الغبار فقال له رسول الله (ص): ما هذا الغبار أرى على عصابتك أيها الروح الأمين؟ قال: أبي زرت البيت فإزدحمت الملائكة على الركن فهذا الغبار الذي ترى مما تثير بأجنحتها، وأخبرني جدي عن سعيد بن سالم عن عثمان إبن ساج قال أخبرني عثمان بن يسار قال: بلغني والله أعلم أن الله تعالى إذا أراد أن يبعث ملكا من الملائكة لبعض أموره في الأرض أستأذنه ذلك الملك في الطواف بالبيت فهبط الملك مهلا؛ وأخبرني جدي عن سعيد بن سالم عن عثمان بن ساج عن وهب بن منبه نحو هذا إلا أنه قال: ويصلي في البيت ركعتين، وأخبرني جدي عن سعيد بن سالم عن عثمان بن ساج قال أخبرني عباد بن كثير عن ليث بن معاذ قال: قال رسول الله (ص): هذا البيت خامس خمسة عشر بيتا سبعة منها في السماء الى العرش وسبعة منها الى تخوم الأرض السفلى وأعلاها الذي يلي العرش، البيت المعمور لكل بيت منها حرم كحرم هذا البيت لو سقط منها بيت لسقط بعضها على بعض الى تخوم الأرض السفلى ولكل بيت من أهل السماء ومن أهل الأرض من يعمره كما يعمر هذا البيت. حدثني أبو الوليد قال وحدثني جدي عن سعيد بن سالم عن عثمان عن وهب بن منبه أن إبن عباس أخبره أن جبريل وقف على رسول الله (ص) وعليه عصابة خضراء قد علاها الغبار فقال رسول الله

(ص): ما هذا الغبار الذ أرى على عصابتك أيها الروح الأمين؟ قال: إني زرت البيت فازدحمت الملائكة على الركن فهذا الغبار الذي ترى مما تثير أجنحتها.

ذكر هبوط آدم الى الأرض وبنائه الكعبة، وحجه، وطوافه بالبيت

حدثنا أبو الوليد حدثنا جدي قال حدثنا سعيد بن سالم عن طلحة بن عمرو الحضرمي عن عطاء بن أبي رباح عن إبن عباس قال: لما أهبط الله آدم الى الأرض من الجنة كان رأسه في السماء ورجلاه في الأرض وهو مثل الفلك من رعدته قال: فطأطأ الله عز وجل منه الى ستين ذراعا، فقال: يا رب ما لي لا أسمع أصوات الملائكة ولا أحسهم؟ قال: خطيئتك يا آدم ولكن اذهب فإبن لي بيتا فطف به واذكرني حوله كنحو ما رأيت الملائكة تصنع حول عرشي قال: فأقبل آدم عليه السلام يتخطا فطويت له الأرض وقبضت له المفاوز فصارت كل مفازة يمر بها خطوة وقبض له ما كان من مخاض ماء أو بحر فجعل له خطوة ولم تقع قدمه في شيء من الأرض إلا صار عمرانا وبركة حتى انتهى الى مكة فبنى البيت الحرام وإن جبريل عليه السلام ضرب بجناحه الأرض فابرز عن رأس ثابت على الأرض السفلى فقذفت فيه الملائكة من الصخر ما لا يطيق حمل الصخرة منها ثلاثون رجلا وانه بناه من خمسة أجبل من لبنان، وطور زيتا، وطور سينا والجودي، وحراء حتى استوى على وجه الأرض، قال ابن عباس: فكان أول من أسس البيت وصلى فيه وطاف به آدم عليه السلام حتى بعث الله الطوفان قال: وكان غضبا ورجسا قال: فحيث ما انتهى الطوفان ذهب ريح آدم عليه السلام قال: ولم يقرب الطوفان أرض السند والهند قال: فدرس موضع البيت في الطوفان حتى بعث الله تعالى إبراهيم وإسماعيل فرفعا قواعده واعلامه وبنته قريش بعد ذلك وهو بحذاء البيت المعمور لو سقط، ما سقط إلا عليه، حدثنا أبو الوليد حدثنا مهدي بن أبي المهدي قال حدثنا إسماعيل بن عبد الكريم الصنعاني عن عبد الصمد ابن معقل عن وهب بن منبه ان الله تعالى لما تاب على آدم عليه السلام أمر أن يسير الى مكة فطوى له الأرض وقبض له المغاوز فصار كل مفازة يمر بها خطوة وقبض له ما كان فيها من مخاض ماء أو بحر فجعله له خطوة فلم يضع قدمه في شيء من الأرض إلا صار عمرانا وبركة

حتى انتهى الى مكة، وكان قبل ذلك قد اشتد بكاؤه وحزنه لما كان فيه من عظم المصيبة حتى أن كانت الملائكة لتحزن لحزنه ولتبكي لبكائه فعزاه الله تعالى **بخيمة من خيام الجنة ووضعها له بمكة في موضع الكعبة قبل أن تكون الكعبة، وتلك الخيمة ياقوتة حمراء من يواقيت الجنة فيها ثلاث قناديل من ذهب من تبر الجنة**، فيها نور يلتهب من نور الجنة، ونزل معها الركن وهو يومئذ ياقوتة بيضاء من ربض الجنة وكان كرسيا لآدم عليه السلام يجلس عليه، فلما صار آدم عليه بمكة وحرس له تلك الخيمة بالملائكة كانوا يحرسونها ويذودون عنها ساكن الأرض، وساكنها يومئذ الجن والشياطين فلا ينبغي لهم أن ينظروا الى شيء من الجنة لأنه من نظر الى شيء من الجنه وجبت له، والأرض يومئذ طاهرة نقية لم تنجس، ولم تسفك فيها الدماء، ولم يعمل فيها بالخطايا، فلذلك جعلها الله مسكن الملائكة وجعلهم فيها كما كانوا في السماء يسبحون الله الليل والنهار لا يفترون، وكان وقوفهم على اعلام الحرم صفا واحدا مستديرين بالحرم الشريف كله، الحل من خلفهم والحرم كله من أمامهم فلا يجوزهم جن ولا شيطان ومن أجل مقام الملائكة حرم الحرم حتى اليوم، ووضعت اعلامه حيث كان مقام الملائكة وحرم الله عز وجل على حواء دخول الحرم والنظر الى خيمة **آدم عليه السلام من أجل خطيئتها التي أخطأت في الجنة فلم تنظر الى** شيء من ذلك حتى قبضت، وإن آدم عليه السلام كان إذا أراد لقاءها ليلم بها للولد خرج من الحرم كله حتى يلقها فلم تزل خيمة آدم عليه السلام مكانها حتى قبض الله آدم ورفعها الله تعالى وبنى بنو آدم بها من بعده مكانها بيتا بالطين والحجارة فلم يزل معمورا يعمرونه هم ومن بعدهم حتى كان زمن نوح عليه السلام فنسفه الغرق وخفى مكانه فلما بعث الله تعالى إبراهيم خليل عليه السلام طلب الأساس فلما وصل إليه ظلل الله تعالى له مكان البيت بغمامة فكانت حفاف البيت الأول ثم لم تزل راكدة على حفافة تظل إبراهيم وتهديه مكان القواعد جتى رفع الله القواعد قامة ثم انكشفت الغمامة فذلك قول الله عز وجل:" وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت أي الغمامة التي ركدت على الحفاف لتهديه مكان القواعد فلم يزل يحمد الله منذ رفعه الله معمورا. قال وهب ابن منبه: وقرأت في كتاب من الكتب الأولى ذكر فيه أمر الكعبة فوجد فيه أن ليس من ملك من الملائكة بعثه تعالى الى الأرض إلا أمره بزيارة البيت فينقض من عند العرش محرما ملبيا حتى يستلم الحجر ثم يطوف سبعا بالبيت ويركع في جوفه ركعتين ثم يصعد. وحدثني محمد ابن يحيى عن إبراهيم بن محمد بن أبي يحيى عن عبد الله بن لبيد قال: بلغني أن ابن عباس قال: لما أهبط الله سبحانه آدم عليه السلام الى الأرض أهبطه الى موضع البيت الحرام وهو مثل الفلك من رعدته ثم أنزل عليه الحجر الأسود يعني الركن وهو يتلألأ من شدة بياضه فأخذه آدم عليه السلام فضمه إليه أنسا به ثم نزلت عليه العصا فقيل له: تخط يا آدم فتخطا فإذا هو بأرض الهند والسند فمكث بذلك ما شاء الله ثم استوحش الى الركن فقيل له: احجج قال: فحج فلقيته الملائكة فقالوا: بر حجك يا آدم لقد حججنا هذا البيت قبلك بمئتي عام. وحدثني جدي قال: حدثنا سعيد بن سالم عن عثمان بن ساج قال: أخبرني محمد بن إسحاق قال: بلغني أن آدم عليه السلام لما اهبط الى الأرض حزن على ما فاته مما كان يرى ويسمع في الجنة من عبادة الله فبوأ الله له البيت الحرام وأمره بالسير إليه فسار إليه لا ينزل منزلا إلا فجر الله له ماء معينا حتى انتهى الى مكة فأقام بها يعبد الله عند ذلك البيت ويطوف به فلم تزل داره حتى قبضه الله بها. حدثني جدي قال: حدثني سعيد بن سالم عن عثمان بن ساج قال: بلغني أن عمر ابن الخطاب رضي الله عنه قال لكعب: يا كعب أخبرني عن البيت الحرام قال كعب: انزله الله تعالى من السماء ياقوتة مجوفة مع آدم عليه السلام فقال له: يا آدم إن هذا بيتي أنزلته معك يُطاف حوله كما يطاف حول عرشي، ويصلى حوله كما يصلى حول عرشي، ونزلت معه الملائكة فرفعوا قواعده من حجارة ثم وضع البيت عليه فكان آدم عليه السلام يطوف حوله كما يُطاف حول العرش، ويصلي عنده كما يُصلي عند العرش فلما أغرق الله قوم نوح رفعه الله الى السماء وبقيت قواعده. حدثني جدي قال: وحدثني إبراهيم بن محمد بن أبي يحيى عن أبان بن أبي عياش قال: بلغنا عن أصحاب النبي (ص) أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه سأل كعبا ثم نسق مثل الحديث الأول. وحدثني جدي قال: وحدثني إبراهيم بن محمد بن أبي يحيى عن الزهري عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود عن إبن عباس رضوان الله عليه قال: كان آدم عليه السلام أول من أسس البيت وصلى فيه حتى بعث الله الطوفان. حدثنا مهدي ابن أبي المهدي قال: حدثنا عبد الله بن معاذ الصنعاني عن معمر عن ابان عن أن البيت أهبط ياقوتة لآدم عليه السلام أو درة واحدة. وحدثني جدي قال: حدثنا سعيد بن سالم القداح عن عثمان بن ساج عن وهب بن منبه قال: كان البيت الذي بوأه الله تعالى لآدم عليه السلام يومئذ ياقوتة من يواقيت الجنة، حمراء تلتهب، لها بابان أحدهما شرقي، والآخر غربي وكان فيه قناديل من نور آنيتها ذهب من تبر الجنة وهو منظوم بنجوم من ياقوت أبيض، والركن يومئذ نجم من نجومه وهو يومئذ ياقوتة بيضاء حدثنا جدي قال: حدثني إبراهيم بن محمد بن أبي يحيى قال: حدثنا المغيرة ابن زياد عن عطاء بن أبي رباح قال: لما بنى ابن الزبير الكعبة أمر العمال أن يبلغوا في الأرض فبلغوا صخرا أمثال الابل الخلف قال فقالوا: إن قد بلغنا صخرا معمولا أمثال الإبل الخلف قال قال: زيدوا فاحفروا، فلما زادوا بلغوا

هواء من نار يلقاهم فقال: ما لكم؟ قالوا: لسنا نستطيع أن نزيد، رأينا أمرا عظيما فلا نستطيع. فقال لهم: ابنوا عليه، قال فسمعت عطاء يقول: يرون أن ذلك الصخر مما بنى آدم عليه السلام وحدثني جدي عن سعيد بن سالم عن عثمان بن ساج عن الزهري عن عبيد الله بن عتبة عن ابن عباس عليه السلام خر آدم ساجدا يبكي فهتف به هاتف فقال: ما يبكيك يا آدم؟ قال: أبكاني أنه حيل بيني وبين تسبيح ملائكتك وتقديس قدسك، قيل له: يا آدم، قم الى البيت الحرام، فخرج الى مكة فكان حيث يضع قدميه يفجر عيونا، وعمرانا، ومداين وما بين قدميه الخراب والمعاطش فبلغني أن آدم عليه السلام تذكر الجنة فبكا، فلو عدل بكاء الخلق ببكاء آدم حين أخرج من الجنة ما عدله ولو عدل بكاء الخلق وبكاء آدم عليه السلام ببكاء داود حين أصاب الخطيئة ما عدله، حدثني جدي قال: أخبرنا سعيد بن سالم عن عثمان بن ساج عن وهب بن منبه أن آدم عليه السلام اشتد بكاؤه وحزنه لما كان من عظم المصيبة حتى أن كانت الملائكة تحزن لحزنه، ولتبكي لبكائه قال: فعزاه الله بخيمة من خيام الجنة وضعها له بمكة في موضع الكعبة قبل أن تكون الكعبة وتلك الخيمة ياقوتة حمراء من ياقوت الجنة وفيها ثلاثة قناديل من ذهب من عبر الجنة، فيها نور يلتهب من نور الجنة، فلما صار آدم عليه السلام الى مكة وحرس له تلك الخيمة بالملائكة فكانوا يحرسونه ويذودون عنها سكان الأرض، وسكانها يومئذ الجن، والشياطين، ولا ينبغي لهم أن ينظروا الى شيء من الجنة، لأنه من نظر الى شيء منها وجبت له، والأرض يومئذ نقية طاهرة طيبة لم تنجس ولم تسفك فيها الدماء، ولم يعمل فيها بالخطايا فلذلك جعلها الله يومئذ مستقر الملائكة وجعلهم فيها كما كانوا في السماء يسبحون الليل والنهار لا يفترون، قال: فلم تزل تلك الخيمة مكانها حتى قبض الله آدم عليه السلام ثم رفعها إليه حدثني مهدي بن أبي المهدي عن عبد الله بن معاذ الصنعاني عن معمر عن قتادة في قوله عز وجل:" وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت" قال وضع الله تعالى البيت مع آدم عليه السلام فأهبط الله تعالى آدم الى الأرض، وكان مهبطه بأرض الهند، وكان رأسه في السماء ورجلاه في الأرض، وكانت الملائكة تهابه فقبض الى ستين ذراعا فحزن آدم عليه السلام إذ فقد أصوات الملائكة وتسبيحهم، فشكا ذلك الى الله تعالى فقال الله تعالى: يا آدم اني أهبطت معك بيتا يطاف حوله كما يطاف حول عرشي فانطلق إليه فخرج آدم عليه السلام ومد له في خطو فكان خطوتان أو بين خطوتين مفازة فلم يزل على ذلك، فأتى آدم عليه السلام البيت فطاف به، ومن بعده من الأنبياء، حدثني محمد بن يحيى عن عبد العزيز عمران عن عمر بن أبي معروف عن عبد الله بن أبي زياد أنه قال: لما أهبط الله تعالى آدم عليه السلام من الجنة قال: يا آدم ابن لي بيتا بحذاء بيتي الذي في السماء تتعبد فيه أنت وولدك كما تتعبد ملائكتي حول عرشي. فهبطت عليه الملائكة فحفر حتى بلغ الأرض السابعة فقذفت فيه الملائكة الصخر حتى أشرف على وجه الأرض وهبط آدم عليه السلام بياقوتة حمراء مجوفة لها أربعة أركان بيض فوضعها على الأساس فلم تزل الياقوتة كذلك حتى كان زمن الغرق فرفعها الله سبحانه وتعالى.

ما جاء في حج آدم
عليه السلام ودعائه لذريته

حدثنا أبو الوليد قال: حدثني جدي عن سعيد بن سالم عن عثمان بن ساج قال: حدثت أن آدم عليه السلام خرج حتى قدم مكة فبنى البيت، فلما فرغ من بنائه قال: أي رب أن لكل أجيرا وإن لي أجرا، قال: نعم! فسألني قال: أي رب تردني من حيث أخرجتني، قال: نعم! ذلك لك قال: أي رب ومن خرج الى هذا البيت من ذريتي يقر على نفسه بمثل الذي قررت به من ذنوبي أن تغفر له قال: نعم! ذلك لك، حدثنا أبو الوليد قال حدثنا محمد بن يحيى عن إبراهيم بن محمد بن أبي يحيى عن أبي المليح أنه قال: كان أبو هريرة يقول: حج آدم عليه السلام فقضى المناسك فلما حج قال: يا رب ان لكل عامل أجرا قال الله تعالى: أما أنت يا آدم فقد غفرت لك وأما ذريتك فمن جاء منهم هذا البيت فباء بذنبه غفرت له، فحج آدم عليه السلام فاستقبلته الملائكة بالردم فقالت: بر حجك يا آدم قد حججنا هذا البيت قبلك بألفي عام، قال: فما كنتم تقولون حوله؟ قالوا: كنا نقول: سبحان الله، والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، قال: فكان آدم عليه السلام إذا طاف بالبيت يقول هؤلاء الكلمات وكان طواف آدم عليه السلام سبعة أسابيع بالليل وخمسة أسابيع بالنهار، قال نافع: كان ابن عمر رحمه الله يفعل ذلك، حدثني محمد بن يحيى قال حدثني هشام بن سليمان المخزومي عن عبد الله بن أبي سليمان مولى بني مخزوم أنه قال: طاف آدم عليه السلام سبعا بالبيت حين نزل، ثم صلى تجاه باب الكعبة ركعتين ثم أتى الملتزم فقال: اللهم انك تعلم سريرتي وعلانيتي فاقبل معذرتي وتعلم ما في نفسي وما عندي فاغفر لي ذنوبي وتعلم حاجتي فاعطني سؤلي، الله إني أسألك إيمانا يباشر قلبي ويقينا صادقا حتى أعلم أنه لن يصيبني إلا ما كتبت لي والرضا بما قضيت علي، قال: فأوحى الله تعالى إليه يا آدم قد دعوتني بدعوات فاستجبت لك، ولن يدعوني بها أحد من ولدك إلا كشفت غمومه وهمومه وكففت عليه

ضيعته، ونزعت الفقر من قلبه، وجعلت الغناء بين عينيه، وتجرت له من وراء تجارة كل تاجر، وأتته الدنيا وهي راغمة وأن كان لا يريدها. قال: فمذ طاف آدم عليه السلام كانة سنة الطواف.

سنة الطواف

حدثني جدي قال: حدثنا سعيد بن سالم عن عثمان بن ساج قال حدثني موسى بن عبيد عن محمد بن المنكدر قال: كان أول شيء عمله آدم عليه السلام حين أخبط من السماء طاف بالبيت فلقيته الملائكة فقالوا: بر نسكك يا آدم طفنا بهذا البيت قبلك بألفي سنة حدثني جدي عن سفيان بن عيينة عن الحرام بن أبي لبيد المدني قال: حج آدم عليه السلام فلقيته الملائكة فقالوا: يا آدم بر حجك قد حججنا قبلك بألفي عام، حدثني جدي عن سعيد بن سالم عن عثمان بن ساج قال: أخبرني سعيد أن آدم عليه السلام حج على رجليه سبعين حجة ماشيا، وأن الملائكة لقيته بالمازمين فقالوا بر حجك يا آدم إنا قد حججنا قبلك بألفي عام، حدثني جدي عن سعيد بن سالم عن طلحة بن عمرو الحضرمي عن عطاء بن أبي رباح عن ابن عباس رضي الله عنه قال: حج آدم عليه السلام وطاف بالبيت سبعا فلقيته الملائكة في الطواف فقالوا: بر حجك يا آدم أما أنا قد حججنا قبلك هذا البيت بألفي عام قال: فما كنتم تقولون في الطواف؟ قالوا: كنا نقول سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر قال آدم عليه السلام: فزيدوا فيها ولا حول ولا قوة إلا بالله قال: فزادت الملائكة فيها ذلك قال: ثم حج إبراهيم عليه السلام بعد بنيانه البيت فلقيته الملائكة في الطواف فسلموا عليه فقال لهم إبراهيم: ماذا كنتم تقولون في طوافكم؟ قالوا: كنا نقول قبل أبيك آدم سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، فأعلمناه ذلك فقال آدم عليه السلام: زيدوا فيها ولا حول ولا قوة إلا بالله، فقال إبراهيم: زيدوا فيها العلي العظيم قال: ففعلت الملائكة ذلك.

ذكر وحشة آدم في الأرض حين نزلها وفضل البيت الحرام والحرم

حدثنا أبو الوليد قال حدثني جدي عن سعيد بن سالم عن عثمان بن ساج عن وهب بن منبه أنه قال: إن آدم عليه السلام لما هبط الى الأرض استوحش فيها لما رأى من سعتها، ولم ير فيها أحدا غيره فقال: يا رب أما لأرضك هذه عامر يسبحك فيها ويقدس لك غيري؟ قال: إني سأجعل فيها من ذريتك من يسبح بحمدي، ويقدس لي، وسأجعل فيها بيوتا ترفع لذكري ويسبحني فيها خلقي، وسأبوئك فيها بيتا أختاره لنفسه، واختصه بكرامتي، وأوثره على بيوت الأرض كلها بإسمي، فأسميه بيتي، وانطقه بعظمتي، واجوزه بخرماتي، واجعله أحق بيوت الأرض كلها وأولاها بذكري، وأضعه في البقعة التي اخترت لنفسي، فإني إخترت مكانه يوم خلقت السموات والأرض، وقبل ذلك قد كان بغيتي فهو صفوتي من البيوت ولست أسكنه وليس ينبغي لي أن أسكن البيوت ولا ينبغي لها أن تسعني، ولكن على كرسي الكبرياء والجبروت وهو الذي استقل بعزتي، وعليه وضعت عظمتي وجلالي، وهنالك استقر قراري، ثم هو بعد ضعيف عني لولا قوتي ثم أنا بعد ذلك ملء كل شيء، وفوق كل شيء، ومع كل شيء، ومحيط بكل شيء، وأمام كل شيء، وخلف كل شيء، ليس ينبغي لشيء أن يعلم علمي، ولا يقدر قدرتي، ولا يبلغ كنه شأني، اجعل ذلك البيت لك ولمن بعدك حرما وأمنا، أحرم بحرماته ما فوقه، وما تحته، وما حوله فمن حرمه بحرمتي فقد عظم حرماتي، ومن أحله فقد أباح حرماتي، ومن أمن أهله فقد استوجب بذلك أماني، ومن أخافهم فقد اخفرني في ذمتي، ومن عظم شأنه عظم في عيني، ومن تهاون به صغر في عيني ولكل ملك حيازة ما حواليه، وبطن مكة خيرتي وحيازتي وجيران بيتي وعمارها وزوارهما وفدي وأضيافي في كنفي وأفنيتي ضامنون علي في ذمتي وجواري فاجعله أول بيت وضع للناس، وأعمره بأهل السماء وأهل الأرض يأتونه أفواجا شعثا غبرا على كل ضامر يأتين من كل فج عميق يعجون بالتكبير عجيجا ويرجون بالتلبية رجيجا وينتحبون بالبكاء نحيبا فمن اعتمره لا يريد غيري فقد زارني ووفد إليّ ونزل بي ومن نزل بي فحقيق عليّ أن أتحفه بكرامتي وحق الكريم أن يكرم وفده وأضيافه وأن يسعف كل واحد منهم بحاجته، تعمره يا آدم ما كنت حيا ثم تعمره من بعدك الأمم والقرون والأنبياء أمة بعد أمة وقرن بعد قرن ونبي بعد نبي حتى ينتهي ذلك الى نبي من ولدك وهو خاتم النبيين فاجعله من عماره، وسكانه، وحماته، وولاته، وسقاته يكون أميني عليه ما كان حيا فإذا انقلب الي وجدني قد ذخرت له من أجره وفضيلته ما يتمكن به للقربة مني والوسيلة إلي وأفضل المنازل في دار المقام واجعل اسم ذلك البيت وذكره وشرفه ومجده وثناءه ومكرمته لنبي من ولدك يكون قبل هذا النبي وهو أبوه يقال له إبراهيم ارفع له قواعده، واقضي على يديه عمارته، وانيط له سقايته، وأريه حله وحرمه ومواقفه واعلمه مشاعره ومناسكه، واجعله أمة واحدة، قانتا لي، قائما بأمري داعيا الى سبيلي أجتبيه واهديه الى صراط مستقيم، أبتليه فيصبر، وأعافيه فيشكر، وينذر لي فيفي، ويعدني فينجز، وأستجيب له في ولده وذريته من بعده وأشفعه فيهم

فأجعلهم أهل ذلك النبي، وولاته، وحماته، وخدامه، وسدانه وخزانه، وحجابه حتى يبتدعوا ويغيروا. فإذا فعلوا ذلك فأنا الله أقدر القادرين على أن أستبدل من أشاء بمن أشاء، اجعل إبراهيم إمام أهل ذلك البيت، وأهل تلك الشريعة يأتم به من حضر تلك المواطن من جميع الأنس والجن يطئون فيها آثاره، ويتبعون فيها سنته، ويقتدون فيها بهديه، فمن فعل ذلك منهم أوفى نذره، واستكمل نسكه، ومن لم يفعل ذلك منهم ضيع نسكه، وأخطأ بغيته فمن سأل عني يومئذ في تلك المواطن أين أنا؟ فأنا مع الشعث الغبر الموفين بنذورهم المستكملين مناسكهم المبتهلين الى ربهم الذي يعلم ما يبدون وما يكتمون وليس هذا الخلق، ولا هذا الأمر الذي قصصت عليك شأنه يا آدم بزايد في ملكي، ولا عظمتي، ولا سلطاني، ولا شيء مما عندي إلا كما زادت قطرة من رشاش وقعت في سبعة أبحر لا تحصى بل القطرة أزيد في البحر من هذا الأمر في شيء مما عندي ولو لم أخلقه لم ينقص شيئا من ملكي ولا عظمتي ولا مما عندي من الغناء والسعة إلا كما نقصت الأرض ذرة وقعت من جميع ترابها، وجبالها وحصاها، ورمالها، وأشجارها بل الذرة أنقص في الأرض من هذا الأمر لو لم أخلقه لشيء مما عندي وبعد هذا من هذا مثلا للعزيز الحكيم، حدثنا مهدي بن أبي المهدي قال: حدثنا إسماعيل بن عبد الكريم الصنعاني قال: حدثني عبد الصمد بن معقل عن وهب بن منبه بنحوه عن بن أبي المهدي قال: حدثنا إسماعيل بن عبد الكريم الصنعاني قال: حدثني عبد الصمد بن معقل عن وهب بن منبه بنحوه.

ما جاء في البيت المعمور

حدثنا أبو الوليد قال حدثني جدي قال حدثني سعيد بن سالم عن عثمان ابن ساج عن وهب بن منبه قال أخبرني أبو سعيد عن مقاتل يرفع الحديث الى النبي (ص) في حديث حدث به قال: سمي البيت المعمور لأنه يصلي فيه كل يوم سبعون ألف ملك ثم ينزلون إذا أمسوا فيطوفون بالكعبة ثم يسلمون على النبي (ص) ثم ينصرفون فلا تنالهم النوبة حتى تقوم الساعة. حدثني جدي عن سعيد بن سالم عن عثمان بن ساج عن وهب بن منبه أنه وجد في التوراة بيتا في السماء بحيال الكعبة فوق قبتها اسمه الضراح وهو البيت المعمور يرده كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه أبدا.

حدثني جدي عن سعيد بن سالم قال أخبرني ابن جريح عن صفوان بن سليم عن كريب مولى ابن عباس عن ابن عباس قال قال رسول الله (ص): البيت الذي في السماء يقال له الضراح وهو مثل بناء هذا البيت الحرام ولو سقط لسقط عليه يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون فيه أبدا.

وحدثني جدي عن سعيد بن سالم عن عثمان بن ساج قال: أخبرني محمد ابن السايب الكلبي قال: بلغني والله أعلم أن بيتا في السماء يقال له الضراح بحيال الكعبة يدخله كل يوم سبعون ألف ملك من الملائكة ما دخلوه قط قبلها حدثني جدي قال حدثني سفيان بن عيينة عن ابن أبي الطفيل قال: سأل ابن الكواء عليا رضي الله عنه ما البيت المعمور؟ قال: هو الضراح وهو حذاء هذا البيت وهو في السماء السادسة يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون فيه أبدا.

حدثني أبو محمد قال حدثنا أبو عبيد الله سعيد بن عبد الرحمن المخزومي قال حدثنا سفيان بن عيينة بنحوه إلا أنه قال: في السماء السابعة وقال: لا يعودون إليه أبدا الى يوم القيامة.

حدثنا أبو الوليد قال حدثنا مهدي بن أبي المهدي قال حدثنا عبد الله بن معاذ الصنعاني قال حدثنا معمر عن وهب بن عبد الله عن أبي الطفيل قال: شهدت عليا رضي الله عنه وهو يخطب وهو يقول: سلوني فوالله لا تسألوني عن شيء يكون الى يوم القيامة إلا حدثتكم به، وسلوني عن كتاب الله فوالله ما منه آية إلا وأنا أعلم أنها بليل نزلت أم بنهار أم بسهل نزلت أم بجبل فقام ابن الكواء وأنا بينه وبين علي رضي الله عنه وهو خلفي قال: أفرأيت البيت المعمور ما هو؟ قال: ذاك الضراح فوق سبع سموات تحت العرش يدخله كل يوم سبعون ألف مل لا يعودون فيه الى يوم القيامة.

ما جاء في رفع البيت المعمور
زمن الغرق وما جاء فيه

حدثنا أبو الوليد قال: حدثني جدي قال حدثنا سعيد بن سالم عن ابن جريج عن مجاهد قال: بلغني أنه لما خلق الله عز وجل السموات والأرض كان أول شيء وضعه فيها البيت الحرام وهو يومئذ ياقوته حمراء جوفاء لها بابان أحدهما شرقي والآخر غربي فجعله مستقبل البيت المعمور فلما كان زمن الغرق رفع في ديباجتين فهو فيهما الى

يوم القيامة واستودع الله عز وجل الركن أبا قبيس قال وقال ابن عباس: كان ذهبا فرفع زمان الغرق وهو في السماء وقال ابن جريج قال جويبر: كان بمكة البيت المعمور فرفع زمان الغرق فهو في السماء حدثني جدي عن سعيد بن سالم عن عثمان ابن ساج قال: أخبرني أبو سعيد عن مقاتل يرفع الحديث الى النبي (ص) في حديث حدث به أن آدم عليه السلام قال: أي رب أني أعرف شقوتي أني لا أرى شيئا من نورك يعبد فأنزل الله عز وجل عليه البيت المعمور على عرض هذا البيت في موضعه من ياقوتة حمراء ولكن طوله كما بين السماء والأرض وأمره أن يطوف به فاذهب الله عنه الغم الذي كان يجده قبل ذلك ثم رفع على عهد نوح عليه السلام.

ذكر بناء ولد آدم البيت الحرام
بعد موت آدم عليه السلام

حدثنا أبو الوليد قال: حدثنا جدي عن سعيد بن سالم عن عثمان بن ساج عن وهب بن منبه أنه قال: لما رفعت الخيمة التي عزى الله بها آدم من حلية الجنة حين وضعت له بمكة في موضع البيت ومات آدم عليه السلام فبنى بنو آدم من بعده مكانها بيتا بالطين والحجارة فلم يزل معمورا يعمرونه هم ومن بعدهم حتى كان زمن نوح عليه السلام فنسفه الغرق وغير مكانه حتى بويء لإبراهيم عليه السلام.

ما جاء في طواف سفينة نوح
عليه السلام زمن الغرق بالبيت الحرام

حدثنا أبو الوليد قال: حدثنا مهدي بن أبي المهدي قال: حدثنا بشر ابن العمري البصري عن داود بن أبي الفرات الكندي عن علباء بن أحمر اليشكري عن عكرمة عن ابن عباس قال: كان مع نوح في السفينة ثمانون رجلا معهم أهلوهم وأنهم كانوا أقاموا في السفينة مائة وخمسين يوما وأن الله تعالى وجه السفينة الى مكة فدارت بالبيت أربعين يوما ثم وجهها الله تعالى الى الجودى قال فاستقرت عليه فبعث نوح عليه السلام الغراب ليأتيه بخبر الأرض فذهب فوقع على الجيف وأبطأ عنه فبعث الحمامة فأتته بوق الزيتون ولطخت رجليها بالطين فعرف نوح أن الماء قد نضب فهبط الى أسفل الجودي فابتنى قرية وسماها ثمانين فأصبحوا ذات يوم وقد تبلبلت ألسنتهم على ثمانين لغة أحدها العربية قال: فكان لا يفقه بعضهم عن بعض وكان نوح عليه السلام يعبر عنهم.

أمر الكعبة بين نوح وإبراهيم عليهما السلام

حدثنا أبو الوليد قال: حدثني جدي عن سعيد بن سالم عن بن جريج عن مجاهد أنه قال كان موضع الكعبة قد خفي ودرس في زمن الغرق فيما بين نوح وإبراهيم عليهما السلام قال: وكان موضعه أكمة حمراء مدرة لا تعلوها السيول غير أن الناس يعلمون أن موضع البيت فيما هنالك ولا يثبت موضعه وكان يأتيه المظلوم والمتعوذ من أقطار الأرض، ويدعو عنده المكروب فقل من دعا هنالك إلا استجيب له. وكان الناس يحجون الى موضع البيت حتى بوأ الله مكانه لإبراهيم عليه السلام لما أراد من عمارة بيته واظهار دينه وشريعه فلم يزل منذ أهبط الله آدام عليه السلام الى الأرض معظما محرما بيته تتناسخه الأمم والملل أمة بعد أممة وملة بعد ملة قال: وقد كانت الملائكة تحجه قبل آدم عليه السلام.

ما ذكر من تخير إبراهيم عليه السلام
موضع البيت الحرام من الأرض

حدثنا أبو الوليد قال: حدثني جدي عن سعيد بن سالم عن عثمان بن ساج قال: بلغني والله أعلم أن إبراهيم خليل الله تعالى عرج به الى السماء فنظر الى الأرض مشارقها ومغاربها فاختار موضع الكعبة فقالت له الملائكة: يا خليل الله اخترت حرم الله تعالى في الأرض قال: فبناه من حجارة سبعة أجبل قال: ويقولون خمسة وكانت الملائكة تأتي بالحجارة الى إبراهيم من تلك الجبال.

باب ما جاء في إسكان إبراهيم إبنه إسماعيل
وأمه هاجر في بدء أمره عند البيت الحرام كيف كان

حدثنا أبو الوليد: حدثني جدي قال حدثني سعيد بن سالم عن عثمان ابن ساج قال أخبرني محمد بن إسحاق قال حدثنا ابن أبي نجيح عن مجاهد أن الله تعالى لما بوأ لإبراهيم مكان البيت خرج إليه من الشام وخرج معه إبنه إسماعيل وأمه هاجر، وإسماعيل طفل يرضع وحملوا فيما يحدثني على البراق، قال عثمان بن ساج: وحدثنا عن الحسن البصري أنه كان يقول في صفة البراق عن النبي (ص) قال: أنه أتاني جبريل بدابة بين الحمار والبغل، لها جناحان في فخذيها تحفزانها تضع حافرها في منتهى طرفها، قال عثمان: قال محمد بن إسحاق: ومعه جبريل عليه السلام يدله على موضع البيت ومعالم الحرم قال: فخرج وخرج معه لا يمر إبراهيم بقرية من القرايا إلا قال: يا جبريل أبهذا أمرت؟ فيقول له جبريل عليه السلام: أمضه حتى قدم مكة وهي إذ ذاك عضاه من سلم وسمر وبها ناس يقال لهم العماليق خارجا من مكة فيما حولها، والبيت يومئذ ربوة حمراء مدرة. فقال إبراهيم لجبريل: أها هنا أمرت أن أضعهما؟ قال: نعم! قال: فعمد بهما الى موضع الحجر فأنزلهما فيه وأمر هاجر أم إسماعيل أن تتخذ فيه عريشا ثم قال: ربنا أني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع الآية ثم انصرف الى الشام وتركهما عند البيت الحرام. وحدثني جدي قال: حدثنا مسلم بن خالد الزنجي عن ابن جريج عن كثير بن المطلب ابن أبي وداعة السهمي عن سعيد بن جبير قال حدثنا عبد الله بن عباس أنه حين كان بين أم إسماعيل بن إبراهيم وبين سارة إمرأة إبراهيم ما كان أقبل إبراهيم عليه السلام بأم إسماعيل، وإسماعيل وهو صغير ترضعه حتى قدم بهما مكة ومع أم إسماعيل شنة فيها ماء تشرب منها وتدر على ابنها وليس معها زاد؛ يقول سعيد بن جبير: قال ابن عباس: فعمد بهما الى دوحة فوق زمزم في أعلى المسجد يشير لنا بين البير وبين الصفة يقول فوضعهما تحتها، ثم توجه إبراهيم خارجا على دابته واتبعت أم إسماعيل أثره حتى أوفى إبراهيم بكدا يقول ابن عباس: فقالت له أم إسماعيل الى من تتركها وابنها؟ قال: الى الله عز وجل قالت: رضيت بالله فرجعت أم إسماعيل تحمل ابنها حتى قعدت تحت الدوحة فوضعت إبنها الى جنبها وعلقت شنتها تشرب منها وتدر على إبنها حتى فني ماء شنتها فانقطع درها فجاع إبنها فاشتد جوعه حتى نظرت إليه أمه يتشحط قال: فحسبت أم إسماعيل أنه يموت فأحزنها، يقول ابن عباس: قالت أم إسماعيل: لو تغيبت عنه حتى لا أرى موته، يقول ابن عباس: فعمدت أم إسماعيل الى الصفا حين رأته مشرفا تستوضح عليه أي ترى أحدا بالوادي ثم نظرت الى المروة ثم قال: لو مشيت بين هذين الجبلين تعللت حتى يموت الصبي ولا أراه قال ابن عباس: فمشت بينهما أم إسماعيل ثلاث مرات أو أربع ولا تجيز بطن الوادي في ذلك إلا رملا، يقول ابن عباس: ثم رجعت أم إسماعيل الى ابنها فوجدته ينشغ كما تركته فأحزنها فعادت الى الصفا تتعلل حتى يموت ولا تراه فمشت بين الصفا والمروة كما مشت أول مرة، يقول ابن عباس: حتى كان مشيها وبينهما سبع مرات، قال ابن عباس: قال أبو القاسم: فلذلك طاف الناس بين الصفا والمروة، قال: فرجعت أم إسماعيل تطالع إبنها فوجدته كما تركته ينشغ فسمعت صوتا قد آب عليها ولم يكن معها أحد غيرها فقالت: قد أسمع صوتك فأغثني أن كان عندك خير قال: فخرج لها جبريل عليه السلام فإتبعته حتى ضرب برجله مكان البئر يعني زمزم فظهر ماء فوق الأرض حيث فحص جبريل، يقول ابن عباس قال أبو القاسم: فحاضته أم إسماعيل بتراب ترده خشية أن يفوتها قبل أن تأتي بشنتها فاستقت وشربت ودرت على إبنها.

حدثني جدي قال: حدثنا سعيد بن سالم عن عثمان بن ساج قال: أخبرني محمد بن إسحاق قال بلغني أن ملكا أتى هاجر أم إسماعيل حين أنزلها إبراهيم بمكة قبل أن يرفع إيراهيم وإسماعيل القواعد من البيت فأشار لها الى البيت وهو ربوة حمراء مدرة فقال لها: هذا أول بيت وضع للناس في الأرض وهو بيت الله العتيق، واعلمي إن إبراهيم وإسماعيل يرفعانه للناس، قال ابن جريج: وبلغني أن جبريل عليه السلام حين هزم بعقبة في موضع زمزم قال لأم إسماعيل وأشار لها الى موضع البيت هذا أول بيت وضع للناس، وهو بيت الله العتيق، واعلمي إن إبراهيم وإسماعيل يرفعانه للناس ويعمرانه فلا يزال معمورا، محرما، مكرما الى يوم القيامة، قال ابن جريج: فماتت أم إسماعيل قبل أن يرفعه إبراهيم وإسماعيل ودفنت في موضع الحجر.

حدثني جدي عن سعيد بن سالم عن عثمان بن ساج قال: أخبرني علي ابن عبد الله بن الوازع عن أيوب السختياني عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أن الملك الذي أخرج زمزم لهاجر قال لها: وسيأتي أبو هذا الغلام فيبني بيتا هذا مكانه وأشار لها الى موضع البيت ثم انطلق الملك.

ما ذكر من نزول جرهم
مع أم إسماعيل في الحرم

حدثني جدي عن مسلم بن خالد الزنجي عن ابن جريج عن كثير بن كثير عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: لما أخرج الله ماء زمزم لأم إسماعيل فبينما هي على ذلك إذ مر ركب من جرهم قافلين من الشام في الطريق السفلي فرأى الركب الطير على الماء فقال بعضهم: ما كان بهذا الوادي من ماء ولا أنيس، يقول ابن عباس:

فأرسلوا جريين لهم حتى أتيا أم إسماعيل فكلماها ثم رجعا الى ركبهما فأخبراهم بمكانها، قال: فرجع الركب كلهم حتى حيوها فردت عليهم وقالوا: لمن هذا الماء؟ قالت أم إسماعيل: هو لي قالوا لها : أتأذنين لنا أن ننزل معك عليه؟ قالت: نعم! يقول ابن عباس: قال أبو القاسم:القي ذلك أم إسماعيل وقد أحبت الأنس فنزلوا وبعثوا الى أهاليهم فقدموا إليهم وسكنوا تحت الدوح، واعترشوا عليها العرش فكانت معهم هي وابنها، حتى ترعرع الغلام ونفسوا فيه وأعجبهم، وتوفيت أم إسماعيل وطعامهم الصيد يخرجون من الحرم ويخرج معهم إسماعيل فيصيد، فلما بلغ أنكحوه جارية منهم، قال: وهي في بنت سعيد بن أسامة، يقول ابن عباس: فأقبل إبراهيم من الشام يقول: حتى أطالع تركتي فأقبل إبراهيم عليه السلام حتى قدم مكة فوجد امرأة إسماعيل فسألها عنه فقالت: هو غائب، ولم تلن له في القول فقال لها إبراهيم: قولي لإسماعيل: قد جاء بعدك شيخ كذا وكذا وهو يقرأ عليك السلام ويقول لك: غير عتبة بيتك فإني لم أرضها، يقول ابن عباس: وكان إسماعيل عليه السلام كلما جاء سأل أهله هل جاءكم أحد بعدي؟ فلما رجع سأل أهله فقالت إمرأته: قد جاء بعدك شيخ فنعتته له فقال لها إسماعيل: قلت له شيئا قالت: لا قال: فهل قال لك من شيءقالت: نعم! إقري عليه السلام وقولي له غير عتبة بيتك فإني لم أرضها لك قال إسماعيل: أنت عتبة بيتي فارجعي الى أهلك فردها إسماعيل الى أهلها فأنكحوه امرأة أخرى، يقول ابن عباس: ثم لبث إبراهيم ما شاء الله أن يلبث ثم رجع إبراهيم فوجد إسماعيل غايبا ووجد إمرأته الآخرى فوقف فسلم فردت عليه السلام واستنزلته وعرضت عليه الطعام والشراب فقال: ما طعامكم وشرابكم؟ قالت: اللحم والماء قال: هل من حب أو غيره من الطعام؟ قالت: لا قال: بارك الله لكم في اللحم والماء، قال ابن عباس: يقول رسول الله (ص): لو وجد عندها يومئذ حبا لدعا لهم بالبركة فيه فكانت أرضا ذات زرع، ثم ولي إبراهيم عليه السلام وقال: قولي له: قد جاء بعدك شيخ فقال: إني وجدت عتبة بيتك صالحة فاقررها فرجع إسماعيل عليه السلام الى أهله فقال: هل جاءكم بعد أي أحد؟ فقالت: نعم! قد جاء بعدك شيخ كذا وكذا وقال: فهل عهد إليكم من شيء؟ قالت: نعم! يقول: إني وجدت عتبة بيتك صالحة فاقررها.

ما ذكر من بناء إبراهيم الكعبة
عليه السلام

حدثنا أبو الوليد قال:حدثني جدي قال: حدثنا مسلم بن خالد الزنجي عن ابن جريج عن كثير بن كثير عن سعيد بن جبير قال: حدثنا عبد الله بن عباس قال: لبث إبراهيم ما شاء الله أن يلبث ثم جاء الثالثة فوجد إسماعيل عليه السلام قاعدا تحت الدوحة التي بناحية البير يبري نبلا أو نبالا له فسلم عليه ونزل إليه فقعد معه فقال إبراهيم: يا إسماعيل إن الله تعالى قد أمرني بأمر فقال له إسماعيل: فأطع ربك فيما أمرك، فقال إبراهيم: يا إسماعيل أمرني ربي أن أبني له بيتا، قال له إسماعيل: وأين؟ يقول ابن عباس: فأشار له الى أكمة مرتفعة على ما حولها عليها رضراض من حصباء يأتيها السيل من نواحيها ولا يركبها، يقول ابن عباس: فقاما يحفران عن القواعد ويحفرانها ويقولان: ربنا تقبل منا إنك سميع الدعاء، ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ويحمل له إسماعيل الحجارة على رقبته ويبني الشيخ إبراهيم فلما ارتفع البناء وشق على الشيخ إبراهيم تناوله قرب له إسماعيل هذا الحجر يعني المقام فكان يقوم عليه ويبني ويحوله في نواحي البيت حتى انتهى الى وجه البيت، يقول ابن عباس: فلذلك سمي مقام إبراهيم لقيامه عليه.

حدثني مهدي بن أبي المهدي قال حدثنا عبد الله بن معاذ الصنعاني عن معمر عن أيوب السختياني وكثير بن كثير يزيد أحدهما على صاحبه عن سعيد بن جبير في حديث حدث به طويل عن ابن عباس قال: فجاء إبراهيم وإسماعيل يبري نبلا له أو نباله تحت الدوحة قريبا من زمزم فلما رآه قام إليه فصنعا كما يصنع الوالد بولده والولد بوالده قال معمر: وسمعت رجلا يقول: بكيا حتى أجابتهما الطير. قال سعيد: فقال: يا إسماعيل إن الله عز وجل قد أمرني بأمر قال: فأطع ربك فيما أمرك قال: وتعينني قال: وأعينك قال: فإن الله تعالى قد أمرني أن أبني له بيتا ها هنا فعند ذلك رفع إبراهيم القواعد من البيت. حدثني جدي قال: حدثنا سعيد بن سالم قال أخبرني ابن جريج قال قال مجاهد: أقبل إبراهيم والسكينة، والصرد والملك من الشام فقالت السكينة: يا إبراهيم ربض على البيت فلذلك لا يطوف بالبيت ملك من هذه الملوك ولا أعرابي نافر إلا رأيت عليه السكينة قال: وقال ابن جريج: أقبلت معه السكينة لها رأس كرأس الهرة وجناحان.

وحدثني جدي عن سعيد بن سالم عن عثمان بن ساج عن ابن جريج قال: قال علي بن أبي طالب: أقبل إبراهيم عليه السلام والملك والسكينة والصرد دليلا حتى تبوأ البيت الحرام كما تبوأت العنكبوت بيتها فحفر فأبرز عن ربض في أسها أمثال خلف الإبل لا يحرك الصخرة إلا ثلاثون رجلا قال: ثم قال لإبراهيم: قم فأبن لي بيتا قال يا

رب وأين؟ قال: سنريك قال: فبعث الله تعالى سحابة فيها رأس تكلم إبراهيم فقال: يا إبراهيم إن ربك يأمرك أن تخط قدر هذه السحابة فجعل ينظر إليها ويأخذ قدرها فقال له الرأس أقد فعلت؟ قال: نعم! فارتفعت السحابة فأبرز عن أس ثابت من الأرض فبناه إبراهيم عليه السلام، قال: وحدثني جدي عن سعيد ابن سالم عن عثمان بن ساج قال: أخبرني محمد بن أبان عن ابن إسحاق السبيعي عن حارثة بن مضرب عن علي بن أبي طالب في حديث حدث به عن زمزم قال: ثم نزلت السكينة كأنها غمامة أو ضبابة في وسطها كهيئة الرأس يتكلم يقول يا إبراهيم خذ قدري من الأرض، لا تزد ولا تنقص، فخط فذلك بكة وما حواليه مكة.

حدثني جدي عن سعيد بن سالم عن عثمان بن ساج عن وهب بن منبه أنه أخبره قال: لما ابتعث الله تعالى إبراهيم خليلة ليبني له البيت طلب الأساس الأول الذي وضع بنو آدم في موضع الخيمة التي عزى الله بها آدم عليه السلام من خيام الجنة حين وضعت له بمكة في موضع البيت الحرام فلم يزل إبراهيم يحفر حتى وصل الى القواعد التي أسس بنو آدم في زمانهم في موضع الخيمة، فلما وصل إليها أظل الله له مكان البيت بغمامة، فكانت خفاف البيت الأول، ثم لم تزل راكدة على حفافه تظل إبراهيم وتهديه مكان القواعد حتى رفع القواعد قامة ثم انكشطت الغمامة فذلك قوله عز وجل وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت أي الغمامة التي ركدت على الحفاف ليهتدي بها مكان القواعد فلم يزل والحمد لله منذ يوم ركعة الله معمورا. حدثني مهدي بن أبي المهدي قال: حدثنا عبد الرحمن بن عبد الله مولى بني هاشم قال: أخبرنا حماد عن سماك بن حرب عن خالد بن عرعرة عن علي بن أبي طالب في قوله عز وجل " إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا وهدى للعالمين فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمنا" قال: إنه ليس بأول بيت. كان نوح في البيوت قبل إبراهيم وكان إبراهيم في البيوت ولكنه أول بيت وضع للناس فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمنا. هذه الآيات قال: إن إبراهيم أمر ببناء البيت فضاق به ذرعا فلم يدر كيف يبني فأرسل الله تعالى إليه السكينة وهي ريح خجوج لها رأس حتى تطوقت مثل الحجفة فبنى عليها وكان يبني كل يوم سافا ومكة يومئذ شديدة الحر، فلما بلغ موضع الحجر قال لإسماعيل: إذهب فالتمس حجرا أضعه ها هنا ليهدي الناس به، فذهب إسماعيل يطوف في الجبال وجاء جبريل بالحجر الأسود وجاء إسماعيل فقال من أين لك هذا الحجر؟ قال: من عند من لم يتكل على بنائي وبنائك، ثم انهدم فبنته العمالقة، ثم انهدم فبنته قبيلة من جرهم، ثم انهدم فبنته قريش. فلما أرادوا أن يضعوا الحجر تنازعوا فيه فقالوا: أول رجل يدخل علينا من الباب فهو يضعه، فجاء رسول الله (ص) فأمر بثوب فبسط ثم وضعه فيه ثم قال: ليأخذ من كل قبيلة رجل من ناحية الثوب. ثم رفعوه ثم أخذه رسول الله (ص) فوضعه، حدثني جدي قال: حدثني سفيان بن عيينة عن بشر بن عاصم عن سعيد بن المسيب قال: أخبرني علي بن أبي طالب كرم الله وجهه قال: أقبل إبراهيم من أرمينية معه السكينة تدله حتى تبوأ البيت كما تبوأت العنكبوت بيتها فرفعوا عن أحجار الحجر يطيقه أو لا يطيقه ثلاثون رجلا، حدثني مهدي بن أبي المهدي قال: حدثنا عبد الله بن معاذ الصنعاني عن معمر عن قتادة في قوله عز وجل:" وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل" قال: التي كانت قواعد البيت قبل ذلك، قال الخزاعي: وحدثنا أبو عبيد الله باسناد عن سفيان مثله. حدثنا مهدي بن أبي المهدي قال: حدثنا عبد الرحمن بن عبد الله مولى بني هاشم قال: حدثنا أبو عوانة عن ابن أبي بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: أما والله ما بنياه بقصة ولا مدر ولا كان معهما من الأعوان والأموال ما يسقفانه ولكنهما أعلماه فطافا به.

حدثني جدي قال: حدثنا سفيان بن عيينة عن مجاهد عن الشعبي قال: لما أمر إبراهيم أن يبني وانتهى الى موضع الحجر قال لإسماعيل: ائتني بحجر ليكون علما للناس يبتدئون منه الطواف فأتاه بحجر فلم يرضه فأتى إبراهيم بهذا الحجر، ثم قال: أتاني به من لم يكلني على حجرك.

وحدثني جدي قال: حدثنا داود بن عبد الرحمن عن ابن جريج عن بشر بن عاصم قال: أقبل إبراهيم من أرمينية معه السكينة والملك والصرد دليلا يتبوأ البيت كما تبوأت العنكبوت بيتها فرفع صخرة فما رفعها عنه إلا ثلاثون رجلا فقالت السكينة: أبن علي فلذلك لا يدخله أعرابي نافر ولا جبار إلا رأيت عليه السكينة. وحدثني مهدي بن أبي المهدي قال: حدثنا بشر بن السرى البصري عن حماد بن زيد عن أيوب عن أبي قلابة قال: قال الله تعالى: يا آدم إني مهبط معك بيتي يطاف حوله كما يطاف حول عرشي، ويصلى عنده كما يصلى عند عرشي، فلم يزل كذلك حتى كان زمن الطوفان فرفع، حتى بوأ لإبراهيم مكانه فبناه من خمسة أجبل من حرا، وثبير، ولبنان، والطور، والجبل الأحمر.

وحدثني مهدي بن أبي المهدي قال: حدثنا عمر بن سهل عن يزيد بن نافع عن سعيد عن قتادة في قوله عز وجل:" وإذ يرفع إبراهيم القواعد" قال: ذكر لنا أنه بناه من خمسة أجبل من طورسينا، وطور زيتا، ولبنان، والجودي، وحرا، وذكر لنا أن قواعده من حراء.

حدثني مهدي بن أبي المهدي قال: حدثنا مروان بن معاوية الفزاري قال: حدثنا العلاء عن عمر بن مرة عن يوسف بن ماهك قال: قال عبد الله ابن عمرو أن جبريل عليه السلام هو الذي نزل عليه بالحجر من الجنة، وأنه وضعه حيث رأيتم، وأنكم لن تزالوا بخير ما دام بين ظهرانكم، فتمسكوا به ما استطعتم فإنه يوشك أن يجيء فيرجع به من حيث جاء به.

حدثني جدي عن سعيد بن سالم عن عثمان بن ساج قال: أخبرني محمد ابن إسحاق قال: لما أمر إبراهيم خليل الله تعالى أن يبني البيت الحرام أقبل من أرمينية على البراق معه السكينة لها وجه يتكلم وهي بعد ريح هفافة، ومعه ملك يدله على موضع البيت حتى انتهى الى مكة وبها إسماعيل وهو يومئذ ابن عشرين سنة وقد توفيت أمه قبل ذلك ودفنت في موضع الحجر، فقال: يا إسماعيل إن الله تعالى قد أمرني أن أبني له بيتا، فقال له إسماعيل: وأين موضعه؟ قال: فأشار له الملك الى موضع البيت قال: فقاما يحفران عن القواعد ليس معهما غيرهما فبلغ إبراهيم الأساس أساس آدم الأول فحفر عن ربض في البيت فوجد حجارة عظاما ما يطيق الحجر منها ثلاثون رجلا، ثم بنى على أساس آدم الأول وتطوقت السكينة كأنها حية على الأساس الأول، وقالت: يا إبراهيم ابن علي فبنى عليها فلذلك لا يطوف بالبيت أعرابي نافر ولا جبار إلا رأيت عليه السكينة فبنى البيت وجعل طوله في السماء تسعة أذرع وعرضه في الأرض اثنين وثلاثين ذراعا من الركن الأسود الى الركن الشامي الذي عند الحجر من وجهه وجعل عرض ما بين الركن الشامي الى الركن الغربي الذي فيه الحجر اثنين وعشرين ذراعا، وجعل طول ظهرها من الركن الغربي الى الركن اليماني أحد وثلاثين ذراعا وجعل عرض شقها اليماني من الركن الأسود الى الركن اليماني عشرين ذراعا، فلذلك سميت الكعبة لأنها على خلقة الكعب، قال: وكذلك بنيان أساس آدم عليه السلام، وجعل بابها بالأرض غير مبوب حتى كان تبغ اسعد الحميري هو الذي جعل لها بابا، وغلقا فارسيا، وكساها كسوة تامة، ونحر عندها. قال: وجعل إبراهيم عليه السلام الحجر الى جنب البيت عريشا من أراك تقتحمه العنز فكان زربا لغنم إسماعيل، قال: وحفر إبراهيم عليه السلام جبا في بطن البيت على يمين من دخله يكون خزانة للبيت يلقى فيه ما يهدى للكعبة وهو الجب الذي نصب عليه عمرو بن لحى، هبل، الصنم الذي كانت قريش تعبده ويستقسم عنده بالأزلام حين جاء به من هيت من أرض الجزيرة. قال: وكان إبراهيم يبني وينقل له إسماعيل الحجارة على رقبته فلما ارتفع البنيان قرب له المقام فكان يقوم عليه ويبني ويحوله إسماعيل في نواحي البيت حتى انتهى الى موضع الركن الأسود قال إبراهيم لإسماعيل: يا إسماعيل أبغني حجرا أضعه ها هنا يكون للناس علما يبتدئون منه الطواف. فذهب إسماعيل يطلب له حجرا ورجع وقد جاءه جبريل بالحجر الأسود وكان الله عز وجل استودع الركن أبا قبيس حين غرق الله الأرض زمن نوح، وقال إذا رأيت خليلي يبني بيتي فأخرجه له، قال: فجاءه إسماعيل فقال له: يا ابه من أين لك هذا؟ قال: جاءني به من لم يكلني الى حجرك جاء به جبريل، فلما وضع جبريل الحجر في مكانه وبنى عليه إبراهيم وهو حينئذ يتلألأ تلألؤا من شدة بياضه فأضاء نوره شرقا، وغربا، ويمنا، وشاما، قال: فكان نوره يضيء الى منتهى أنصاب الحرم من كل ناحية من نواحي الحرم قال: وإنما شدة سواده لأنه أصابه الحريق مرة بعد مرة في الجاهلية، والإسلام. فأما حريقه في الجاهلية، فإنه ذهبت امرأة في زمن قريش تجمر الكعبة فطارت شرارة في استار الكعبة فإحترقت الكعبة واحترق الركن الأسود، واسود وتوهنت الكعبة، فكان هو الذي هاج قريشا على هدمها وبنائها. وأما حريقه في الإسلام ففي عصر ابن الزبير أيام حاصره الحصين بن نمير الكندي، احترقت الكعبة واحترق الركن فتفلق بثلاث فلق حتى شد شعبه ابن الزبير بالفضة فسواده لذلك قال: ولولا ما مس الركن من انجاس الجاهلية وارجاسها ما مسه ذو عاهة إلا شفي، قال سعيد بن سالم: قال ابن جريج: وكان ابن الزبير بنى الكعبة من الذرع على ما بناها إبراهيم عليه السلام قال: وهي مكعبة على خلقة الكعب فلذلك سميت الكعبة. قال: ولم يكن إبراهيم سقف الكعبة ولا بناها بمدر وإنما رضمها رضما.

حدثني جدي قال: حدثنا سفيان بن عيينة عن ابن أبي نجيح عن مجاهد قال: السكينة لها رأس كرأس الهرة، وجناحان. حدثني مهدي بن أبي المهدي قال: حدثنا بشر بن السرى قال: حدثنا قيس بن الربيع عن سلمة بن كهيل عن أبي الأحوص عن علي بن أبي طالب قال: السكينة، لها رأس كرأس الإنسان ثم هي بعد ريح هفافة. حدثنا مهدي بن أبي المهدي قال: حدثنا الفزاري عن جويبر عن الضحاك قال: السكينة الرحمة.

ذكر حج إبراهيم عليه السلام

وأذانه بالحج وحج الأنبياء بعده، وطوافه، وطواف الأنبياء بعده. حدثنا أبو الوليد قال: حدثني جدي عن سعيد بن سالم عن عثمان بن ساج قال: أخبرني محمد بن إسحاق قال: لما فرغ إبراهيم خليلي الرحمن من بناء البيت الحرام جاءه جبريل فقال: طف به سبعا فطاف به سبعا هو وإسماعيل يستلمان الأركان كلها في كل طواف، فلما أكملا سبعا هو وإسماعيل صليا خلف المقام ركعتين. قال: فقام معه جبريل فأراه المناسك كلها الصفا والمروى ومنى

ومزدلفة، وعرفة، قال: فلما دخل منى وهبط من العقبة تمثل له إبليس عند جمرة العقبة، فقال له جبريل: إرمه، فرماه إبراهيم بسبع حصيات فغاب عنه، ثم برز له عند الجمرة الوسطى فقال له جبريل: إرمه، فرماه بسبع حصيات فغاب عنه، ثم برز له عند الجمرة السفلى فقال له جبريل: إرمه، فرماه بسبع حصيات مثل حصى الخذف فغاب عنه إبليس، ثم مضى إبراهيم في حجه وجبريل يوقفه على المواقف ويعلمه المناسك حتى انتهى الى عرفة، فلما انتهى إليها قال له جبريل: أعرفت مناسكك؟ قال إبراهيم: نعم! قال فسميت عرفات بذلك لقوله أعرفت مناسكك؟ قال: ثم أمر إبراهيم أن يؤذن في الناس بالحج قال: فقال إبراهيم: يا رب ما يبلغ صوتي؟ قال الله سبحانه: اذن وعلي البلاغ، قال: فعلا على المقام فأشرف به حتى صار أرفع الجبال وأطولها فجمعت له الأرض يومئذ سهلها وجبلها وبرها وبحرها وأنسها وجنها حتى أسمعهم جميعا قال: فأدخل أسبعيه في أذنيه وأقبل بوجهه يمنا وشاما وشرقا وغربا وبدأ بشق اليمن فقال: أيها الناس كتب عليك الحج الى البيت العتيق فأجيبوا ربكم، فأجابوه من تحت التخوم السبعة ومن بين المشرق والمغرب الى منقطع التراب من أقطار الأرض كلها، لبيك اللهم لبيك قال: وكانت الحجارة على ما هي عليه اليوم إلا أن الله عز وجل أراد أن يجعل المقام آية فكان أثر قدميه في المقام الى اليوم قال: أفلا تراهم اليوم يقولون؟ لبيك اللهم لبيك قال: فكل من حج الى اليوم فهو ممن أجاب إبراهيم وإنما حجهم على قدر اجابتهم يومئذ فمن حج حجتين فقد كان أجاب مرتين، أو ثلاثا فثلاثا على هذا قال: وأثر قدمي إبراهيم عليه في المقام آية وذلك قوله تعالى:" فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمنا" وقال ابن إسحاق: وبلغني أن آدم عليه السلام كان استلم الأركان كلها قبل إبراهيم وحجه إسحاق وسارة من الشام السلام قال: وكان إبراهيم عليه السلام يحجه كل سنة على البراق، قال: وحجت بعد ذلك الأنبياء والأمم، وحدثني جدي قال حدثنا ابن عيينة عن ابن أبي نجيح عن مجاهد قال حج إبراهيم وإسماعيل ماشيين، قال: أبو محمد عبيد الله المخزومي حدثنا ابن عيينة باسناده مثله.

حدثنا الأرزقي قال: وحدثني جدي قال حدثنا يحيى بن سليم عن ابن خيثم قال: سمعت عبد الرحمن بن سابط يقول: سمعت عبد الله بن ضمرة السلولي يقول: ما بين الركن الى المقام الى زمزم قبر تسعة وتسعين نبيا جاءوا حجاجا فقبروا هناك.

حدثني مهدي بن أبي المهدي قال: حدثنا عبد الرحمن بن عبد الله مولى بني هاشم عن حماد بن سلمة عن عطاء بن السايب عن محمد بن سابط عن النبي (ص) قال: كان النبي من الأنبياء إذا هلكت أمته لحق بمكة فيتعبد فيها النبي ومن معه حتى يموت فيها، فمات بها نوح، وهود، وصالح وشعيب، وقبورهم بين زمزم والحجر، وحدثني جدي قال: حدثنا سعيد بن سالم عن عثمان بن ساج عن خصيف عن مجاهد أنه قال: حج موسى النبي على جمل أحمر فمر بالروحاء عليه عباءتان قطوانيتان متزر بأحداهما مرتدمي بالاخرى فطاف بالبيت، ثم طاف بين الصفا والمروة إذ سمع صوتا من السماء وهو يقول: لبيك عبدي أنا معك، فخر موسى ساجدا.

حدثني جدي قال: حدثنا سعيد بن سالم عن عثمان بن ساج عن خصيف عن مجاهد أنه قال: حج خمسة وسبعون نبيا كلهم قد طاف بالبيت وصلى في مسجد منى فان استطعت أن لا تفوتك الصلاة في مسجد منى فافعل، حدثني جدي قال: حدثنا مروان بن معاوية عن الأشعث بن سوار عن عكرمة عن ابن عباس قال: صلى في مسجد الخيف سبعون نبيا كلهم مخطمون بالليف قال مروان بن معاوية: يعني رواحلهم. حدثني جدي قال حدثنا سعيد بن سالم عن عثمان بن ساج قال: أخبرنا خصيف بن عبد الرحمن عن مجاهد أنه حدثه قال: لما قال إبراهيم: ربنا أرنا مناسكنا، أمر أن يرفع القواعد من البيت، ثم أرى الصفا والمروة وقيل هذا من شعائر الله قال: ثم خرج به جبريل فلما مر بجمرة العقبة إذا بإبليس عليها فقال جبريل: كبر وارمه ثم إرتفع إبليس الى الجمرة الوسطى فقال له جبريل: كبر وارمه ثم إرتفع إبليس الى الجمرة القصوى فقال له جبريل: كبر وارمه، ثم انطلق الى المشعر الحرام ثم أتى به عرفة فقال له جبريل: هل عرفت ما أريتك؟ ثلاث مرات قال نعم! قال: فأذن في الناس بالحج قال: كيف أقول؟ قال: قل: يا أيها الناس أجيبوا ربكم ثلاث مرات فقال: فقالوا: لبيك اللهم لبيك قال: فمن أجاب إبراهيم يومئذ فهو حاج قال خصيف: قال مجاهد: حين حدثني بهذا الحديث أهل القدر لا يصدقون بهذا الحديث.

حدثني جدي قال عثمان: وأخبرني موسى بن عبيدة قال: لما أمر إبراهيم بالأذان في الناس بالحج استدار بالأرض فدعى في كل وجه يا أيها الناس أجيبوا ربكم وحجوا قال: فلبى الناس من كل مشرق ومغرب وتطأطأت الجبال حتى بعد صوته، قال عثمان: وأخبرني ابن جريج قال: قال ابن عباس: رضوان الله عليه يأتوك رجالا مشاة وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق بعيد، قال عطاء: وأرنا مناسكنا، أبرزها لنا وأعلمناها وقال مجاهد: أرنا مناسكنا، مذابحنا قال: وأخبرني عثمان بن ساج قال: أخبرني محمد بن إسحاق قال: حدثني بعض أهل العلم أن عبد الله بن الزبير قال: لعبيد بن عمير الليثي كيف بلغك أن إبراهيم عليه السلام دعا الى الحج؟ قال: بلغني أنه لما رفع

إبراهيم القواعد وإسماعيل وانتهى الى ما أراد الله سبحانه من ذلك وحضر الحج استقبل اليمن فدعا الى الله عز وجل والى حج بيته فأجيب أن لبيك اللهم لبيك ثم استقبل المشرق فدعا الى الله والى حج بيته فأجيب أن لبيك لبيك، والى المغرب بمثل ذلك، والى الشام بمثل ذلك ثم حج بإسماعيل ومن معه من المسلمين، من جرهم وهم سكان الحرم يومئذ مع إسماعيل وهم أصهاره، وصلى بهم الظهر والعصر والمغرب والعشاء بمنى ثم بات بهم حتى أصبح وصلى بهم الغداة، ثم غدا بهم الى نمرة فقام بهم هنالك حتى إذا مالت الشمس جمع بين الظهر والعصر بعرفة في مسجد إبراهيم ثم راح بهم الى الموقف من عرفة فوقف بهم وهو الموقف من عرفة الذي يقف عليه الإمام يريه ويعلمه فلما غربت الشمس دفع به وبمن معه حتى أتى المزدلفة، فجمع بين الصلاتين المغرب والعشاء الآخرة ثم بات حتى إذا طلع الفجر صلى بهم صلاة الغداة، ثم وقف من المزدلفة وبمن معه وهو الموقف الذي يقف به الإمام، حتى فرغ له من الحج كله، واذن به في الناس ثم انصرف إبراهيم راجعا الى الشام فتوفى بها (ص) وعلى جميع أنبياء الله والمرسلين، قال عثمان: أخبرني ابن إسحاق قال: أمر الله عز وجل إبراهيم عليه السلام بالحج واقامته للناس، وأراه مناسك البيت وشرع له فرايضه وكان إبراهيم يومئذ حين أمر بذلك ببيت المقدس من إيليا قال عثمان: وأخبرني زهير بن محمد قال: لما فرغ إبراهيم من البيت الحرام قال: أي رب إني قد فعلت فأرنا مناسكنا فبعث الله تعالى إليه جبريل فحج به حتى إذا جاء يوم النحر عرض له إبليس، فقال: احصب فحصب بسبع حصبات ثم الغد ثم اليوم الثالث فملأ ما بين الجبلين ثم علا على ثبير، فقال: يا عباد الله أجيبوا ربكم فسمع دعوته من بين الأبحر ممن في قلبه مثقال ذرة من إيمان فقالوا: لبيك اللهم لبيك قال: ولم يزل على وجه الأرض سبعة من المسلمين فصاعدا لولا ذاك لأهلكت الأرض ومن عليها قال عثمان: وأخبرني زهير ابن محمد أن أول من أجاب إبراهيم حين أذن بالحج أهل اليمن، وأخبرني جدي عن سعيد بن سالم عن عثمان بن ساج قال: أخبرني عثمان بن الأسود عن عطاء بن أبي رباح أن موسى بن عمران طاف بين الصفا والمروة وعليه عباءة قطوانية وهو يقول: لبيك اللهم لبيك فأجابه ربه عز وجل لبيك يا موسى وها أنا معك.

وأخبرني جدي عن سعيد بن سالم عن عثمان بن ساج قال: حدثني غالب ابن عبيد الله قال: سمعت مجاهدا يذكر عن ابن عباس رضوان الله عليه قال: مر بصفاح الروحاء ستون نبيا، إبلهم مخطمة بالليف قال عثمان: وأخبرني غالب بن عبيد الله قال: سمعت مجاهدا يذكر عن ابن عباس قال: أقبل موسى نبي الله تعالى يلبي تجاوبه جبال الشام على جمل أحمر عليه عباءتان قطوانيتان، قال عثمان: وأخبرني ابن إسحاق قال: حدثني من لا أتهم عن عروة بن الزبير أنه قال: بلغني أن البيت وضع لآدم عليه السلام يطوف به ويعبد الله عنده وأن نوحا قد حجه، وجاءه، وعظمه قبل الغرق فلما أصاب الأرض الغرق حين أهلك الله قوم نوح أصاب البيت ما أصاب الأرض من الغرق فكانت ربوة حمراء معروف مكانه فبعث الله عز وجل هودا الى عاد فتشاغل بأمر قومه حتى هلك ولم يحجه. ثم بعث الله تعالى صالحا عليه السلام الى ثمود فتشاغل حتى هلك ولم يحجه، ثم بوأه الله عز وجل لإبراهيم فحجه، وعلم مناسكه، ودعا الى زيارته، ثم لم يبعث الله نبيا بعد إبراهيم إلا حجه قال عثمان: وأخبرني ابن إسحاق قال: حدثني من لا أتهم عن سعيد بن المسيب عن رجل كان من أهل العلم أنه كان يقول: كأني أنظر الى موسى بن عمران منهبطا من هرشا عليه عباءة قطوانية يلبي بحجة قال عثمان: أخبرني محمد بن إسحاق قال: حدثني من لا أتهم عن عبد الله بن عباس رضوان الله عليه أنه كان يقول: لقد سلك فج الروحاء سبعون نبيا حجاجا عليهم لباس الصوف مخطمي إبلهم بحبال الليف، ولقد صلى في مسجد الخيف سبعون نبيا.

حدثني جدي قال: قال عثمان بن ساج: أخبرني محمد بن إسحاق قال: حدثني طلحة بن عبد الله بن كريز الخزاعي أن موسى عليه السلام حين حج طاف بالبيت فلما خرج الى الصفا لقيه جبريل عليه السلام فقال: يا صفي الله أنه الشد إذا هبطت بطن الوادي فاحتزم موسى نبي الله على وسطه بثوبه فلما إنحدر عن الصفا وبلغ بطن الوادي سعى وهو يقول: لبيك اللهم لبيك قال: يقول الله تعالى: لبيك يا موسى ها أنذا معك، قال عثمان: وأخبرني صادق أنه بلغه أن رسول الله (ص) قال: لقد مر بفج الروحاء أو قال: لقد مر بهذا الفج سبعون نبيا على نوق حمر الليف، ولبوسهم العباء، وتلبيتهم شتى، منهم يونس بن متى فكان يونس يقول: لبيك فراج الكرب لبيك، وكان موسى يقول: لبيك أنا عبدك لبيك لبيك، قال: وتلبية عيسى لبيك أنا عبدك، ابن أمتك، بنت عبديك لبيك، قال عثمان: وأخبرني مقاتل قال: في المسجد الحرام بين زمزم والركن قبر سبعين نبيا منهم هود، وصالح، وإسماعيل، وقبر آدم، وإبراهيم، وإسحاق، ويعقوب، ويوسف في بيت المقدس.

حدثني جدي عن سعيد بن سالم عن عثمان بن ساج عن وهب بن منبه قال: خطب صالح الذين آمنوا معه فقال لهم: إن هذه دار قد سخط الله عليها وعلى أهلها فأظعنوا عنها فإنها ليست لكم بدار قالوا: رأينا لرأيك تبع فمرنا نفعل قال: تلحقون بحرم الله وأمنه لا أرى لكم دونه، فأهلوا من ساعتهم بالحج ثم أحرموا في العباء وارتحلوا قلصا حمرا مخطمة

بحبال الليف ثم انطلقوا آمين البيت الحرام حتى وردوا مكة فلم يزالوا بها حتى ماتوا فتلك قبورهم في غربي الكعبة بين دار الندوة ودار بني هاشم وكذلك فعل هود ومن آمن معه وشعيب ومن آمن معه.

وحدثني جدي عن رجل من أهل العلم قال حدثني محمد بن مسلم الرازي عن جرير بن عبد الحميد الرازي عن الفضل بن عطية عن عطاء ابن السايب أن إبراهيم عليه السلام رأى رجلا يطوف بالبيت فأنكره فسأله ممن أنت؟ فقال: من أصحاب ذي القرنين قال: وأين هو؟ قال: هو ذا بالأبطح فتلقاه إبراهيم فإعتنفه فقيل لذي القرنين: لم لا تركب؟ قال: ما كنت لأركب وهذا يمشي فحج ماشيا.

قوله عز وجل إن أول بيت وضع للناس
وما جاء في ذلك

حدثنا أبو محمد قال: حدثنا أبو الوليد قال: حدثني جدي عن سعيد بن سالم عن عثمان بن ساج قال: أخبرني ابن جريج قال: بلغنا أن اليهود قالت: بيت المقدس أعظم من الكعبة لأنه مهاجر الأنبياء ولأنه في الأرض المقدسة، وقال المسلمون: الكعبة أعظم فبلغ ذلك النبي (ص) فنزل إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا حتى بلغ فيه آيات بينات مقام إبراهيم وليس ذلك في بيت المقدس، ومن دخله كان آمنا أوليس ذلك في بيت المقدس قال عثمان: وأخبرني خصيف قال: أول بيت وضع للناس قال: أول مسجد وضع للناس، وقال مجاهد: أول بيت وضع للناس مثل قوله كنتم خير أمة أخرجت للناس، قال عثمان: وأخبرني محمد بن أبان عن زيد بن أسلم أنه قرأ إن أول بيت وضع للناس حتى بلغ فيه آيات بينات مقام إبراهيم قال: الآيات البينات هي مقام إبراهيم ومن دخله كان آمنا ولله على الناس حج البيت، وقال: يأتين من كل فج عميق، وقال عثمان: وأخبرني محمد بن إسحاق أن قول الله عز وجل: إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة أي مسجد مباركا وهدى للعالمين وقال: لتنذر أم القرى ومن حولها، قال عثمان: وأخبرني يحيى ابن أبي أنيسة في قول الله عز وجل: إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا قال: كان موضع الكعبة قد سماه الله عز وجل بيتا قبل أن تكون الكعبة في الأرض وقد بني قبله بيت ولكن الله سماه بيتا، وجعله الله مباركا وهدى للعالمين قبلة لهم.

الباب الخامس

مناسك الحج كما نقلها الإسلام عن عرب الجاهلية كما جاء فى كتاب المفصل فى أديان العرب قبل الإسلام

ليست لدينا ويا للأسف أخبار مدونة عن مناسك الحج وشعائره عند الجاهليين. لعدم ورود شيء من ذلك في النصوص الواردة إلينا. ما خلا الحج الى (بيت الله الحرام) بمكة، حيث حفظت الموارد الإسلامية لنا شيئا من ذلك. بسبب فرض الحج في الإسلام، وإقرار الإسلام لبعض شعائره التي لم تتعارض مع مبادئه ولولا ذلك لما عرفنا شيئا عن الحج الى مكة عند الجاهليين. ولهذا فسأقتصر في كلامي هنا على الحج الى مكة فقط. إلا إذا وجدت خبرا أو نصا عن حج غير أهل مكة من الجاهليين الى مكة أو الى بيوت أخرى فسأتكلم عنه حينئذ.

ويظهر من غربلة ما جاء في روايات أهل الأخبار عن (حج البيت)، أن مناسك الحج لم تكن واحدة بالنسبة للحجاج، بل كانت تختلف بإختلاف القبائل. فقد انفردت (قريش) بأمور من أمور الحج، واعتبرتها من مناسك حجها، وانفردت قبائل أخرى بمناسك لم تعتبرها (قريش) موجبة لها، ولم تعمل بها ووقفت قريش في مواقف، اعتبرتها مواقف خاصة بها. وأوجبت على من يفد الى مكة للحج، مناسك معينة سنتحدث عنها. فلما ظهر الإسلام وحد مناسك الحج وثبتها. وأوجب على كل مسلم اتباعها.

ويبدأ الحج في الإسلام بلبس (الإحرام) حين بلوغه (الميقات) المخصص للجهة التي جاء منها. و(ميقات) الحج موضع إحرامهم (1). وقد عين الرسول أكثر (المواقيت) وثبتها، فجعل (ذا الحليفة) ميقاتا لأهل (يثرب)، و(الجحفة) ميقاتا لأهل الشام، و(يلملم) ميقاتا لأهل اليمن، و(قرن المنازل) لأهل نجد ومن يأتي من الشرق نحو الحجاز. وأما (ذات عرق)، فميقات أهل العراق، قيل أن الرسول ثبته، وقيل إنه ثبت بعد فتح العراق. أما أهل مكة، فكانوا يحرمون من بيوتهم (2). ويجوز أن تكون هذه المواقيت من مواقيت أهل الجاهلية كذلك، وقد ثبتها الإسلام.

ويستعد الجاهليون للحج عند حضورهم موسم (سوق عكاظ). فإذا انتهت أيام السوق، وأراد منهم من أراد الحج، ذهب الى (مجنة)، فأقام بها الى هلال ذي الحجة، ثم أرتحل عنها الى (ذي المجاز)، ومنه الى (عرفة)، فإذا كان يوم التروية، تزودوا بالماء وارتفعوا الى عرفة. هذا بالنسبة الى التجار، الذين كانوا يأتون هذه المواضع للتجارة. أما بالنسبة الى غيرهم، فقد كانوا يقصدون الحج في أي وقت شاءوا، ثم يذهبون الى (عرفة) للوقوف موقف عرفة، يقصدها (الحلة)، أما (الحس) فيقفون بـ (نمرة)، ثم يلتقون جميعا بمزدلفة للإفاضة (3).

ويبدأ حج أهل الجاهلية بالإهلال. فكانوا يهلون عند أصنامهم، ويلبون إليها، فإذا انتهوا من ذلك قدموا مكة، فكان الأنصار مثلا يهلون لمناة في معبده، أي أنهم كانوا يغادرون (يثرب) الى معبد الصنم، فيكونون فيه لمراقبة هلال ذي الحجة، فإذا أهلوا لبوا، ثم يسير من يسير منهم الى مكة، لحج البيت (4).

والطواف بالبيوت وبالأصنام، ركن من أركان الحج، ومنسك من مناسكه. وكانوا يفعلونه كلما دخلوا البيت الحرام، فإذا دخل أحدهم الحرام، وإذا سافر أو عاد من سفر، فأول ما كان يفعله الطواف بالبيت. وقد فعل غيرهم فعل قريش ببيوت أصنامهم، إذ كان يطوفون حولها، كالذي كان يفعله أهل يثرب من طوافهم بـ (مناة)(5).

وقد ذكر الأخباريون أن أهل الجاهلية كانوا يطوفون حول الرجمات، وهي حجارة تجمع فتكون على شبه بيت مرتفع كالمنارة، ويقال لها الرجمة (6). وكان الجاهليون يطوفون حول الأصنام والأنصاب كذلك. وذكر (نيلوس) Nilus أن الأعراب كانوا يطوفون حول الذبيحة التي قدمونها قربانا للآلهة (7). وكانوا يطوفون حول القبور أيضا: قبور السادات والأشراف من الناس.

وطافوا حول (الأنصاب)، ويسمون طوافهم بهم (الدوار). فكانوا يطوفون حول حجر ينصبونه طوافهم بالبيت، وسموا تلك الأحجار الأنصاب (8).

وللطواف كلمة أخرى هي (الدوار) من (دار) حول موضع من المواضع، وطاف حوله الشيء، وإذا عاد الى الموضع الذي ابتدأ منه. ونجد هذا المعنى في شعر الشاعرين الجاهليين: امرئ القيس، وعنترة بن شداد العبسي (9). وقد ذكر علماء اللغة أن (الدوار) صنم كانت العرب تنصبه، يجعلون موضعا حوله يدورون به، واسم ذلك الصنم والموضع الدوار. ومنه قول امرئ القيس:

فعن لنا سرب كان نعاجه عذارى دوار في ملاء مذيل (10)

وقيل إنهم كانوا يدورون حوله أسابيع كما يطاف بالكعبة. وقيل حجارة كانوا يطوفون حولها تشبها بالكعبة (11).

وتلعب عبادة الحجر دوارا بارزا في (الدوار). فقد كان قوم من أهل الجاهلية يقيمون الأحجار، ثم يطوفون حولها، يتخذون الدوار عبادة لهم. وقد تكون الأحجار أصناما، وقد تكون حجارة تنتقي فيطاف حولها. و " عن أبي رجاء العطاردي. قال: لما بعث النبي (ص)، فسمعنا به لحقنا بمسيلمه الكذاب، فلحقنا بالنار، وكنا نعبد الحجر في الجاهلية، فإذا وجدنا حجرا هو أحسن منه، ألقينا ذلك وأخذناه، فإذا لم نجد حجرا جمعنا حثية من تراب ثم جئنا بغنم فحلبناها عليه ثم طفنا به. وكنا إذا دخل رجب قلنا جاء منصل الأسنة، فلا ندع سهما فيه حديدة، ولا حديدة في رمح إلا نزعناها وألقيناها" (12).

ويلاحظ أن الجاهليين كانوا يقيمون وزنا للحليب في أمور العبادة، فقد كانوا يسكبونه على الأصنام، كما رأينا في باب الأصنام وفي القصة المتقدمة. ويلاحظ أن الرواية قد خصصت حليب الغنم، ولم تشر الى حليب الإبل، أو حليب أية ماشية أخرى، مما قد يدل على وجود رابطة بين هذا الحليب وبين (الدوار) وأن له علاقة بالأساطير، وذلك في حالة صدق الخبر بالطبع.

والطواف من أهم طرق التعبد والتقرب الى الآلهة. يؤدونه كما يؤدون الشعائر الدينية المهمة مثل الصلاة، وليس له وقت معلوم. ولا يختص ذلك بمعبد معين ولا بموسم خاص مثل موسم الحج، بل يؤدونه كلما دخلوا معبدا فيه صنم، أو كعبة أو ضريح، فهم يطوفون سبعة أشواط حول الأضرحة أيضا: كما يطوفون حول الذبائح المقدمة الى الآلهة. فالطواف، إذن من الشعائر الدينية التي كان لها شأن بارز عند الجاهليين.

وكانوا يطوفون بالبيت في نعالهم، لا يطأون أرض المسجد تعظيما له (13). إلا أن يكون الحاج فقيرا حافيا، فقد كان منهم من لا يملك نعالا ولا خفا ولا سائر ما يلبس بالرجل لفقره. وذكر أن رسول الله قال: "من لم يجد نعلين، فليلبس خفين" (14). وقد ذكر (السكري)، أن (الحمس) كانوا " لا يطوفون بالبيت إلا في حذائهم وثيابهم، ولا يمسون المسد بأقدامهم تعظيما لبقعته" (15). وذكر أن (الحلة) كانوا على العكس منهم." فإذا دخلوا مكة بعد فراغهم تصدقوا بكل حذاء وكل ثوب لهم، ثم استكروا من ثياب الحمس تنزيها للكعبة أن يطوفوا حولها إلا في ثياب جدد. ولا يجعلون بينهم وبين الكعبة حذاء يباشرونها بأقدامهم" (16).

وكانوا يدخلون جوف الكعبة بنعالهم، لا يتأثمون من ذلك. وذكر أن (الوليد ابن المغيرة) كان أول من خلع نعليه لدخول الكعبة، تعظيما لها، فخلع الناس نعالهم (17).

وعدة الطواف حول الكعبة عند الجاهلين سبعة أشواط، ولا أستبعد أن يكون هذا العدد ثابتا بالنسبة الى الطواف حول البيوت الأخرى أو حول الرجمات والأنصاب والقبور أيضا. فقد كان الطواف سبعة أشواط مقررا عند غير العرب أيضا، وقد ذكر في (التوراة)، إذ كان العبرانيون يمارسونه (18). والعدد سبعة هو من الأعداد المقدسة المهمة عند الشعوب القديمة. ولهذا أرى أن غير قريش من العرب كانوا يطوفون هذا الطواف أيضا حول محجاتهم في ذاك الوقت.

وقد ورد أن من الجاهليين من كان يطوف ويده مربوطة بيد إنسان آخر، بحبل أو بسير، أو بزمام أو منديل، أو خيط أو أي شئ آخر، يفعلونه نذرا، أو حتى لا يفترقا. وقد نهى عن ذلك في الإسلام. فقد روي أن الرسول رأى أحدهما وقد فقع ذلك، فقطع بيده ذلك الرباط (19).

الحمس والطلس والحلة:

والأخباريون يذكرون أن الطائفين بالبيت كانوا على صنفين: صنف يطوف عريانا، وصنف يطوف في ثيابه. ويعرف من يطوف بالبيت عريانا بـ (الحلة). أما الذين يطوفون بثيابهم، فيعرفون بـ (الحمس) (20). وأضاف بعض أهل الأخبار الى هذين الصنفين، صنفا ثالثا قالوا له: (الطلس) (21).

وقبائل الحلة من العرب: تميم بن مر كلها غير يربوع، ومازن، وضبة، وحميس، وظاعنة، والغوث بن مر، وقيس عيلان بأسرها ما خلا ثقيفا وعدوان، وعامر بن صعصعة، وربيعة بن نزار كلها وقضاعة كلها ما خلا علافا وجنابا. والأنصار وخثعم، وبجيلة، وبكر بن عبد مناة بن كنانة، وهذيل بن مدركة، وأسد وطيء، وبارق. وقد ذكر هذه الأسماء (محمد بن حبيب) (22). وذكرها (اليعقوبي) على هذا النحو: تميم وضبة ومزينة والرباب وعكل وثور وقيس عيلان كلها ما خلا عدوان وثقيف وعامر بن صعصعة وربيعة بن نزار كلها، وقضاعة وحضرموت وعك وقبائل من الأزد (23).

وهم يذكرون أن (الحلة) هم ما عدا الحمس وأنهم كانوا يطوفون عراة إن لم يجدوا ثياب أحمس، وكانوا يقصدون من طرحهم ثيابهم طرحهم ذنوبهم معها(24). ويذكرون أنهم كانوا يقولون:" لا نطوف في الثياب التي قارفنا فيها الذنوب "، " ولا نعبد الله في ثياب أذنبنا فيها "، " ولا نطوف في ثياب عصينا الله فيها "، وذكر أنهم " كانوا إذا طافوا خلعوا ثيابهم وقالوا لا نطوف في ثياب عصينا الله فيها، فيلقونها عنهم، ويسمون ذلك الثوب اللقي"(25). وفي رواية أن من يطوف من (الحلة) بثيابه يضرب وتنتزع منه ثيابه (26). فجعلت هذه الرواية خلع الثياب واجب على الحلة محتم عليهم، لا يجوز مخالفته، وإلا تعرض المخالف للعقاب.

وتخضع النساء لهذه القاعدة أيضا إذا كن من الحلة، فكانت المرأة تطوف بالبيت وهي عريانة (27). وقيل تضع أحداهن ثيابها كلها إلا درعا مفرجا عليها ثم تطوف فيه (28). وقيل كانت تقف على باب المسجد، فتقول: من يعير مصونا؟ من يعير ثوبا؟ من يعيرني تطوافا؟ فإن أعارها أحد ثوبا أو كراه لها طافت به، وإلا طافت عريانة كما يطوف الرجال على حد زعم الروايات لا يستر عورتها لباس أو قماش، بل كانت تضع إحدى يديها على قبلها واليد الأخرى على دبرها وتطوف حول البيت على هذا النحو. وهم يروون في ذلك بيتا ينسبونه لإمرأة جميلة، قيل هي: ضباعة بنت عامر بن صعصعة، طافت بالبيت عريانة وهي تقول:

اليوم يبدو بعضه أو كله وما بدا منه فلا أحله (29)

وشاعت بعض الروايات أن تخفف من وقع طواف النساء على هذه الصورة في النفوس، فذكرت أن بعض النساء كانت تتخذ سيورا فتعلقها في حقوتها تستتر بها (30)، وذكرت روايات أخرى أنهن كن يطفن ليلا، وبذلك يتخلصن من وقوع سترهن في أعين الرجال، لأن طواف الرجال في النهار (31).

وقد وصفت بعض الروايات طواف العريان فقالت:" يبدأ بإساف فيستلمه، ثم يستلم الركن الأسود، ثم يأخذ عن يمينه ويطوف ويجعل الكعبة عن يمينه، فإذا ختم طوافه سبعا، استلم الركن ثم استلم نائله فيختم بها طوافه، ثم يخرج فيجد ثيابه كما تركها لم تمس، فيأخذها فيلبسها ولا يعود الى الطواف بعد ذلك عريانا " (32). هذا هو طواف أهل الجاهلية قبل الإسلام على روية أهل الأخبار.

وجاء في بعض الروايات:" كانت العرب تطوف بالبيت عراة إلا الحمس، والحمس قريش وما ولدت، كانوا يطوفون بالبيت عراة، إلا أن تعطيهم الحمس ثيابا، فيعطى الرجال الرجال والنساء النساء"، " فمن لم يكن له من العرب صديق بمكة يعيره ثوبا ولا بسار يستأجر به، كان بين أحد أمرين: إما أن يطوف بالبيت عريانا، وإما أن يطوف في ثيابه، فإذا فرغ من طوافه ألقى ثوبه عنه، فلم يمسه أحد. وكان ذلك الثوب يسمى اللقى" (33). وجاء أيضا أن (الحمس) كانوا " يقولون نحن أهل الحرم، فلا ينبغي لأحد أن يطوف إلا في ثيابنا، ولا يأكل إذا دخل أرضنا إلا من طعامنا" (34).

وورد أنهم " كانوا يطوفون بالبيت عراة، وهم مشبكون بين أصابعهم يصفرون فيها ويصفقون" (35).

ويذكر بعض أهل الأخبار أن طواف الطائف عريانا إنما يكون للمرة الأولى، فإذا عاد فطاف بعد ذلك، لبس ملابسه، وطاف بملابسه كالحمس لا يلقيها خارج حدود الحرم.

والتفسير الذي ذكره الأخباريون لطواف العرى، هو رغبة الطائف حول البيت أن يكون نقيا متحررا عن ذنوبه وآثامه بعيدا عن الأدران. واعتقاده أن طوافه بملابسه طواف غير صحيح لأن ملابسه شارته في آثامه، فهي ملوثة نجسة، ولذلك هاب من لبسها، فإذا أتم طوافه تركها في موضعها، ولبس ملابس أخرى جديدة (36).

ويذكر الأخباريون أن تلك الملابس التي يلقيها المحرم تبقى في مكانها، لا يمسها أحد، ولا يحركها حتى تبلى من وطء الأقدام ومن الشمس والرياح. ويقال لهذه الثياب التي تطرح بعد الطواف (اللقى). وقد أشير إليها في شعر لـ (ورقة بن نوفل) (37). ولعل اعتقاد القوم بأن تلك الملابس ملوثة بالأدران، هو الذي منع الناس الآخرين من لمس تلك الملابس والإستفادة منها، فتركوها لذلك للأرض واللشمس والرياح تعبث بها الى أن تتمزق وتهرى (38).

ولكننا نجد الإخباريين يعودون فيروون روايات تناقض ما ذكروه عن (اللقى). إذ يقولون: كان الحلة إذا ختموا طوافهم وأتموه بنائلة، خرجوا الى ثيابهم التي ألقوها خارج باب المسجد، فلبسوها، فإذا أرادوا الطواف مرة أخرى طافوا بملابهسم (39). فهم يقرون في هذه الرواية طواف العرى، ولكنهم ينكرون ترك (اللقى) على الأرض لتدوس عليها الأقدام ولتلعب بها الرياح وتعبث بها الأهوية والأتربة، ويجعلون أصحابها يعودون إليها فيلبسونها تارة أخرى.

ونقرأ في كتبهم رواية أخرى تذكر أن أحدا من الحلة إذا لم يجد ثياب أحمسي يطوف فيها ومعه فضل ثياب يلبسها، غير ثيابه التي عليه فطاف في ثيابه ثم جعلها لقى يطرحها بين أساف ونائلة فلا يمسها أحد ولا ينتفع بها منتفع حتى تبلى من وطء الأقدام والشمس والرياح والأمطار (40).

وقد ذكر (محمد بن حبيب) أن (الحلة) كانوا إذا دخلوا مكة " تصدقوا بكل حذاء وكل ثوب لهم ثم استكروا لهم من ثياب الحمس تنزيها للكعبة أن يطوفوا حولها إلا في ثياب جدد. ولا يجعلون بينهم وبين الكعبة حذاء يباشرونها بأقدامهم. فإن لم يجدوا ثيابا طافوا عراة. وكان لكل رجل من الحلة حرمى من الحمس يأخذ ثيابه. فمن لم يجد ثوبا طاف عريانا. وإنما كانت الحل تستكرى الثياب للطواف في رجوعهم الى البيت لأنهم كانوا إذا خرجوا حجاجا لم يستحلوا أن يشتروا شيئا ولا يبيعوه حتى يأتوا منازلهم اللحم. وكان رسول الله (ص) حرمى عياض بن حمار المجاشعي: كان إذا قدم مكة طاف في ثياب رسول الله (41).

فالذي يطوف بالبيت عريانا، هو ضعيف (الحلة)، ممن لا قبل له على استكراء ثياب له من أحمسي، وممن لا صاحب له من الحمس، يعطيه ثيابا ليلبسها. أما المتمكن من (الحلة)، ومن له صديق من الحمس، فلا يطوف عريانا، وإنما يطوف بثياب أحمسي.

ويرى (روبرتسن سميث) أن الذي أوحى الى الجاهليين وجوب طرح ملابس الحلة إذا أحرم فيها، اعتقادهم بتقدس تلك الملابس في أثناء الإحرام مما يجعلها في حكم الـ (تابو) Tabu عند الأقوام البدائية، ولذلك لا يجوز استعمالها مرة أخرى، وهم أنفسهم قوم غير مقدسين (42).

وقد منع الإسلام طواف (العرى) في أي وقت كان، وحتم على الجميع قريش وغيرهم لبس (الإحرام)(43). وقد ذكر علماء التفسير في تفسير قوله تعالى:" وإذا فعلوا فاحشة، قالوا وجدنا عليها آباءنا، والله أمرنا بها. قل: إن الله لا يأمر بالفحشاء. أتقولون على الله ما لا تعلمون" (44) أن هذه الآية نزلت في حق المتعرين الذين كانوا يطوفون بالبيت عراة، " فإذا قيل لهم: لم تفعلون ذلك؟ قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها"، " فنحن نفعل مثل ما كانوا يفعلون، ونقتدي بهديهم ونستن بسنتهم. والله أمرنا به فنحن نتبع أمره فيه" (45) فنحن إذن أمام سنة جاهلية قديمة، ترجع طواف العري الى أمر سابق وشريعة سابقة.

وأما (الحمس)، فهم الذين كانوا يطوفون بثيابهم، ثم يحتفظون بها فلا يلقونها، فلهم من هذه الناحية ميزة امتازوا بها على الحلة. ولهم على الحلة ميزة أخرى، هي أنهم كانوا يقفون الموقف في طرف الحرم من (غرة): يقفون به عشية عرفة، ويظلون به يوم عرفة في الأراك من نمرة، ويفيضون منه الى المزدلفة (46). ولا يقفون موقف غيرهم بعرفة، فقصروا عن مناسك الحج والموقف من عرفة وهو من الحل. وحجتهم أنهم أهل الحرم فلا يخرجون منه مثل سائر الناس. ويقولون: وفي جملتهم عرب الحجاز (47). ويظهر أن أهل مكة وهم قريش. كانوا يلبسون الإحرام، أو يكرهونه لغيرهم من العرب أو يعيرونه لهم إن كانوا من حلفائهم، فيحرمون كإحرام قريش. أما من لم يتمكن من الحصول على الإحرام، فقد كان يضطر بحكم الضرورة الى الطواف عريانا على نحو ما يقصه علينا أهل الأخبار.

أما بالنسبة الى أهل العربية الجنوبية من معينيين وسبئيين وقتبانيين وحضرميين، فإننا لا نستطع أن نتحدث عن سنة الطواف حول المعابد عندهم، لعدم ورود شئ عن ذلك في النصوص الواصلة إلينا. ولكني لا أستبعد احتمال طوافهم حول بيوت أصنامهم على نحو ما كان يفعله أهل الحجاز، لأن الطواف حول بيوت الأصنام أو حول الصنم من السنن الشائعة بين العرب وعند جماعات من بني إرم والنبط.

التلبية:

وذكر (محمد بن حبيب) أن طواف أهل الجاهلية بالبيت أسبوعا، وذكر أنهم كانوا يمسحون الحجر الأسود، ويسعون بين الصفا والمروة. وكانوا يلبون وذكر أن نسك قريش كان لإساف، وأن تلبيتهم:" لبيك اللهم لبيك، لبيك، لا شريك لك إلا هو لك، تملكه وما ملك" (48). وأن تلبية من نسك للعزى:" لبيك اللهم لبيك، لبيك وسعديك، ما

أحبنا إليك". وأن تلبية من نسك للآت:" لبيك اللهم لبيك، لبيك، كفى ببيتنا بنية، ليس بمهجور ولا بلية، لكنه من تربة زكية أربابه من صالحي "البرية". وكانت تلبية من نسك لجهاد:" لبيك، اللهم لبيك. لبيك، إجعل ذنوبنا جبار، وأهدنا لأوضح المنار، ومتعنا وملنا بجهار". وكانت تلبية من نسك لشمس:" لبيك، اللهم لبيك، لبيك، وما نهارنا نجره، أدلاجه وحره وقره، لا نتقي شيئا ولا نضره، حجا لرب مستقيم بره"، وكانت تلبية من نسك لمحرق:" لبيك، اللهم لبيك، لبيك حجا حقا، تعبدا ورقا"، وكانت تلبية من نسك لود:" لبيك اللهم لبيك، لبيك، معذرة إليك". وكانت تلبية من نسك ذا الخلصة:" لبيك، اللهم لبيك، لبيك، بما هو أحب إليك". وكانت تلبية من نسك لمنطبق:" لبيك، اللهم لبيك، لبيك". وتلبية عك، أنهم كانوا إذا بلغوا مكة، يبعثون غلامين أسودين أمامهم، يسيران على جمل، مملوكين، قد جردا، فهما عريانان، فلا يزيدان على أن يقولا:" نحن غرابا عك". وإذا نادى الغلامان بذلك صاح من خلفهما من عك: " عك إليك عانية، عبادك اليمانية: كيما نحج الثانية، على الشداد الناجيه" (49).

وكانت تلبية من نسك مناة:" لبيك اللهم لبيك، لبيك، لولا أن بكرا دونك يبرك الناس ويهجرونك، ما زال حج عثج يأتونك، إنا على عدوائهم من دونك". وتلبية من نسك لسعيدة:" لبيك اللهم لبيك، لبيك لبيك، لم نأتك للمياحة، ولا طلبا للرقاحة، ولكن جئناك للنصاحة ". وكانت تلبية من نسك ليعوق:" لبيك اللهم لبيك، لبيك، بغض إلينا شر، وحبب إلينا الخير، ولا تبطرنا فنأشر. ولا تفدحنا بعثار". وكانت تلبية من نسك ليغوث:" لبيك، اللهم لبيك، لبيك، أحبنا بما لديك: فنحن عبادك، قد صرنا إليك". وكانت تلبية من نسك لنسر:" اللهم لبيك، اللهم لبيك، لبيك، إننا عبيد، وكلنا ميسرة عتيد، وأنت ربنا الحميد، أردد إلينا مُلكنا والصيد". وكانت تلبية من نسك ذا اللبا:" لبيك اللهم لبيك، لبيك، رب فأصرفن عنا مضر، وسلمن لنا هذا السفر، إن عما فيهم لمزدجر، واكفنا اللهم أرباب هجر". وكانت تلبية من نسك لمرحب:" لبيك اللهم لبيك، لبيك، أننا لديك. لبيك، حببنا إليك". وكانت تلبية من نسك لذريح:" لبيك، اللهم لبيك، لبيك، كلنا كنود، وكلنا لنعمة جحود، فاكفنا كل حية رصود". وكانت تلبية من نسك ذا الكفين:" لبيك، اللهم لبيك، لبيك، إن جرهما عبادك، الناس طرف وهم تلادك، ونحن ولى منهم بولائك". وتلبية من نسك هبل:" لبيك اللهم لبيك، أننا لقاح، حرمتنا على أسنة الرماح، يحسدنا الناس على النجاح"(50).

وقد تعرض (اليعقوبي) لموضوع التلبية، فقال:" فكانت العرب، إذا أرادت حج البيت الحرام، وقفت كل قبيلة عند صنمها وصلوا عنده، ثم تلبوا حتى يقدموا مكة. فكانت تلبياتهم مختلفة. وكانت تلبية قريش: لبيك اللهم لبيك لا شريك لك، تملكه وما ملك. وكانت تلبية كنانة: لبيك اللهم لبيك، اليوم يوم التعريف، يوم الدعاء والوقوف. وكانت تلبية بني أسد: لبيك اللهم لبيك، يا رب أقبلت بنو أسد، أهل التواني والوفاء والجلد إليك. وكانت تلبية بني تميم: لبيك اللهم لبيك، لبيك عن تميم، قد تراها قد أخلقت أثوابها وأثواب من وراءها، وأخلصت لربها دعاءها. وكانت تلبية قيس عيلان: لبيك اللهم لبيك، لبيك أنت الرحمان، أتتك قيس عيلان، راجلها والركبان. وكانت تلبية ثقيف: لبيك اللهم إن ثقيفا قد أتوك، وأخلفوا المال وقد رجوك. وكانت تلبية هذيل: لبيك عن هذيل قد أدلجوا بليل، في إبل وخيل. وكانت تلبية ربيعة: لبيك ربنا لبيك، لبيك إن قصدنا إليك. وبعضهم يقول: لبيك عن ربيعة، سامعة لربها مطيعة. وكانت حمير وهمدان يقولون: لبيك عن حمير وهمدان والحليفين من حاشد والهان. وكانت تلبية الأزد: لبيك رب الأرباب، تعلم فصل الخطاب، لملك كل مثاب. وكانت تلبية مذحج: لبيك رب الشعري، ورب اللات والعزى. وكانت تلبية كندة وحضرموت: لبيك لا شريك لك، تملكه، أو تهلكه، أنت حكيم فاتركه. وكانت تلبية غسان: لبيك رب غسان، راجلها والفرسان. وكانت تلبية بجيلة: لبيك عن بجيلة في بارق ومخيلة، وكانت تلبية قضاعة: لبيك عن قضاعة، لربها دفاعة، سمعا له وطاعة. وكانت تلبية جذام: لبيك عن جذام، ذوي النهي والأحلام. وكانت تلبية عك والأشعريين.

نحج للرحمان بيتا عجبا مستترا مضببا محجبا (51)

و (التلبية) إجابة المنادي، أي إجابة الملبي ربه. وقولهم: لبيك اللهم لبيك، معناه إجابتي لك يا رب، وإخلاصي لك (52). وقد كان الجاهليون يلبون لأصنامهم تلبيات مختلفة. وقد ذكر (أبو العلاء المعري)، أن تلبيات العرب جاءت على ثلاثة أنواع: مسجوع لا وزن له، ومشطور فالمسجوع كقولهم:

لبيك ربنا لبيك والخير كله بيديك

والمنهوك على نوعين: أحدهما من الرجز، والآخر من المنسرح، فالذي من الرجز كقولهم:

لبيك إن الحمد لك والملك لا شريك لك
إلا شريك هو لك تملكه وما ملك

وكقولهم:

لبيك يا معطي الأمر لبيك عن بني النمر
جئناك في العام الزمر نأمل غيثا ينهمر
يطرقُ بالسيل الخمر

والذي من المنسرح جنسان: أحدهما في آخره ساكنان كقولهم:

لبيك رب همدان من شاحط ومن دان
جئناك نبغي الإحسان بكل حرف مذعان
نطوي إليك الغيطان نأمل فضل الغفران

والآخر لا يجتمع فيه ساكنان كقولهم:

لبيك عن بجيله الفخمة الرجيله
ونعمت القبيله جاءتك بالوسيلة
تؤمل الفضيلة

وربما جاءوا على قواف مختلفة، من ذلك تلبية بكر بن وائل:

لبيك حقا حقا تعبدا ورقا
جئناك للنصاحة لم نأت للرقاحه

وروى في تلبية (تميم) قولها:

لبيك لولا أن بكرا دونكا يشكرك الناس ويكفرونكا
مازال منا عثج يأتونكا

وروا أن من تلبيات همدان:

لبيك مع كل قبيل لبيك همدان أبناء الملوك تدعوك
قد تركوا أصنامهم وانتابوك فاسمع دعاءً في جميع الأملوك

ومن تلبياتهم قولهم:

لبيك عن سعد وعن بنيها وعو عن نساء خلفها تعنيها
سارت الى الرحمة تجتنيها

وختم (أبو العلاء المعري) رأيه عن التلبية بقوله:" والموزون من التلبية، يجب أن يكون كله من الرجز عند العرب، ولم تأت التلبية بالقصيد. ولعلهم قد لبوا به ولم تنقله الرواة" (53).

والتلبية هي من الشعائر الدينية التي أبقاها الإسلام، غير أنه غير صيغتها القديمة بما يتفق مع عقيدة التوحيد. فصارت على هذا النحو:" لبيك اللهم لبيك، لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك، والملك لا شريك لك" (54). كما جعلها جزءا من حج مكة، بعد أن كانت تتم خارج مكة، إذ كانت كل قبيلة تقف عند صنمها، وتصلي عنده ثم تلبي، قبل أن تقدم مكة (55). وذلك بالنسبة لمن كان يحج مكة. فأبطل ذلك الإسلام، وألغى ما كان من ذلك حج أهل الجاهلية. وقد رأينا صيغ التلبيات، وكيف كانت تلبيات القبائل خاصة بها، تلبي كل قبيلة لصنمها، وتوجه نداءها إليه.

وتردد جمل التلبية بصوت مرتفع، ولعل ذلك لإعتقاد الجاهليين أن في وقع الصوت إفهاما للصنم الذي يطاف له بأن الطائف قد لبى داعيه، وأنه استجاب أمره وحرص على طاعته. وقد أشار بعض الكتاب (الكلاسيكيين) الى الصخب والضجيج الذي كان يرتفع في مواضع الحج بسبب هذه التلبية.

وهناك مواضع أخرى غير متصلة بالبيت الحرام، كانت مقدمة وداخلة في شعائر الحج، منها عرفة ومنى والمزدلفة والصفا والمروة، ومواضع أخرى كان يقصدها الجاهليون لقدسيتها أو لوجود صنم بها، ثم حرمها الإسلام، فنسيت وأهملت فذهبت معالمها مع ما ذهب من معالم الجاهليين.

وتقف الحمس في حجها الى أنصاب الحرم من نمرة على نحو ما ذكرت أما الحلة والطلس، أي غير الحمس من بقية العرب فيقفون على الموقف من عرفة، عشية يوم (عرفة) فإذا دفع الناس من عرفة وأفاضوا أفاضت الحمس من أنصاب الحرم حتى يلتقوا بمزدلفة جميعا. وكانوا يدفعون من عرفة إذا طفلت الشمس للغروب وكانت على رؤوس الجبال كأنها عمائم الرجال في وجوههم. فيبيتون بمزدلفة حتى إذا كانت في الغلس وقفت الحلة والحمس على (قزح)، فلا يزالون عليه حتى إذا طلعت الشمس وصارت على رؤوس الجبال كأنها عمائم الرجال في وجوههم دفعوا من مزدلفة، وكانوا يقولون: أشرق ثبير كيما نغير (56).

ومن مناسك الحج الطواف بالصفا والمروة، وعليها صنمان: أساف ونائلة. وكان الجاهليون يمسحونهما (57). وكان طوافهم بهما قدر طوافهم بالبيت، أي سبعة أشواط. تقوم بذلك قريش، أما غيرهم فلا يطوفون بهما، وذلك على أغلب الروايات. ويظهر أن الصفا والمروة من المواضع التي كان لها أثر خطير في عبادة أهل مكة. ففي حج أهل مكة طوافان: طواف بالبيت، وطواف بالصفا والمروة.

وبين الصفا والمروة يكون (السعي) في الإسلام، ولذلك يقال للمسافة بين المكانين (المسعى). وكان إساف بالصفا، وأما نائلة فكان بالمروة (58). ولا بد أن يكون لإقتران الإسمين دائما سبب، و(المسعى) هو الرابط المقدس بين هذين الموضعين المقدسين عند الجاهليين.

وكان أهل مكة يتبركون بلمس الحجر الأسود، ثم يسعون بين الصفا والمروة. ويطوفون بإساف أولا ويلمسون، كل شوط من الطواف ثم ينتهون بنائلة. ويلبون لهما: وكانت تلبيتهم لهما:" لبيك اللهم لبيك، لا شريك لك، إلا شريك هو لك، تملكه وما ملك" (59). وذكر أن (الأنصار)، لما قدموا مع النبي في الحج، كرهوا الطواف بين الصفا والمروى لأنهما كانا من مشاعر قريش في الجاهلية، وأرادوا تركه في الإسلام. وذكر أن قوما من المسلمين قالوا: يا رسول الله لا نطوف بين الصفا والمروة، فإنه شرك كنا نصنعه في الجاهلية. فكان أهل الجاهلية إذا طافوا بين الصفا والمروة مسحوا الوثنيين، فلما جاء الإسلام وكسرت الأصنام، كره المسلمون الطواف بينهما لأجل الصنمين، فأنزل الله:" إن الصفا والمروة من شعائر الله" (60). ويتبين من غربلة الأخبار أن الذين كانوا يطوفون بالصنمين المذكورين ويسعون بينهما، هما من عباد الصنمين وهم قريش الخاصة، وليس كل من كان يحج الى مكة من العرب، ولذلك كرهوا الطواف في الإسلام بالصفا والمروة. وقد استبدل الإسلام بالطواف السعي، لهدم الصنمين اللذين كان الناس يطوفون حولهما واكتفى بالسعي بين الموضعين.

وذكر بعض العلماء أن العرب عامة كانوا لا يرون الصفا والمروة من الشعائر ولا يطوفون بينهما فأنزل الله:" إن الصفا والمروة من شعائر الله" (61)، أي لا تستحلون ترك ذلك (62). وذكر أن الأنصار كانوا يهلون لمناى في الجاهلية، فلما جاء الإسلام قالوا: يا نبي الله إنا كنا لا نطوف بين الصفا والمروة تعظيما لمناة فهل علينا من حرج أن نطوف بهما، فأنزل الله الآية المذكورة. وكان أهل (تهامة) ممن لا يطوفون أيضا بين الصفا والمروة، فلما جاء الإسلام ونزل الأمر بالطواف بالبيت، ولم ينزل بالطواف بين الصفا والمروة، قيل للنبي: إنا كنا نطوف في الجاهلية بين الصفا والمروة وأن الله قد ذكر الطواف بالبيت ولم يذكر الطواف بين الصفا والمروة فهل علينا من جناح أن لا نطوف بهما. فنزل الوحي:" إن الصفا والمروة من شعائر الله" فصار الطواف بين الصفا والمروة لجميع الحجاج، لا كما كان في عهد الجاهلية. من أقتصاره على قريش وبعض العرب المتأثرين بهم. فكانوا يطوفون بهما ويمسحون بالوثنيين إساف ونائلة، فلما جاء الإسلام تحرج بعض الناس وفيهم قوم من قريش من الطواف بينهما لأنهما من شعائر الجاهلية، فنزل الأمر به (63).

وذكر أهل الأخبار أن السعي بين الصفا والمروة، شعار قديم من عهد هاجر أم إسماعيل. وأما أمر الطواف، فهو الذي أمر به النبي أصحابه في عمرة القضاء ليُري المشركين قوتهم، حيث قالوا: وهنتهم حمى يثرب (64).

وورد في خبر عن (عائشة) أنها قالت:" إن الأنصار كانوا يهلون في الجاهلية لصنمين على شط البحر، يقال لهما: إساف ونائلة، ثم يجيئون، فيطوفون بين الصفا والمروة ثم يحلقون، فلما جاء الإسلام ، كرهوا أن يطوفوا بينهما للذي كانوا يصنعون في الجاهلية، فأنزل الله عز وجل:" إن الصفا والمروة من شعائر الله الى آخرها. قالت: فطافوا". وههو خبر يناقض أخبار أخرى يتصل سندها بـ (عائشة)، تجمع على أنها قالت: إن الأنصار وغسان كانوا قبل أن يسلموا يصلون لمناة، فلا يحل لهما أن يطوفوا بين الصفا والمروة. وكان ذلك سنّة في آبائهم من

أحرم لمناة لم يطف بين الصفا والمروة (65). ولم أجد في خبر أخر شيئا يفيد أن إسافا ونائلة كان على ساحل البحر.

و(السعي) في الإسلام سبعة أشواط، تبدأ بالصفا، وتختتم بالمروة. وعندما يصل الحاج حد (السعي) يسعى ويهرول، فإذا جاز الحد مشى. وكان الجاهليون يبدأون بـ (الصفا) وينتهون بـ (المروة) كذلك (66).

ومن مناسك حج أهل الجاهلية الوقوف بـ (عرفة)، ويكون ذلك في التاسع من ذي الحجة ويسمى (يوم عرفة). ومن (عرفة) تكون (الإجازة) للإفاضة الى (المزدلفة)، ومن المزدلفة الى (منى). وقد كان الجاهليون من غير قريش يفيضون في عرفة عند غروب الشمس، وأما في المزدلفة فعند شروقها. وكان الذي يتولى الإجازة رجلا من تميم يقال له (صوفة)، ثم انتقلت الى (صفوان) من تميم كذلك (67). ولم يكن (الحمس) يحضرون عرفة، وإنما يقفون بالمزدلفة، وكان سائر الناس يقف بعرفة. ولما رأى أحد الصحابة رسول الله واقفا بعرفة عجب من شأنه وأنكر منه ما رأى لأنه من الحمس، وما كان يظن أنه يخالف قومه في ذلك، فيساوي نفسه بسائر الناس (68). فأنزل الله:" ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس، وأستغفروا الله إن الله غفور رحيم" (69)، فشمل ذلك الحمس وغيرهم. فأخذوا يقفون كلهم موقف عرفة، ووضع عن قريش ما فعلوه من تمييز أنفسهم عن الناس (70).

وورد في روايات أخرى، أن قريشا وكل حليف لهم وبني اخت لهم، لا يفيضون من عرفات، إنما يفيضون من المغمس، وورد أن قريشا وكل ابن أخت وحليف لهم، لا يفيضون مع الناس من عرفات، يقفون في الحرم ولا يخرجون منه. يقولون: إنما نحن أهل حرم الله، فلا نخرج من حرمه، وأنهم قالوا: نحن بنو إبراهيم وأهل الحرمة وولاة البيت، وقاطنوا مكة وساكنوها، فليس لأحد من العرب مثل حقنا، ولا مثل منزلنا، ولا تعرف له العرب مثل ما تُعرف لنا، فلا تعظموا شيئا من الحل، كما تعظمون الحرم. فإنكم إن فعلتم ذلك استخفت العرب بحرمكم، وقالوا: قد عظموا من الحل مثل ما عظموا من الحرم فتركوا الوقوف على عرفة والإفاضة منها" (71).

وذكر أن قريشا ومن دان بدينها تفيض من (جمع) من المشعر الحرام (72). و(جمع) المزدلفة (73).

و(عرفة) أو (عرفات) موضع على مسافة غير بعيدة عن مكة (74). لا بد وأن يكون من المواضع التي كان يقدسها أهل الجاهلية، وأن يكون له ارتباط بصنم من الأصنام، وإلا لما صار جزءا من أجزاء مناسك الحج وشعائره عند الجاهليين. ويقف الحجاج موقف عرفة من الظهر الى وقت الغروب. وقد يكون لموقف الجاهليين في عرفة وقت الغروب علاقة بعبادة الشمس. فإذا غربت الشمس اتجه الحجاج الى (المزدلفة).

الإفاضة:

ومن (عرفة) تكون الإفاضة الى (المزدلفة). و(المزدلفة)، موضع يكاد يكون على منتصف الطريق بين (عرفة) و(منى) وفيه يمضي الحجاج ليلتهم، ليلة العاشر من (ذي الحجة). ومنه تكون الإفاضة عند الشروق الى (منى) وقد نعت بـ(المشعر الحرام) في القرآن الكريم (75). ويذكر أهل الأخبار أن (قصي بن كلاب)، كان قد أوقد نارا على (المزدلفة) حتى يراها من دفع من عرفة، وأن العرب سارت على سنته هذه، وبقيت توقدها حتى في الإسلام (76). ولا بد وأن يكون من المواضع الجاهلية المقدسة كذلك، التي كان لها صلة بالأصنام. وقد ذكر علماء اللغة اسم جبل بالمزدلفة دعوه (قزحا)، قالوا أنه (هو القرن الذي يقف عنده الإمام) (77). وذكروا أن (قزح) اسم شيطان (78). ونحن نعرف اسم صنم يقال له (قزاح)، قد تكون له صلة بهذا الموضع.

ويفيض الحجاج في الجاهلية عند طلوع شمس اليوم العاشر من ذي الحجة من (المزدلفة) الى (منى)، لرمي الجمرات ولنحر الأضحية. و(منى) موضع لا يبعد كثيرا عن مكة. ولعلماء اللغة آراء في سبب التسمية، من جملتها أنها عرفت بذلك لما يمنى بها من الدماء (79). وذكر بعض أهل الأخبار أن (عمرو بن لحي) نصب بمنى سبعة أصنام، نصب على (القرين) القرن الذي بين مسجد منى والجمرة الأولى صنما، ونصب على الجمرة الأولى صنما، وعلى الجمرة الوسطى صنما، وعلى شفير الوادي صنما (80). ولا بد أن يكون لهذا الموضع صلة بالأصنام، نظرا لما له من علاقة متينة بمناسك الحج. وقد يكون لرمي الجمرات ولنحر الذبائح صلة بتلك الأصنام.

وقد ذكر العلماء " أن المشركين كانوا لا يفيضون حتى تطلع الشمس، ويقولون: أشرق ثبير" (81). وأن النبي خالفهم، فأفاض حين أسفر قبل طلوع الشمس (82). وفي فعل المشركين ذلك، ووقوفهم انتظارا للإفاضة عند طلوع الشمس، دلالة على عبادة الشمس عندهم، ولهذا غير الرسول هذا الوقت.

و(رمي الجمرات) بمنى من مناسك الحج وشعائره. وهو من شعائر الحج كذلك المعروفة في المحجات الأخرى من جزيرة العرب. كما كان معروفا عند غير العرب أيضا. وقد أشير إليه في التوراة (83). وهو معروف عند

(بني إرم) (84). وكلمة (رجم) من الكلمات السامية القديمة. وقد وردت في حديث (عبد الله بن مغفل): لا ترجموا قبري، أي لا تجعلوا عليه الرجم، وهي الحجارة على طريقة أهل الجاهلية، ولا تجعلوه مسنما مرتفعا (85). وقد فعله أهل الجاهلية على سبيل التقدير والتعظيم. فكان أحدهم إذا مر بقبر، وأراد تقدير صاحبه وتعظيمه وضع رجمة أو رجاما عليه.

(والجمرات)، أي مواضع (رمي الجمرات) عديدة عند الجاهليين، يطاف حولها، ويحج إليها (86). منها مواضع أصنام، وأماكن مقدسة، ومنها قبور أجداد. وقد ورد قسم بها في بيت ينسب الى شاعر جاهلي (87). وترمي الجمرات على مكان عرف بـ (جمرة العقبة) وبـ (الجمار) وبـ (موضع الجمار) وهو بـ (منى)، وتتجمع وتتكوم عنده الحصى. وهي جمرات ثلاث: الجمرة الأولى، والجمرة الوسطى، وجمرة العقبة (88).

ويرجع أهل الأخبار مبدأ رمي الجمرات الى (عمرو بن لحي). يذكرون أنه جاء بسبعة أصنام فنصبها بـ (منى)، عند مواضع الحجرات، وعلى شفير الوادي، ومواضع أخرى، وقسم عليها حصى الجمار، إحدى وعشرين حصاة، يرمي كل منها بثلاث جمرات، ويقال للوثن حين يرمي: أنت أكبر من فلان الصنم الذي يرمي قبله (89).

وكانت إفاضة الجاهليين على هذا النحو: كان أمر الإفاضة بيد رجل من أسرة تناوبت هذا العمل أبا عن جد. وقد اشتهر منهم رجل عرف بـ (عميلة ابن خالد العدواني)، واشتهر بين الناس بـ (أبي سيّارة). كان يجيز الناس من المزدلفة الى منى أربعين سنة. يركب حمارا أسود، وينظر الى أعالي جبل (ثبير)، فإذا شاهد عليها أشعة الشمس الأولى نادى: أشرق ثبير، كيما نغير! ثم يجيز لهم بالإفاضة وفيه يقول الشاعر:

خلوا الطريق عن أبي سيّارة   وعن مواليه بنى فزاره
حتى يجـيز سالما حماره   مستقبل القبلة يدعو جاره
قد أجار الله من أجاره (90).

وضرب به المثل، فقيل: أصح من عير أبي سيارة (91).

وذكر (الجاحظ) أن اسم (أبي سيارة) (عميلة بن أعزل)، دفع بأهل الموسم أربعين عاما، ولم يكن عيره عيرا وإنما كان أتانا، ولا يعرفون حمارا وحشيا عاش وعمرّ أطول من عير (أبي سيارة) (92).

وورد أن الذين كان لهم أمر الإجازة بالحجاج، وهي الإفاضة، هم (صوفة). وهي حيّ من مضر من نصل (الغوث بن مر بن اد بن طابخة بن الياس بن مضر)، وقد سموا (صوفة) و (ال صوفة)، لأن (الغوث) أبوهم جعلت أمه في رأسه صوفة وجعلته ربيطا للكعبة يخدمها. وكانوا يخدمون الكعبة ويجيزون الحاج، أي يفيضون بهم، فيكونون أول من يدفع. وكان أحدهم يقوم فيقول: أجيزي صوفة، فإذا أجازت، قال: أجيزي خندف، فإذا أجازت أذن للناس كلهم في الإجازة. وكانت الإجازة بالحج إليهم في الجاهلية. وكانت العرب إذا حجت وحضرت عرفة لا تدفع منها حتى تدفع بها صوفة، وكذلك لا ينفرون من (منى) حتى تنفر (صوفة)، فإذا أبطأت بهم، قالوا: أجيزي صوفة. وورد أن (صوفة) قوم من (بني سعد بن زيد مناة) من تميم (93).

ويفهم من رواية أن كلمة (صوفة) لم تكن اسم علم، وإنما هي لفظة أطلقت على من كان يتولى البيت أو قام بشيء من خدمته، أو بشيء من أمر المناسك (94). فهم من رجال الدين، تخصصوا بالإجازة بالناس في مواسم الحج. ولعلهم كانوا يضعون على رأسهم صوفة على هيأة عمامة أو عصابة، أو عطر، لتكون علامة على أنهم من أهل بيت دين وشرف. فعرفوا بـ (صوفة) وبـ (آل صوفه) وبـ (صوفان). وفي ذلك قال (مرة بن خليف الفهمي)، وهو شاعر جاهلي قديم:

إذا ما أجازت صوفة النقب من منى   ولا ح قتار فوقه سفع الدم (95).

و (يظهر) من الروايات الواردة عن (ثبير)، أنه كان من المواضع المقدسة عند الجاهليين، أو أن على قمته صنما أو بيتا كانوا يصعدون إليه لزيارته وللتبرك به (96). ومن الشعائر المتعلقة بمنى نحر الذبائح، وهي الأضحية في الإسلام و (العتائر) في الجاهلية. ولذلك عرف هذا العيد: عيد الحج بـ (عيد الأضحى)، وعرف اليوم الذي تضحى به الأضحية بـ (يوم النحر) وبـ (الأضحى) وبـ (يوم الأضحى) وكانوا ينحرونها على الأنصاب وعلى مقربة من الأصنام، فتوزع على الحاضرين ليأكلوها جماعة أو تعطى للأفراد. وقد تترك لكواسر الجو وضواري البر فلا (يصد عنها إنسان ولا سبع) (97). وتبلغ ذروة الحج عند تقديم العتائر، لأنها أسمى مظاهر العبادة في الأديان القديمة.

وكان الجاهليون يقلدون هديهم بقلادة، أو بنعلين، يعلقان على رقبتي الهدى، أشعارا للناس بأن الحيوان هو هدى، فلا يجوز الإعتداء عليه، كما كانوا يشعرونه. والإشعار الإعلام. وهو أن يشق جلد البدنة أو يطعن في اسمنها في أحد الجانبين بمبضع أو نحوه، وقيل في سنامها الأيمن حتى يظهر الدم ويعرف أنها هدى. والشعيرى البدنة المهداة (98).

وكان بعض أهل الجاهلية، يسلخون جلود الهدى، ليأخذوها معهم. ويتفق هذا مع لفظة (تشريق) التي تنعني تقديد اللحم. ومنه سميت أيام التشريق، وهي ثلاثة أيام بعد يوم النحر، لأن لحوم الأضاحي تشرق فيها، أي تشرر في الشمس (99). وقيل سمي التشريق تشريقا، لأن الهدى لا ينحر حتى تشرق الشمس (100). ويظهر أن الجاهليين كانوا ينحرون قبيل شروق الشمس وعند شروقها، بدليل ما ورد في الحديث من النهي عن ذلك. ومن حديث: من ذبح قبل التشريق فليعد. أي قبل أن يصلي صلاة العيد، وهو من شروق الشمس وإشراقها، لأن ذلك من وقتها (101).

ولا يحل للحجاج في الجاهلية حلق شعورهم أو تقصيرها طيلة حجهم، وإلا بطل حجهم. ويلاحظ أن غير العرب من الساميين كانوا لا يسمحون بقص الشعر في مثل هذه المناسبات الدينية أيضا، لما للشعر من أهمية خاصة في الطقوس الدينية عندهم، ولا سيما اللحية لما لها من علاقة بالدين. ولهذا نجد رجال الدين والزهاد والأتقياء الورعين يحافظون عليها ويعبرونها مظهرا من مزاهر التدين (102).

وقد كانت القبائل لا تحلق شعورها في مواسم حجها إلا عند أصنامها، فكان الأوس إذا حجوا وقفوا مع الناس المواقف كلها ولا يحلقون رؤوسهم، فإذا نفروا أتوا صنمهم مناة فحلقوا رؤوسهم عنده، وأقاموا لا يرون لحجهم تماما إلا بذلك (103). وكانت قضاعة ولخم وجذام تحج للأقيصر وتحلق عنده (104).

وكان من عادة بعض القبائل، مثل بعض قبائل اليمن، إلقاء قرة من دقيق مع الشعر (105). وذلك أن أهل اليمن كانوا إذا حلقوا رؤوسهم بمنى وضع كل رجل على رأسه قبضة دقيق، فإذا حلقوا رؤسهم سقط الشعر مع ذلك الدقيق، ويجعلون ذلك الدقيق صدقة، فكان ناس من أسد وقيس يأخذون ذلك الشعر بدقيقه، فيرمون بالشعر وينتفعون بالدقيق. وفي ذلك يقول معاوية بن أبي معاوية الجرمي:

ألم تر جرما أنجدت وأبوكم	مع الشعر في قـص الملبد شارع
إذا قرة جاءت تقول أصاب بها	سوى القمل إني من هوازن ضارع (106)

وكان من يقصد العزى يذبح عند شجرة هناك ثم يدعون، وكان من يقصد مناة يهدى لها كما كان غيرهم يهدى للكعبة. ويطوفون بها ثم ينحرون عندها، وكان عبدة ذي الخلصة في أسفل مكة يذبحون عنده كذلك (107). وكذلك كانت بقية القبائل تطوف في أعيادها حول أصنامها، وتهدى إليها، ثم تنحر عندها عند إكمالها هذه الشعائر دلالة على إكمالها شعائر الحج الى هذه المواضع وانتهائها منها على أحسن وجه.

وتميز الحيوانات التي يهيئا أصحابها أو مشتروها للذبح في الحج بعلامات، بأن توضع عليها قلائد تجعلها معروفة، أو أن يحدث لها جرح ليسيل منه الدم ليكون ذلك علامة أنها هدى. ويقال لذلك إشعار، ومنه إشعار البدن، وهو أن يشق أحد جنبي سنام البدنه حتى يسيل منه الدم ليكون ذلك علامة الهدى (108). وقد كان من أهل مكة من يتخذ من لحاء شجر الحرم قلادة يضعها على عنق البدن، لتكون دلالة على أنها هدى، فلا يعترضها أحد (109).

ويجوز للحجاج مغادرة (منى) في اليوم العاشر من ذي الحجة، أي في اليوم الأول من العيد، ففي هذا اليوم يكمل الحجاج حجهم، ولكن منهم من يمكث في هذا الموضع حتى اليوم الثالث عشر، وذلك ابتهاجا بأيام العيد، ومشاركة لأخوانه فيه. ويقال لذلك (التشريق). وأيام التشريق هي ثلاثة أيام بعد يوم النحر (110).

وكان أهل الجاهلية إذا قضوا مناسكهم وفرغوا من الحج، وذبحوا نسائكهم، يجتمعون فيتفاخرون بمآثر آبائهم، فيقول بعضهم لبعض: كان أبي يطعم الطعام، ويقول بعضهم: كان أبي يضرب بالسيف، ويقول بعضهم: كان أبي جزّ نواصي بني فلان. يقولون ذلك عند (الجمرة)، أو عند البيت، فيخطب خطيبهم ويحدث محدثهم. أو أنهم كانوا إذا قضوا مناسكهم وأقاموا بمنى قعدوا حلقا، فذكروا صنيع آبائهم في الجاهلية وفعالهم به، يقوم الرجل، فيقول: اللهم إن أبي كان عظيم الجفنة عظيم القبة كثير المال، وما شاكل ذلك، فنزل الوحي:" فإذا قضيتم مناسككم، فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكرا " (111).

وكانوا إذا خرج أحدهم من بيته يريد الحج، تقلد قلاده من لحاء السمر، دلالة على ذهابهم الى الحج، فيأمن حتى يأتي أهله. وذكر أنه كان يقلد نفسه وناقته، فإذا أراد العودة عادوا مقلدين بلحاء السمر. وروى أنهم إذا أرادوا الحج مقبلين الى مكة يتقلدون من لحاء السمر، وإذا خرجوا منها الى منازلهم منصرفين منها، تقلدوا قلادة شعر فلا يعرض لهم أحد بسوء. بقى ذلك شأنهم حتى نزل الأمر بمنع دخول المشركين مكة وبوجوب قتلهم حيث وجدوا (112).

العمرة:

و(العمرة) هي بمثابة (الحج الأصغر) في الإسلام، وكان أهل الجاهلية يقومون بأدائها في شهر (رجب). وللعمرة في الإسلام شعائر ومناسك، وتكون بالطواف بالبيت وبالسعي بين الصفا والمروة. ولا بد أن يكون لها عند الجاهليين شعائر ومناسك. وهي في الإسلام فردية اختيارية، وهي تختلف بذلك عن الحج الذي هو فرض عين على كل مسلم مستطيع، وجماعي، أي أن المشتركين فيه يؤدونه جماعة (113). أما بالنسبة الى الجاهليين، فيظهر من ذكر العمرة في القرآن الكريم أنهم كانوا يؤدونها كما كانوا يؤدون الحج، ولوقوعها في شهر رجب، وهو شهر كان الجاهليون يذبحون العتائر فيه، لعلنا لا نخطيء إذا قلنا أنهم كانوا يذبحون ذبائحهم في العمرة، حينما يأتون أصنامهم فيطوفون حولها، أما في الإسلام، فالعمرة دون الحج، وإذ كانت في شهر رجب في الجاهلية. كانت حجا خاصا مستقلا عن الحج، لما كان لها من أهمية عظيمة عندهم قد تزيد على الطواف المألوف في شهر الحج (114).

وورد أن أهل الجاهلية كانوا يرون أن العمرة من أشهر الحج: شوال وذي القعدة وتسع من الحجة وليلة النحر، أو عشر أو ذي الحجة من الفجور في الأرض، أي من الذنوب (115). ولكن بعضا آخر كان يعتمر في كل شهر، ولا سيما في رجب، حيث كانوا يحلقون رؤوسهم ويجيئون الى محجاتهم للعمرة. وورد أن أهل الجاهلية : كانوا يرون العمرة في أشهر الحج من أكبر الكبائر. ويقولون: إذا برأ الدير، وعفا الأثر، وانسلخ صفر، حلت العمرة لمن اعتمر" (116).

وذكر أن الأشهر الحرم ثلاثة سردا وواحدا فردا، وهو رجب. أما الثلاثة، فليأمن من الحجاج واردين الى مكة وصادرين عنها، شهرا قبل شهر الحج، وشهرا بعده، قدر ما يصل الراكب من أقصى بلاد العرب، ثم يرجع. وأما رجب فللعّمار يأمنون فيه مقبلين وراجعين نصف الشهر للإقبال ونصفه للإياب، إذ لا تكون العمرة من أقاصي بلاد العرب كما يكون الحج، وأقصى منازل المعتمرين بين مسيرة خمسة عشر يوما (117).

ويلبس المعتمر (الإحرام) أيضا. وقد كان الجاهليون يكتفون في عمرتهم بالطواف بالبيت، أما (السعي) بين الصفا والمروة، فأغلب الظن أن العرب لم يكونوا يقومون به. بدليل ما ورد في القرآن الكريم من قوله:" إن الصفا والمروة من شعائر الله، فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما ومن تطوع خيرا فإن الله شاكرا عليم ". (118). ففي هذا النص دلالة على أن الجاهليين من غير قريش لم يكونوا يدخلون السعي بينهما في شعائر الحج أو العمرة، وأن الله أمر بإدخاله فيهما. أما موقف الجاهليين بالنسبة لطواف العمرة، فهو نفس موقفهم بالنسبة للطواف بالبيت في أثناء الحج، والفرق بين الحج والعمرة، إن الحج هو الإحرام ثم الطواف بالبيت والسعي بين الصفا والمروة وقضاء مناسك عرفة والمزدلفة والوقوف بالمواضع التي أمر بالوقوف بها، بينما العمرة الطواف بالبيت والسعي بين الصفا والمروة (119). فلا يكون موقف عرفة من العمرة. وكان الجاهليون يحلقون رؤوسهم للعمرة، ويكون حلق الرأس علامة لها. فإذا وجدوا رجلا وقد حلق رأسه علموا أنه من (العمار)، فلا يسمونه بسوء، إلا إذا مس أحدا بسوء احتراما للعمرة ولشعائر الدين (120).

والفرق بين العمرة والحج في الإسلام، أن العمرة تكون للإنسان في السنة كلها، والحج في وقت واحد من السنة. وتمام العمرة إن يطاف بالبيت، ويسعى بين الصفا والمروة، والحج لا يكون إلا مع الوقف بعرفة يوم عرفة وإجراء بقية المناسك (121).

وتقبيل الأحجار والأصنام واستلامها في أثناء الطواف أو في غير الطواف من الشعائر الدينية عند الجاهليين. كان في روعهم أن هذا التقبيل مما يقربهم الى الآلهة. ويوصلهم إليها، فتقربوا إليها ونصبوها في مواضع ظاهرة، ومسحوا أجسامهم بها تبركا. وكلمة (تمسح) من الكلمات التي لها معاني عند الجاهليين، وكذلك كلمة (استلم) و(استلام) عند أهل مكة خاصة حيث استعملت بالنسبة للحجر الأسود، وطريقتهم أن يمر الإنسان يده على الحجر المقدس أو أن يمسه بها أن صعب استلامه كله. وقد يعوض عن ذلك بعصا يمدها الإنسان الى الحجر حتى تلمسه، وإذا تعذر الوصول إليه بسبب ما، فيجوز أن يفعل ذلك راكبا على جمل (122).

ومن هذا القبيل أيضا طرق مطارق أبواب البيت المقدسة طرقات خفيفة، وامرار بعض الأشياء مثل الملابس على الأصنام والصخور والمواضع المقدسة لإكتساب البركة، والتمسح بجدران البيت أو استلام أركانه أو التعلق بأطراف الكسوة. وتلطيخ الأحجار بدماء الضحية التي تقدم للأوثان وذلك بصب الدماء عليها، أو بتلطيخها وتلويثها كلها أو جزء منها بدم الضحية، توكيدا بإراقة دم الضحية في نفس من ضحيت الضحية من أجله (123).

وقيل إن من شعائر الجاهليين في الحج أن الرجل منهم كان إذا أحرم، تقلد قلادة من شعر، فلا يتعرض له أحد. فإذا حج وقضى حجه، تقلد قلادة من (إذخر)، والإذخر نبات زكي الرائحة، وأن الرجل منهم يقلد بعيره أو نفسه قلادة من لحاء شجر الحرم، فلا يخاف من أحد، ولا يتعرض له أحد بسوء (124). وتذكرنا هذه العادة بما يلبسه بعض الحجاج عند اتمامهم حجهم وعودتهم الى بلادهم من لباس (كوفية) خاصة بأهل مكة ومن عقال حجازي وذلك بالنسبة للرجال. وخمار أبيض بالنسبة للنساء، وذلك طيلة الأيام السبعة الأولى من احتفالهم بالعودة من الحج.

ولم يكن الجاهليون القريبون من مكة أو البعيدون عنها يقصدونها في حج (عرفة) وعمرة (رجب) حسب، بل كانوا يقصدونها في أوقات مختلفة وفي المناسبات، للطواف حول الأصنام. واستلام الحجر الأسود، والتقرب الى الآلهة المحلية. وقد ساعد ذكاء سادة قريش الذي تجلى في جمعهم أكثر ما أمكنهم جمعه من أصنام القبائل في (البيت الحرام)، على اجتذاب القبائل إليها، وبذلك نشطوا في استغلال مواسم الحج والعمرة بالإستفادة من القادمين بالإتجار معهم، وبيع ما يحتاجون إليه من طعام وزاد، فحصلوا على مال، حسدهم عليه الآخرون. فكان الفضل في ذلك للبيت. والى ذلك أشير في القرآن، في سورة (قريش):" فليعبدوا رب هذا البيت، الذ أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف " (125).

هذا ما عرفناه عن شعائر الحج الى مكة وعن مناسكه في الجاهلية المتصلة بالإسلام. أما عن الحج الى البيوت الأخرى وعن شعائره ومناسكه، فلا نكاد نعرف من أمرها شيئا يذكر. ولكننا نستطيع أن نقول إن من أهم أركان الحج عند جميع الجاهليين، وجوب مراعاة النظافة، نظافة الجسم ونظافة الثياب. ولذلك، كانوا إذا حجوا لبسوا ملابس خاصة بالحج هي (الإحرام) أو ملابس جديدة، أو ملابس مستعملة نظيفة مغسولة، وذلك لحرمة هذه المواضع وقدسيتها، فلا يجوز دخولها بملابس وسخة دنسة، وإذا كانوا يلبسون أحسن ما عندهم عند ذهابهم الى مقابلة عظيم أو سيد قبيلة أو رجل محترم، احتراما له وإجلالا لشأنه، أفلا يجب إذن لبس خير ما عند الإنسان من ثياب لدخول بيوت الآلهة، ولا سيما في مواسم الحج؟. وكان منهم من يوجب على نفسه الغسل وتنظيف جسده حين دخوله المعبد أو اعتزامه الحج.

وتقبيل الأصنام والأحجار واستلامها في أثناء الطواف، والتمسح لها، من الشعائر الدينية اللازمة في الحج وفي غير مواسم الحج عند الزيارات. كان في روعهم أن هذا التقبيل مما يقربهم الى الآلهة، ويوصلهم إليها، فتجعلها ترضى عنهم وتشفيهم مما هم فيه من سقم وأمراض، فتقربوا إليها ومسحوا أجسامهم بها تبركا وتقربا. و(التمسح) بالصنم أو الحجر المقدس، التبرك به لفضله وعبادته، كأنه يتقرب الى الآلهة بالدنو منه ولمسه (126). وقد كان رجال الدين يمسحون بأيديهم أجسام المرضى وثيابهم، لإزالة السوء عنهم. وقد ذكر أهل الأخبار أن الجاهليين كانوا يتمسحون بأصنامهم، ويمسحون ظهورهم بها، لإعتقادهم أنها تشفيهم من كل ألم وسوء.

واستلام الصنم أو الحجر المقدس، هو نوع من أنواع التقدير والتعظيم والتقرب. ويراد بذلك تقبيل الحجر ولمسه وتناوله باليد ومسحه بالكف. وإذا صعب الوصول إليه لشدة الإزدحام، فقد يمد أحدهم قصبة أو عودا أو عصا إليه لمسه، فيكون لمس هذه الأشياء له، كأنه لمس حقيقي، بجلب لصاحبه ما تمناه وطلبه ورجاه من ذلك الصنم أو الحجر (127).

وقد أشار بعض (الكلاسيكيين) الى وجود غابه من النخيل في ركن من البحر الأحمر، كان يؤمها النبط للتبرك بها، إذ كانت في نظرهم أرضا مقدسة، عليها معبد من الحجر عليه كتابة، وصفوها بأنها كتابة لا يسطيع اليوناني قراءتها، وبه كهان وكاهنات يقضون عمرهم في خدمة ذلك المعبد. قالوا: وفي كل خمس سنين يحج الناس إليه، ويتجمعون عنده، ويحضر معهم من في جوار المعبد من ناس، فيذبحون ويتقربون الى آلهتهم. فإذا عادوا أخذوا معهم ماء من ذلك المكان، لتبرك به، لإعتقادهم أنه يمنحهم الصحة والعافية. وذكر بعض آخر أن الحج الى هذا البيت كان مرتين في السنة: الحج الأول في مطلع السنة، ويستغرق شهرا واحدا. أما الحج الثاني فيكون في نهاية الصيف، ويستغرق شهرين. وتكون هذه الأشهر الثلاثة أشهرا حرما لا يحل فيها قتال، يعمها سلم أوجبته الآلهة على الإنسان والحيوان (128).

ونرى في هذه الشعائر مشابها كبيرة لشعائر الحج في مكة. ولولا تعيين هؤلاء الكتبة المكان، ونصهم على أنه على البحر الأحمر، وأنه غابة نخيل، لا نصرف الذهن الى مكة، إذ نجد أن شعائر الحج فيها تشبه هذه الشعائر،

واستقاؤهم من ماء (زمزم) للتبرك به، يشبه استقاء هؤلاء من بئر معبدهم هذا، وقد أهمل أولئك الكتبة أسماء الأشهر الحرم الثلاثة، فأضاعوا علينا فرصة ثمينة كانت تساعدنا كثيرا في الوقوف على تثبيت الأشهر عن الجاهليين.

ويلاحظ أن النبط كانوا يعقدون في أثناء هذه الأشهر الحرم سوقا، تذكرنا بسوق عكاظ التي كان يعقدها أهل الحجاز. ولا شك أن موسم الحج في المعبد المذكور، الذي يتحول الى سوق للبيع والشراء، يشبه موسم الحج في مكة حيث ينقلب أيضا الى سوق.

الهـــوامـش

---

(1) تاج العروس (594/1)، (وقت).
(2) شرح النووي على صحيح مسلم (190/5 وما بعدها)، (حاشية على إرشاد الساري)، إرشاد الساري (97/3 وما بعدها).
(3) الأزرقي، أخبار مكة (121/1 وما بعدها). (4) صحيح مسلم (68/4 وما بعدها).
(5) شرح صحيح مسلم، للنووي (21/8 وما بعدها).
(6) تاج العروس (422/3 وما بعدها)، "عمر" اللسان (282/6). (7) Reste, S. 108.
(8) الأصنام (42،33).
(9) اللسان (294/4 وما بعدها). Shorter Ency. Of Islam, P. 285. (10) اللسان (297/4 وما بعدها).
(11) تاج العروس (216/3)، (دار).
(12) زاد المعاد (32/3)، (فصل في قدوم وفد بني حنيفة)، إرشاد الشاري(435/6)، (باب وفد بني حنيفة).
(13) اليعقوبي (226/1)، (أديان العرب).
(14) صحيح مسلم (2/4 وما بعدا)، (كتاب الحج) إرشاد الساري (313/3 وما بعدها)، (باب لبس الخفين للمحرم إذا لم يجد النعلين.
(15) المحبر (180). (16) المحبر (180).
(17) ابن رستة، الإعلان (191). (18) Shorter Ency. Of Islam, P. 585.
(19) صحيح البخاري (179/2) إرشاد الساري (173/3 وما بعدها) (باب الكلام في الطواف).
(20) تفسر الكبري(170/2)، البخاري(كتاب الحج، الباب 91)، (كتاب التفسير، الباب 35)، البلدان (620/4 وما بعدها)، الأزرقي (113/1) اليعقوبي (226/1)، (النجف 1964م) المحبر (178) ابن هشام (212/1) الكشاف (256/1)، شرح حماسة أبي تمام، للتبريزي (7/1) شرح المفضليات، للأنباري (259) ابن رشيق، العمدة (188/2) ابن الفقيه، مختصر كتاب البلدان (18).
(21) المحبر (178 وما بعدها). (22) المحبر (179).
(23) اليعقوبي (226/1)، (النجف 1964م). (24) الروض الأنف (133/1).
(25) الأزرقي (117/1)، اللسان (122/20)، الكشاف(60/2).
(26) الكشاف (60/2)، الأزرقي (112/1 وما بعدها). (27) صحيح مسلم (162/18).
(28) سيرة ابن هشام (133/1) حاشية على الروض.
(29) الأزرقي (115/1،117)، اللسان(129/11)، "طواف الروض (133/1)، صحيح مسلم (162/18)، تفسير الطبري (118/8)، تفسير القرطبي، الجامع (189/7). (30) الأزرقي (117/1).
(31) الأزرقي (117/1)، الطبرسي (414/3). (32) الأزرقي (114/1).
(33) تفسير القرطبي (189/7). (34) المصدر نفسه.
(35) تفسير النيسابوري (157/9)، " حاشية على تفسير الطبري"، تفسير الطبري (157/9 وما بعدها).
(36) الأزرقي (117/1) اللسان (122/20)، الكشاف (60/2).
(37) كفى حزنا كرى عليه، كأنه لقى بين أيدي الطائفين حريم الأزرقي (112/1، 114) اللسان (122/20)، النهاية في غريب الحديث (29/4)، تفسير القرطبي، الجامع (189/7).
(38) Robertson Smith. P. 751. (39) الأزرقي (114/1).
(40) الأزرقي (114/1). (41) المحبر (ص 180 وما بعدها).
(42) R. Smith. P. 751. (43) الأزرقي، أخبار مكة (111/1).
(44) الأعراف، الرقم 27 الآية 28.
(45) تفسير الطبري (114/8)، تفسير القرطبي، الجامع (187/7).
(46) الأزرقي (116/1 وما بعدها) (158/2) وما بعدها، النهاية (233/1)، شرح النووي، (180/8) وما بعدها، Ency., II, P. 335.
(47) تفسير القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (411/2)، تفسير ابن كثير (39/1).
(48) Shorter Ency. Oo Islam, P.160. (49) المحير (313).
(50) المحبر (311- 315). (51) اليعقوبي (25/1 وما بعدها).
(52) اللسان (732/1)، (لبيب).
(53) رسالة الغفران (ص 535-537).(بنت الشاطئ).

(54) البخاري، كتاب الحج، الحديث 31 وما بعده، عمدة القارئ (172/9 وما بعدها)، بلوغ الأرب (288/2)، إرشاد الساري (197/3)، (باب التلبية والتكبير إذا غدا من منى الى عرفة). (55) اليعقوبي (225/1)، (أديان العرب).
(56) الأزرقي (226/2)، مسند ابن حنبل (39/1، 42، 50، 52)، الأم للشافعي (180/2).
(57) البلدان (365/5)، (38/8)، إرشاد السارى (187/3). (58) Reste, S. 77.
(59) المحبر (311)، الأزرقي (112/1).
(60) البقرة، الآية 158، أسباب النزول (30وما بعدها)، تفسير الطبري (43/2)، (طبعة البابى 1954م).
(61) البقرة، الآية 158.
(62) تاج العروس (304/3)،(شعر)، روح المعاني (41/2 تفسير القرطبى، الجامع (114/2)، الأزرقي(74)، تفسير ابن كثير (198/1)، صحيح البخاري (414/1)، الموطأ (373/1)، إرشاد السارى (187/3).
(63) تفسير الطبري (27/2 وما بعدها)، الطبرسي (45/2) ابن كثير (188/1، 200) البخاري (414/1)، (باب 79)، الموطأ (653/1)، (371/1) (رباب 40).
(64) اللسان (295/11 وما بعدها)، (رمل).
(65) صحيح مسلم (68/4)، (باب بيان أن السعي بين الصفا والمروى ركن لا يصح الحج إلا به).
(66) راجع باب الحج في كتب الحديث والفقه.
(67) ابن هشام (77،82)، اللسان (191/7)، تاج العروس (193/6)، الروض الأنف (86/1)، الصحاح (1099/3)، البلدان (104/4).
(68) إرشاد الساري (200/3)، تفسير الطبرسي (296/2)، تفسير ابن كثير (242/1 وما بعدها)، أسباب النزول (42).
(69) البقرة، الآية 199. (70) تفسير الطبري (166/2 وما بعدها).
(71) تفسير الطبري (170/2). (72) أسباب النزول (42).
(73) قال أبو ذويب:

فبأت بجمع ثم تم الى منى فأصبح رادا يبتغي المزج بالسحل

تاج العروس (35/5)، (جمع).
(74) (وعرفات، موقف الحاج ذلك اليوم على أثنى عشر ميلا من مكة)، تاج العروس (193/6)، تفسير الطبري (114/4 وما بعدها)، أخبار مكة (115/1 وما بعدها).
(75) سورة البقرة، الآية 198، تفسير الطبري (164/2)، روح المعاني (74/2)، تفسير ابن كثير (241/1).
(76) نهاية الأرب (1؟109)، (ذكر نيران العرب)، صبح الأعشى (409/1)، الأزرقي (36، 130، 411،415)، (وستنفلد)، ابن هشام (77)، ابن سعد (72/1)، (صادر)، اللسان (138/9)، البلدان (519/4)، تاج العروس (131/6).
(77) تاج العروس (207/2)، (فزح). (78) تاج العروس (207/2)، (فزح).
(79) تاج العروس (348/10)، (منى). (80) الأزرقي (142/2).
(81) إرشاد الساري (201/3). (82) المصدر نفسه.
(83) التكوين، الإصحاح الحادي والثلاثون، (وقال لابان ليعقوب: هوذا هذه الرجمة، وهو ذا النصب الذي وضعت بيني وبينك)، الآية 51. (84) Shorter Ency., P.464, Reste, S.112
(85) النهاية (74/2) اللسان (117/15 وما بعدها) تاج العروس (304/8) وما بعدها (رجم).
(86) المشرق: السنة: السنة التاسعة والثلاثون، تموز - أيلول 1941م (246) Reste, S.111
(87) فأقسم بالذي قد كان ربي وأنصاب لدى الجمرات مغر

ابن هشام (534) المشرق، الجزء المذكور، قال حذيفة بن أنس الهذلي:

لأدركهم شعث النوامي كأنهم سواشق حجاج توافى المجمرا

اللسان (217/5).
(88) تاج العروس (107/3) (حجر) (348/10) (منى).
(89) تاج العروس (107/3) (حجر) (348/10) (منى).
(90) الأزرقي، أخبار (ص 402) (لا يبزك).
(91) اللسان (191/7) الروض الأنف (86/1) الميدان (421/1 وما بعدها) البلدان (6/3) (ثبير) البكري (335/1) (طبعةالسقا) (وأبو سيارة: عميلة بن أعزل) الحيوان (215/7) (عبد السلام محمد هارون) إرشاد الساري (210/3).
(92) تاج العروس (287/3) (سير) نهاية الأرب (36/16 وما بعدها).
(93) الحيوان (139/1).
(94) تاج العروس (169/6) (صوف) معجم الشعراء (382) ابن هشام (77/1،82).
(95) الروض الأنف (85/1) معجم الشعراء (382).
(96) المشرق، السنة التاسعة والثلاثون (1941م) (ص 259).
(97) ابن هشام (100) المشرق، السنة السابعة والثلاثون، كانون الثاني - اذار 1939م (92).
(98) نقتلهم جيلا فجيلا تراهم شعائر قربان بها يتقرب
(99) تاج العروس (303/3 وما بعدها) شعر. (100) تاج العروس (393/6) (شرق).
(101) تاج العروس (393/6) (شرق). (102) المصدر نفسه.
(103) تاج العروس (393/6) (شرق). (104) Smlth, P. 323
(105) الأصنام (ص14 البلدان (169/8) الأزرقي (73/1). (106) تاج العروس (486/3) (قرر).

(107) بلوغ الأرب (344/1 وما بعدها). (108) النهاية (442/2).
(109) اللسان (369/4) (81/6 وما بعدها) الموطأ (249/1) مسند ابن حنبل (216/1، 254، 280، 249، 334، 339 (35/6، 82،87). (110) تاج العروس (393/6) (شرق).
(111) البقرة الآية 200، تفسير الطبري (172/2 وما بعدها) تفسير الطبرسي (296/2 وما بعدها)
(112) تفسير الطبري (37/6 وما بعدها) اللسان (367/3) (قلد). (113) Shorter Ency., Of Islam, P.604, ff.
(114) المشرق، الجزء 39 (1941) (ص 250) Reste, S. 84. (115) إرشاد الساري (174/6).
(116) الروض الأنف (351/1). (117) الروض الأنف (60/2).
(118) البقرة الآية 158. (119) تفسير الطبري (120/2 وما بعدها).
(120) " وقد كان حلق الرأس، لما رأوه أمنوا، وقالوا: عمار فلا بأس علينا منهم" تفسير الطبري (202/2).
(121) اللسان (282/6) تاج العروس (422/3 وما بعدها) اللسان (604/4) (صادر) البلطان (154/4) الإقناع (234/1،397 وما بعدها).
(122) وفي الحديث أن الرسول طاف وسعى بين الصفا والمروة، هو على ظهر جمل، البخاري (66/1،211) اللسنن(37/2،39) مسلم(486/1،488) الأغاني(166/13) المشرق، السنة السابعة والثلاثون، كانون الثاني. آذار 1939م (ص87 ومابعدها)
(123) Reste, S. 109. (124) بلوغ الأرب (289/2).
(125) سورة قريش، الرقم 106 رقم الآية 3 وما بعدها، تفسير الطبري (197/30)، روح المعاني (241/30).
(126) تاج العروس (226/2) (مسح). (127) اللسان (297/12) (سلم).
(128) Dle Araber in der Alten Welt, I.S.32, f.

الباب السادس

الجذور الوثنية للحج

عن كتاب " المسكوت عنه ـ الجذور الوثنية للأديان التوحيدية ـ وليد المنسى ـ عشتروت لخدمات الطباعة ـ الطبعة الأولى 2003.

قد أكدت ثريا منقوش أن كثيرا من عادات الحج الأسلامي هي على غرار التقاليد اليمنية في تأدية فروض الحج للإله (إل مقة). هل نذكر الركن اليماني الذي قال عنه النبي محمد:" طوفوا بالبيت واستلموا الركن فإنه يمين الله في أرضه يصافح بها خلقه"؟ ويفسر لنا ذلك لماذا رفع الإسلام عن أهل اليمن الذبح والحلق. واختلطت هذه العادات اليمنية في الحج بطقوس أخرى كان يؤديها الساميون، أدغمت لاحقا في ملحمة فداء إسماعيل، فأبو الفداء والكندي يشيران الى أن العديد من طقوس الحج هي طقوس وثنية، ففي أرض كنعان انتشرت بيوت الآلهة مثل بيت إيل، بيت لحم وبيت شماس وقد اتخذت كلها شكل البناء المكعب فسميت باللسان الكنعاني بيت المعبود (كعبو)، وفرضت على أتباع المعبود الحج إليه والطواف حوله سبعة أشواط، والطواف حول المعبد شيء معروف عند الفرس والهنود والبوذيين واليهود. يقول النص التوراتي: أغسل يدي في النقاوة فأطوف بمذبحك يا رب ". مزامير 6:26.

فالحج من الطقوس الدينية المعروفة عند الساميين وتعني كلمة حج بالعبرية (احتفال) وكان يتم حول بيوت الآلهة، إذ يعتقد أن الآلهة لها بيوت تستقر فيها (كبيت اللات) في الطائف و (بيت العزي) قرب عرفات و(بيت الله) في مكة، يقول (كعب بن الأشرف) والذي تجب ملاحظة دلالة اسمه الأول الذي تنتمي جذوره الى يهود بني النضير:

وحق مريد أن تجد أنوفهم

بشتمهم حي لؤي بن غالب

وهبت نصيبي من مريد لجعدر

وفاء وبيت الله بين الأخاشب

وسميت المساجد لاحقا في الإسلام بيوت الله كنسخ متعددة للكعبة، بيت الله، وجاءت فكرة بنائها بعد العديد من سنوات البعثة الإسلامية في المدينة عندما حرم المسلمون، بسبب المقاطعة والهجرة، من العبادة في الكعبة، وزينوا عقب ذلك مآذن مساجدهم بالهلال المتماهي بقرني الكبش حول ميزاب الكعبة، و(مسجد) في بعض اللغات السامية تعني البناء الذي فيه (صنم) وكان للكعبة أصنام وقتها.

نسقت كل طقوس الحج في إطار ملحمة (إسماعيل) لتعيد إنتاج أسطورة القتل الطقسي للسلف الملك/ الإله ومأدبة التهام الرب، ففي النص القرآني:" وإذا بوأنا لإبراهيم مكان البيت أن لا تشرك بي شيئا وطهر بيتي للطائفين والقائمين والركع السجود وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتون من كل فج عميق ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقناهم من بهيمة الأنعام فكلوا منها واطعموا البائس الفقير." الحج: 26-28.

يعيد الحج الإسلامي بشكل مسرحي درامي ملحمة الجد إسماعيل التي يتقمص الحجيج شخصيته ويستعيرون أزياءه منذ البدء، فملابس الإحرام في الحج هي الملابس ذاتها التي كانت يرتديها "السلف" (إسماعيل) عندما هم بقتله طقوسيا، ففي رواية ابن عباس:" وعلى إسماعيل قميص أبيض فقال له: يا أبت إنه ليس لي ثوب تكفنني فيه غير هذا فاخلعه عني فتكفنني فيه". وترمز ملابس الإحرام الى أداء دور السلف والتوحد معه في مأساته.

يرمز السعي بين الصفا والمروة الى التوحد مع السلف في مأساته الأخرى، (فهاجر) قد جرت سبعة أشواط ما بين المكان الذي تركت فيه (إسماعيل) وبين مكان آخر كلما وصلت إليه بحثا عن الماء تذكرت ابنها (إسماعيل) فرجعت إليه حتى تدفقت بئر زمزم، وطقس (التروية) في الحج ما هو إلا إعادة لهذه الملحمة. وكان السعي بين الصفا والمروة من طقوس الحج في الجاهلية، وكان عليهما صنمان هما (أساف) و(نائلة)، وكان طواف قريش

بهما قدر طوافهم بالكعبة، سبعة أشواط، ولما قدم الأنصار مع النبي للحج كرهوا الطواف بين الصفا والمروة وقال قوم من المسلمين:" يا رسول الله لا نطوف بين الصفا والمروة، فإنه شرك كنا نصنعه في الجاهلية" فجاء النص القرآني: إن الصفا والمروة، من شعائر الله".

من طقوس الحج الجاهلي، الإسلامي لاحقا، الوقوف بجبل عرفة، والمُدهش أنه كان يسمى قديما على اسم الإله الكبش (إل)، وقال العامري في وقوفهم في الجاهلية:

فأقسم بالذي حجت قريش   وموقف ذي الحجيج الى إلال

ولما رأى أحد الصحابة النبي (محمد) واقفا بعرفة عجب من شأنه وأنكر منه ما رأى فنزل النص القرآني:" ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس واستغفروا الله أن الله غفور رحيم".

وكانت قريش لا تفيض من عرفة كباقي القبائل إنما تفيض من (جمع) من المشعر الحرام وجمع من المزدلفة، قال أبو ذؤيب:

فبات يجمع ثم تم الى منى   فأصبح يبتغي المزج بالسحل

ويرتبط رمي الجمرات بمنى بحادثة الكبش الذي فدى به "إسماعيل" قال ابن عباس:" خرج عليه كبش من الجنة قد رعاها قبل ذلك أربعين خريفا فأرسل إبراهيم ابنه فاتبع الكبش فأخرجه الى الجمرة الأولى فرماه بسبع حصيات، فأفلته عندها، فجاء الجمرة الوسطى، فأخرجه عندها، فرماه بسبع حصيات ثم أفلته، فأدركه عند الجمرة الكبرى، فرماه بسبع حصيات فأخرجه عندها، ثم أخذه الى المنحر من منى فذبحه" وقد ارتبط الحجر بالشيطان في عدد من الديانات الوثنية.

لقد أعيد إنتاج القتل الطقسي الموؤود للسلف في أضحية سنوية تلازم طقوس النحر في الحج، (مأدبة التهام الرب) وتحول القربان البشري للسلف الى أضحية هي الإحتفال الأعظم في الإسلام، تتجسد به وتقتبس طقوس نحرها منه، فمن شروط الأضحية في الإسلام أن يكون الكبش في كامل صحته الجسدية، تماما كالملك الإله الذي كان يضحى به، وأن يكون سليم (القرن) مطابقا لشروط النحر في عيد الفصح اليهودي، ومشابها لحالة المسيح الجسدية "حمل الله" وقت صلبه. " لا تذبح للرب إلهك ثورا أو شاة فيها عيب شيء ما رديء لأن ذلك رجس لدى رب إلهك". تثنية 1:17.

يرتبط نحر الكبش في عيد الفصح اليهودي بالتوبة والغفران تماما كالتوبة التي قدمها المسيح " حمل الله" للعالم بيسوع المصلوب لرفع الخطيئة عن العالم، وتماما كالتوبة ورفع الذنوب للحاج في الحج الإسلامي، وكان اليهود يعتقدون أن العالم قد خلق في مأدبة الأبواق في رأس السنة اليهودية، وأن رأس السنة هي دعوة للإستغفار والتوبة يعلن عنها بالصفارة وهي بالعبرية (شفار) (Shafar)، والصفارة تصنع من (قرن الكبش)، ويرمز النفخ بالصفارة الى عودة مملكة الله، وكان بعض اليهود يعتقدون أن النفخ في القرن يسبق إحياء المسيح القادم للموتى ونجد المفهوم ذاته في المسيحية، ففي نصوص الإنجيل:" في لحظة في طرفة عين عند البوق الأخيرة فإنه سيبوق فيقام الأموات". رسالة بولس الأولى لأهل كورنثوس 15:52-53.

وقد ارتبطت القيامة، وهي إحياء الموتى في الإسلام، بالنفخ في (القرن) ففي النص القرآني " ونفخ في الصور ذلك يوم الوعيد" ق:20.

وقد شرعت الأضحية في السنة الثانية بعد الهجرة، في اليوم الذي تحفظ فيه أضحية الفصح اليهودي ذاته، ويجوز ذبحها في أي يوم من أيام التشريق، ويجوز ذبحها في اليوم الرابع أيضا، لتتلاقى مع اليوم الذي صلب فيه المسيح، ففي التوراة:" كلما كل جماعة إسرائيل قائلين في العاشر من هذا الشهر يأخذون كل واحد لهم شاة، حسب بيوت الآباء. تكون لكم شاة صحيحة ذكر ابن سنة تأخذونه من الخرفان أو من المواعز، ويكون عندكم تحت الحفظ الى اليوم الرابع عشر من هذا الشهر". خروج 12:2-4.

وفي الإنجيل:" وكان استعداد الفصح ونحو الساعة السادسة، فقال لليهود هو ذا ملككم فصرخوا خذه خذه أصلبه". يوحنا 19:14-15.

وقد كان محرم شهر الأضحية أو الوليمة الكبرى في الجاهلية بإعتباره أول الشهور في السنة العربية، تماما كشهر تشري، الشهر الأول من السنة العبرية الذي يقام فيه عيد الفصح، وقد حور الإسلام شهر الأضحية الى ذي الحجة

الشهر الأخير من السنة العربية ليلاقي طقوس الحج وليتميز عن نسخ شهر الأضحية العبري متراجعا للشهر الذي قبله تماما كتراجع العطلة الأسبوعية من السبت الى الجمعة وتحويل الكعبة من القدس الى الكعبة عندما اشتدت العداوة بين اليهودية الديانة الجديدة.

الباب السابع

الشعائر التعبدية الموروثة من القبائل العربية كما جاءت في كتاب الجذور التاريخية للشريعة الإسلامية للشيخ خليل عبد الكريم

الشعائر التعبدية الموروثة من القبائل العربية:

وتبدأ بـ [الناحية التعبدية] أو [الشعائر التعبدية]:

1- تعظيم البيت الحرام [الكعبة] والبلد الحرام:

على الرغم من وجود إحدى وعشرين كعبة ـ قبل الإسلام ـ في جزيرة العرب فإن القبائل العربية قاطبة أجمعت على تقديس [كعبة مكة] وحرصت أشد الحرص على الحج إليها، يستوى في ذلك من القبائل من كانت لديه كعبة خاصة مثل غطفان أم لأ:

فأقسمت بالبيت الذي طاف حوله رجال بنوه من قريش وجرهم (1)

بل إن الأخبار وردت أن عددا من القبائل إنتشرت بين أبنائها اليهودية والنصرانية ومع ذلك كانت تشارك في موسم الحج، ومن شدة تقديسهم للكعبة أن الرجل منهم كان يرى قاتل أبيه في البيت الحرام فلا يمسه بسوء، وقال إبن الكلبي في كتابه [الأصنام] كان العرب يعظمون الكعبة ومكة ويسيرون على إرث أبيهم إسماعيل من تعظيم الكعبة والحج والإعتمار.

وكان العرب يجلون أهل مكة [قريشا] ويكبرونهم ويسمونهم [أهل الحرم] وكان الإصهار إليهم يعتبر شرفا لا يتطاول إليه إلا بعض شيوخ القبائل وأهل الرفعة فيهم.

وجاء الإسلام فأبقى على تقديس الكعبة ومكة وأطلق عليهما القرآن الكريم العديد من ألقاب التشريف المعروفة والتي لا نرى موجبا لذكرها وجعلها كما كانت أمنا وأمانا {ومن دخله كان آمنا} (2) كذلك إعتبر الإنتساب الى قريش هو الذؤابة العليا في المكانة والشرف حتى إن بعض المذاهب الفقهية تبيح طلاق القرشية وخاصة الهاشمية إذا تزوجت من غير قرشي [هاشمي] لعدم الكفاءة.

[ولا تكون العرب كفؤا لقريش والموالي لا يكونون كفؤا للعرب كما قال (ص) (3) و[خطب سلمان بنت عمر رضي الله عنه فهم أن يزوجها منه ثم لم يتفق ذلك] (4). وسلمان المذكور هو سلمان الفارسي رضي الله عنه أحد كبار الصحابة وموضع رضى الرسول (ص) وكان يقول: [سلمان منا آل البيت] ولكن ذلك كله لم يشفع له و[لم يتفق] له أن تزوج بنت عمر بن الخطاب رضي الله عنه لأنه ليس عربيا وليس قرشيا.

2- الحج والعمرة:

كان العرب ـ قبل الإسلام ـ يحجون في شهر ذي الحجة من كل عام [يرحلون إليها الى مكة من كل مكان من الجزيرة في موسم الحج من كل عام لتأدية فريضة الحج] (5).

وكانوا يقومون بالمناسك عينها التي يقوم بها المسلمون حتى اليوم: التلبية [مع وجود بعض عبارات فيها شرك بالله تبارك وتالى] والإحرام وإرتداء ملابس الإحرام وسوق الهدى وإشعاره والوقوف بعرفة والدفع الى مزدلفة والتوجه الى منى لرمي الجمرات ونحر الهدى والطواف حول الكعبة [أيضا] سبعة أشواط [لم تزد أو تنقص في الإسلام] وتقبيل الحجر الأسود [تعظيما له] والسعي بين الصفا والمروة، وكانوا أيضا يسمون اليوم الثامن من ذي الحجة [يوم التروية] ويقفون بعرفات في التاسع وتبدأ من العاشر أيام منى ورمي الجمار وكانوا [أيضا] يسمونها [أيام التشريق] كما كانوا يعتمرون في غير أشهر الحج.

وجاء الإسلام وورث من العرب [قبله]هذه الفريضة بالمناسك عينها والتسميات نفسها، ولكنه طهرها من مظاهر الشرك مثل العبارات التي كانت تتضمنها التلبية عندهم ـ ونهى [الإسلام] عن طواف العرايا وكان بعض العرب يفعل ذلك من باب الإنحلال الخلقي كما يحاول أن يوهم بعض [الدعاة]، ولكنهم لشدة تقديسهم للكعبة ولحجرها الأسود يهابون أن يطوفوا بها [= بالكعبة] أو يقبلوه [= الحجر الأسود] بالثياب التي قارفوا فيها ذنوبا أو أفعالا لا تناسب مقامهما وكان بعضهم يشتري من القرشيين ثيابا يطوف بها بإعتبار أنهم [= أبناء قريش] من [الحمس] ـ بضم الحاء وسكون الميم ـ أي المتطهرين والمتشددين في العبادة.

3- تقديس شهر رمضان:

آيات الذكر الحكيم التي ترفع من شأن شهر رمضان وتعلي من قدره مشهورة ومعروفة {شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس} (6) وفيه {ليلة القدر خير من ألف شهر} (7) ـ وتقديس هذا الشهر [الفضيل] مما ورثه الإسلام عن العرب ـ معدن الإسلام ومادته ـ فقد كان المتحنفون ـ سوف نتحدث عنهم فيما بعد ـ يفعلون ذلك ومنهم عبد المطلب جد النبي العربي محمد (ص) إذ نقل إلينا الإخباريون أنه إذا جاء رمضان شد مئزره وطلع الى [غار حراء] وتحنث فيه وأمر بإطعام المساكين طوال الشهر وكذلك زيد بن عمرو بن نفيل (عم الفاروق عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه) وهو أيضا أحد الحنفاء (8).

4- تحريم الأشهر الحرام:

كانت العرب قاطبة تعتبر أشهر ذي القعدة وذي الحجة ومحرم ورجب أشهرا حرما لأنها الأشهر التي يقع فيها موسم الحج الى أكبر الكعبات وأقدسها كعبة مكة وهي [ذو القعدة وذو الحجة والمحرم] أما رجب فهو شهر العمرة فهي ثلاثة سرد وواحد فرد وقيل إن سبب التسمية أن العرب كانت لا تستحل القتال فيها إلا حيَّان خثعم وطيئ فإنهما كانا يستحلانه في الشهور كلها.

وكان القتال كثيرا ما ينشب بين القبائل لأسباب عديدة منها إعتباره كمورد رزق وكان يسمى الغزو أو الغارة وهو من العلامات المميزة للحياة القبلية ـ فإتخذت الأشهر الأربعة المذكورة فرصة لوقف القتال ولأداء الحج والعمرة ـ ولما جاء الإسلام أبقى على شعيرة تحريم هذه الأشهر بذاتها وحرم القتال فيها {يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير} (9) و{يا أيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله ولا الشهر الحرام} (10) ومازلنا حتى الآن نسمع عن [الرجبية] وهي العمرة التي تتم في شهر رجب، الذي كان يسميه العرب [الفرد] وهذه التسمية أيضا ما زالت معروفة.

5- تعظيم إبراهيم وإسماعيل (عليهما السلام):

يحكى العرب أن أول من تكلم بالعربية من ولد إبراهيم هو إسماعيل حين أتى مكة ونزل بجرهم فانطقه الله بكلامهم وكان كلامهم العربية و [قال هشام وسمت العرب إسماعيل " عرق الثرى" يريدون أنه راسخ ممتد وقال قوم سمي بذلك لأن أباه لم تضره النار كما لا تضر الثرى] (11).

لما جاء الإسلام أقر تعظيم إسماعيل (عليه السلام) ففي سنن إبن ماجة في كتاب الجهاد [رميا بني إسماعيل فإن أباكم كان راميا]؛ وفي القرآن الكريم { واذكر في الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد} (12).

كذلك كان العرب الأقدمون يعتقدون أن إبراهيم وإسماعيل ـ عليهما السلام ـ هما اللذان أقاما بناء الكعبة في مكة المكرمة وفرضا لهم الحج [وهم بعد يعظمون الكعبة ويسيرون على إرث إبراهيم وإسماعيل] (13) أي العرب الأقدمون السابقون على ظهور الإسلام، وسبق أن ذكرنا أن الكلبي في كتابه [الأصنام] أخبر أنهم كانوا يعظمون الكعبة ويحجون ويعتمرون على إرث أبيهم إسماعيل (عليه السلام) فلما جاء الإسلام تبنى إعتقاد بناء إبراهيم وإسماعيل (عليهما السلام) لكعبة مكة {وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل} (14) بل إن مقام إبراهيم الذي يحتوي على قدم إبراهيم التي إنطبعت في الحجر أثناء بناء الكعبة ـ هذا المقام ـ موضع تقديس من المسلمين إذ يسن للحاج أن يصلي عنده ركعتين بعد فراغه من طواف القدوم {وإتخذوا من مقام إبراهيم مصلى} (15) وهذه الآية إحدى آيات ثلاث نزلت بموافقة [أي بإقتراح] من عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) [عن أنس قال: قال عمر وافقت ربي في ثلاث ووافقني ربي في ثلاث، قلت يا رسول الله " لو اتخذنا مقام إبراهيم مصلى" فأنزل الله " وإتخذوا من مقام إبراهيم مصلى" (16) والذي لا نشك فيه أن إقتراح [يسميه الإمام أبو الفرج الجوزي موافقة] عمر

بن الخطاب (رضي الله عنه) نابع مما ورثه قبل الإسلام من العرب من تعظيم الجد إبراهيم (عليه السلام) ومن تقديس البيت الحرام والكعبة.

6- الإجتماع العام .... يوم الجمعة:

[قال أبو سلمة: أول من قال أما بعد كعب بن لؤي وكان أول من سمى الجمعة: جمعة، وكان يقال لـ (يوم الجمعة) (يوم العروبة)] (17) ولما جاء الإسلام أخذ الأنصار في يثرب ـ المدينة فيما بعد ـ بهذا التقليد، وقيل إن أول من جمَّع بالمسلمين في المدينة هو أسعد بن زرارة (رضي الله عنه) وقيل إنه مصعب بن عمير (رضي الله عنه) ولما هاجر الرسول (ص) من مكة أدركته الجمعة في بني سالم بن عوف في بطن واد لهم إتخذوا في موضع منه مسجدا فجَّمع به الرسول (ص) وخطب أول خطبة له بالمدينة (18) ثم نزل قول الله تبارك وتعالى **{**يا أيها الذين آمنوا إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا الى ذكر الله وذروا البيع إن كنتم تعلمون**}** (19).

هذه بعض الشعائر [الدينية] أو [التعبدية] التي إستعارها الإسلام من القبائل العربية وسوف نذكر في فصل قادم خصصناه لـ [الحنيفية] شعائر دينية أخرى إنتقلت من المتحنفين [معتنقي الحنيفية] الى الإسلام أو إذا شئت قلت إن الإسلام وافق عرب ما قبله ووافق [الحنفاء] في تلك الشعائر كما وافق الله جل شأنه عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) في ثلاثة مواضع أنزل فيها ثلاث آيات، وفي بعض الشعائر عدَّل الإسلام من الشعائر [الدينية] التي كانت سائدة لدى العرب سابقيه حتى تتواءم وعقيدة التوحيد جوهر الرسالة المحمدية ولكن هذا التعديل أو التحوير لا يطمس المعالم الرئيسية لتلك الشعائر ولا يمحو فضل من جاءوا بها.

الهــوامــش

(1) زهير بن أبي سلمى في معلقته، توفي سنة 54 ق.هـ (قبل الهجرة).
(2) " **القرآن الكريم**"، سورة آل عمران الآية /97.
(3) شمس الدين السرخسي (أحد أئمة الفقه الحنفي)، في " المبسوط" المجلد الثالث "باب النكاح البكر، باب الأكفاء" ص 24، طبعة 406 هـ/1986 م دار المعرفة بيروت.
(4) المرجع نفسه ص 22.
(5) د. علي حسني الخربوكلي " **الكعبة على مر العصور**" ص24، عدد إقرأ 291 مارس 1967. دار المعارف بمصر.
(6) " **القرآن الكريم**"، سورة البقرة الآية/185. (7) " **القرآن الكريم**"، سورة القدر الآية/3.
(8) د. سيد محمود القمنى "دور الحزب الهاشمي والعقيدة الحينفية في التمهيد لقيام دولة العرب الإسلامية " ص66 ، الطبعة الأولى 1990م، دار سينا للنشر.
(9) " **القرآن الكريم**"، سورة البقرة الآية/194. (10) " **القرآن الكريم**"، سورة المائدة الآية/ 5.
(11) البلاذري في " **أنساب الأشراف** "- الجزء الأول ص 6، تحقيق د/محمد حميد الله، طبع دار المعارف بمصر 1959م.
(12) " **القرآن الكريم**"، سورة مريم الآية/54.
(13) د. محمد إبراهيم الفيومي " **الفكر الديني الجاهلي** " ص 22، الطبعة الأولى 1983 دار المعارف بمصر.
(14) " **القرآن الكريم**"، سورة سورة البقرة الآية/127. (15) " **القرآن الكريم**"، سورة البقرة الآية/125.
(16) الحافظ الإمام أبو الفرج الجوزي ت 597 هـ " **تاريخ عمر بن الخطاب** "، قدم له وعلق عليه أسامة عبد الكريم الرفاعي ص32، بدون تاريخ، الناشر مكتبة السلام العالمية، الفلكي - القاهرة.
(17) القرطبي في " **الجامع لأحكام القرآن** " في تفسير سورة الجمعة. (18) المرجع السابق.
(19) " **القرآن الكريم**"، سورة الجمعة الآية/9.

الباب الثامن

هل محمد نبى الإسلام
من نسل إسماعيل؟

لا يوجد دليل واحد على هذا الإدعاء لأنه لا يوجد سند متصل متفق عليه ومًثبت تاريخيا أن عدنان جد النبي من نسل إسماعيل بل إن الإختلافات تتراوح بين أربعة أجيال الى أربعين جيلا كما يتضح مما يلي:

1- ما جاء فى البداية والنهاية لإبن كثير:

قال الحافظ (ابن كثير) في كتابه (البداية والنهاية) -(ج2):

خبر عدنان جد عرب الحجاز:

لاخلاف أن عدنان من سلالة إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليهما السلام واختلفوا في عدة الآباء بينه وبين إسماعيل على أقوال كثيرة فأكثر ما قيل أربعون أبا وهو الموجود عند أهل الكتاب أخذوه من كتاب رخيا كاتب أرميا بن حلقيا وقيل بينهما ثلاثون وقيل عشرون وقيل خمسة عشر وقيل عشرة وقيل تسعة وقيل سبعة وقيل إن أقل ما قيل في ذلك أربعة لما رواه موسى بن يعقوب عن عبد الله بن وهب بن زمعة الزمعي عن عمته عن أم سلمة عن النبي (ص) أنه قال:" معد بن عدنان أدد بن زند بن اليرى بن اعراق الثرى".

قالت: أم سلمة فـ (زند) هو الهميسع واليرى هو نابت وإعراق الثرى هو إسماعيل لأنه ابن إبراهيم وإبراهيم لم تأكله النار كما أن النار لا تأكل الثرى.

قال الدارقطني: لا نعرف زندا إلا في هذا الحديث وزند بن الجون وهو أبو دلامة الشاعر: قال الحافظ أبو القاسم السهيلي وغيره من الأئمة: مدة ما بين عدنان الى زمن إسماعيل أكثر من أن يكون بينهما أربعة أباء أو عشرة أو عشرون وذلك أن معد بن عدنان كان عمره زمن بخت نصر اثنتي عشرة سنة. وقد ذكر أبو جعفر الطبري وغيره أن الله تعالى أوحي في ذلك الزمان الى أرمياء بن حلقيا أن أذهب الى بخت نصر فأعلمه أني قد سلطته على العرب وأمر الله أرميا أن يحمل معه معد بن عدنان على البراق كي لا تصيبه النقمة فيهم فإني مستخرج من صلبه نبيا كريما أختم به الرسل ففعل أرميا ذلك واحتمل معدا على البراق الى أرض الشام فنشأ مع بني إسرائيل ممن بقي منهم بعد خراب بيت المقدس وتزوج هناك إمرأة إسمها معانة بنت جوشن من بني دب بن جرهم قبل أن يرجع الى بلاده ثم عاد بعد أن هدأت الفتن وتمحضت جزيرة العرب وكان رخيا كاتب أرمياء قد كتب نسبه في كتاب عنده ليكون في خزانة أرمياء فيحفظ نسب معد كذلك والله أعلم.

ولهذا كره مالك رحمه الله رفع النسب الى ما بعد عدنان.

قال السهيلي: وإنما تكلمنا في رفع هذه الأنساب على مذهب من يرى ذلك ولم يكرهه كإبن إسحاق والبخاري والزبير بن بكار والطبري وغيرهم من العلماء، وأما مالك رحمه الله فقد سئل عن الرجل يرفع نسبه الى آدم فكره ذلك، وقال له من أين له علم ذلك فقيل له فإلى إسماعيل فأنكر ذلك أيضا وقال ومن يخبره به وكره أيضا أن يرفع في نسب الأنبياء مثل أن يقال إبراهيم بن فلان بن فلان هكذا ذكره المعيطي في كتابه.

قال: وقول مالك هذا نحو مما روى عن عروة بن الزبير أنه قال ما وجدنا أحدا يعرف ما بين عدنان وإسماعيل، وعن ابن عباس أنه قال بين عدنان وإسماعيل ثلاثون أبا لا يعرفون وروي عن ابن عباس أيضا أنه كان إذا بلغ عدنان يقول كذب النسابون مرتين أو ثلاثا والأصح عن ابن مسعود مثله. وقال عمر بن الخطاب إنما تنسب الى عدنان، وقال أبو عمر بن عبد البر في كتابه الأنباه في معرفة قبائل الرواة: روى ابن لهيعة (1) عن أبي الأسود أنه سمع عروة بن الزبير يقول ما وجدنا أحدا يعرف ما وراء عدنان ولا ما وراء قحطان إلا تخرصا، وقال أبو الأسود: سمعت أبا بكر بن سليمان بن أبي خيثمة وكان من أعلم قريش بأشعارهم وأنسابهم يقول ما وجدنا أحد يعرف ما وراء معد بن عدنان في شعر شاعر ولا علم عالم.

قال أبو عمر: وكان قوم من السلف منهم عبد الله بن مسعود وعمرو بن ميمون الأزدي ومحمد بن كعب القرظي إذا تلوا (والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله) قالوا: كذب النسابون.

قال أبو عمر رحمه الله: والمعنى عندنا في هذا غير ما ذهبوا والمراد أن من ادعى احصاء بني آدم فإنهم لا يعلمهم إلا الله الذي خلقهم، وأما أنساب العرب فإن أهل العلم بأيامها وأنسابها قد وعوا وحفظوا جماهيرها وأمهات قبائلها، واختلفوا في بعض فروع ذلك.

قال أبو عمر: والذي عليه أئمة هذا الشأن في نسب عدنان قالوا عدنان بن أدد بن مقوم بن ناحور بن تيرح بن يعرب بن يشجب بن نابت (2) بن إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليهما السلام وهكذا ذكره محمد بن إسحاق بن يسار في السير.

قال ابن هشام: ويقال عدنان بن أد يعني عدنان بن أد بن أدد (3) ثم ساق أبو عمر بقية النسب ال آدم.

2- ما جاء في مروج الذهب للمسعودي - الجزء الثاني:

في ذكر مولد النبي (ص) ونسبه وغير ذلك مما لحق بهذا الباب

قد ذكرنا فيما سلف من كتبنا بدء التاريخ في خلق العالم وأخبار الأنبياء والملوك وعجائب البر والبحر وجوامع التاريخ للفُرس، والروم والقبط وشهور الروم والقبط وما كان من مولد النبي (ص) الى مبعثه ومن آمن به قبل رسالته؛ وقد قدمنا في هذا الكتاب من كان بينه وبين المسيح عليه السلام من أهل الفترة؛ فلنذكر الآن مولده إذ كان الطاهر المطهر الأغر، الأزهر الذي اتسعت أعلام نبوته وتواترت دلائل رسالته، ونطقت الشهادات له قبل مبعثه.

هو (4) محمد بن عبد الله بن عبد المَطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قُصيّ بن مُرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فِهر بن مالك بن النَّضر بن كِنانة بن خُزيمة بن مُدركة بن إلياس بن مَضر بن نزار بن معد بن عدنان بن أدد بن [مقوم بن] ناخور بن تيرح بن يعرُب بن يشجُب بن نابت (5) بن إسماعيل بن إبراهيم خليل الرحمن ابن تارح وهو آزر بن ناخور بن ساروغ بن أرعو (6) بن فالغ (7) بن عابر (8) بن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح بن لمك بن متُّوشلخ بن أخنون بن يرد بن مهلائيل بن قينان بن أنوش (9) بن شين بن آدم عليه السلام؛ هذا ما نسخه ابن هشام في كتاب المغازي والسير عن ابن إسحاق.

[والنسخ مختلفة الأسماء في النسب من نزار وفي نسخة محمد بن زكرياء الغلابي البصري هو [نزار] (10) بن معد بن عدنان بن أدد بن سام (كذا) بن يشجُب بن يعرُب بن الهَمَيسَع بن صانوع بن يامد بن قيدر بن إسماعيل بن إبراهيم بن تارح بن ناخور بن أرعو بن أسروج بن فالغ بن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح بن متوشلخ بن أخنون بن مهلائيل بن قينان بن أنوش بن شيث بن آدم؛ وفي رواية ابن الأعرابي عن هشام بن محمد الكلبي هو نزار بن معد بن عدنان بن أد بن أدد بن الهميسع بن نبت بن سلامان بن قيدر بن إسماعيل بن إبراهيم الخليل بن تارح بن ناخور بن أرعو بن بن فالغ بن عابر بن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح بن لمك بن متوشلح بن أخنون بن يرد بن مهلائيل بن قينان بن أنوش بن شيث بن آدم عليه السلام.

وفي التوراة أن آدم عليه السلام عاش تسعمائة سنة وثلاثين سنة؛ فيجب - والله أعلم - أن آدم كان عند مولد لمك - وهو أبو نوح عليه السلام - ابن ثمانمائة سنة وأربع وسبعين سنة، وشيت ابن سبعمائة وأربع وأربعين سنة؛ فيجب على هذا الوصف من الحساب أن مولد نوح عليه السلام كان بعد وفاة آدم بمائة وست وعشرين سنة؛ وقد نهى النبي (ص)، على حَسَب ما ذكرنا من نهيه، أن يتجاوز عن معد؛ فقد ثبت أن يُوقف في النسب على معد فقط؛ وقد اختلف أهل النسب على ما ذكرنا، فالواجب التوقف عند أمره عليه الصلاة والسلام، ونهيه.

وقد وجدت نسب معد بن عدنان في السفر الذي أثبته باروخ بن ناريا كاتب إرمياء النبي أنه معد بن عدنان بن أدد بن الهميسع بن سلامان بن عوص بن برز بن متساويل بن أبي العوام بن ناسل بن حرا بن يلدارم بن بدلان بن كالح بن فاجم بن ناخور بن ماحي بن عسقى بن عنف بن عبيد بن الرعا بن حمران بن يسن بن هرى بن بحرى بن يلخى بن أرعو بن عيفاء بن حسان بن عيسى بن افتاد بن ايهام بن مُعصر بن ناجب بن رزاح بن سماي بن مر بن عوس بن عوام بن قيدر بن إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليه السلام؛ وقد كان لإرمياء مع معد بن عدنان أخبار يطول ذكرها وما كان من أمرهما بالشام، وقد أتينا على ذكر ذلك فيما سلف من كتبنا؛ وإنما ذكرنا هذا النسب من هذا الوجه ليُعلم تنازُع الناس في ذلك؛ فلذلك نهى النبي (ص) على تجاوز معد لعلمه من تباعُد الأنساب وكثرة الآراء في طول هذه الأعصار].

3- وفي كتاب " شقيقات قريش" لفاضل الربيعي تأكيد لهذا المعنى: ص 51:

نصُ الشامي

(سُبل الهُدى والرشاد في سيرة خير العباد) لزمام محمد ابن يوسف الصالحي الشامي، ت 942 هـ.

" روي ابن سعد أن النبي (ص) كان إذا انتسب لم يجاوز في نسبه معد بن عدنان بن أد ثم يمسك ثم يقول: كذب النسابون. وقال ابن عباس (رض): لو شاء رسول الله (ص) أن يعلمه لعَلِمَهُ".

ويمضي الأستاذ فاضل الربيعي في بحثه ص 125 فينسب تاريخ العرب لأبناء إسماعيل.

لدينا، هنا، أربع قوائم تتضمن أسماء أبناء إسماعيل (ابن الأثير: 88:1 ط لايدن الكامل، الأزرقي:81:1، الفاكهي: 13:1 والتوراة). وهي قوائم نموذجية قمنا بإختيارها من بين قوائم عدة وردت في الموارد العربية والإسلامية؛ لنكشف نمط التصحيف الفظيع الذي طاول هذه الأسماء:

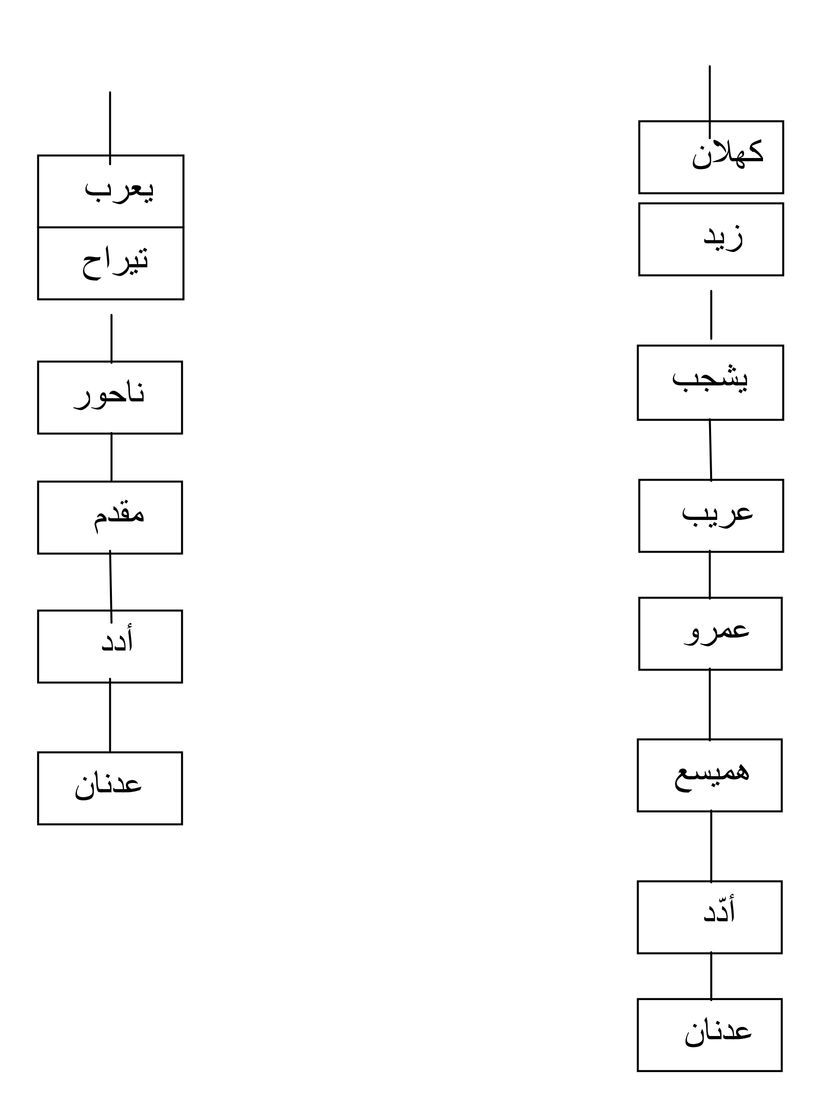
	الفاكهي (أخبار مكة)	ابن الأثير (الكامل)	الأزرقي (أخبار مكة)	التوراة (تكوين)
1	نابت	نابت	نابت	نبايوت
2	قيدور	قيدار	قيدار	قيدار
3	الذيل	أذيل	واصل	أدْبئيل
4	منَّشا	ميشا	مياس	مسّا
5	مسمع	مسمع	-	مشماع
6	دومها	رمّا	-	دومة
7	ناس	ماش	-	مبسام
8	أُدد	آذر	آزر	حدّار
9	مُصَّور	قطورا	يَطور	يَطور
10	تيش	قافس	نبش	نافش
11	قيدم	قيدما	قيدما	قدمة
12	-	قدمان	طميا	تيما

يوضح هذا النموذج نمط الفوضى التي عصفت بأسماء القبائل الإسماعيلية الجديدة من العرب المُستعَربة؛ حيث إنها غدت، في نظر بعض كُتاب التاريخ، كدليل على مُختَلقات الإخباريين العرب.

أيضا في كتاب " شقيقات قريش" نرى التخبط في أسماء أنساب عدنان كما هو واضح في القائمتين التاليتين:

نسب عدنان **نسب إسماعيل حسب قائمة الأنساب العربية**





4- بحسب أقوال ابن الأثير وابن الكلبي والطبري:

" أوجز ما يقال عن نسب عدنان هو ما أورده " ابن الأثير" في كتابه " الكامل" حيث قال: ولعدنان أخوان يدعى أحدهما نبتا والآخر عامرا، فنسب النبي (ص) لا يختلف الناسبون فيه الى معد بن عدنان، على ما ذكرت ويختلفون فيما بعد ذلك اختلافا عظيما لا يحصل منه على غرض، فتارة يجعل بعضهم بين عدنان وبين إسماعيل عليه السلام، أربعة آباء ويجعل آخر بينهما أربعين أبا ويختلفون أيضا في الأسماء أشد من اختلافهم في العدد، فحيث رأيت الأمر كذلك لم أعرج على ذكر شيء منه، ومنهم من يروي عن النبي (ص) نسبه حديثا يصله بإسماعيل، ولا يصح في ذلك الحديث". 2/23 الكامل لابن الأثير.

وواقع الأمر أن الإختلاف في نسب عدنان أكبر بكثير مما ذكره " ابن الأثير" فقد أفرد " الطبري " وحده في تاريخه ست صفحات لأكثر من عشر روايات زاد عدد الأسماء في بعضها عن الأربعين اسما بكثير وعليه فإن العبارة التي قالها " ابن الأثير!":" ويختلفون فيما بعد ذلك اختلافا عظيما لا يحصل منه على غرض " تلخص اللا جدوى من محاولة ربط نسب عدنان بإسماعيل". 2/23 الكامل لابن الأثير.

ويدعم هذه المقولة ما ورد في صدر كتاب " جمهرة النسب" لابن الكلبي": " أخبرنا محمد بن حبيب عن هشام بن محمد بن السائب عن أبيه عن أبي صالح عن ابن عباس قال: كان الرسول (ص) إذا انتهى في النسب الى معد بن عدنان أمسك ثم قال: كذب النسابون، قال الله جل ثناؤه وقرونا بين ذلك كثيرا قال ابن عباس: لو شاء رسول الله أن يعلمه لعلمه ".

وهذا يعني أن " ابن الكلبي" الذي هو أشهر نسابة على الإطلاق تمسك بما ورد في الحديث، ورفض أن يخوض في غمار نسب عدنان، كما يتضح أن المحاولات لوصل عدنان بإسماعيل جرت في النصف الثاني من القرن الثاني وبطرق واهية، فقد أورد " ابن سعد" في طبقاته ما يلي " قال هشام: وأخبرني مخبر عن أبي ولم أسمعه منه أنه كان ينسب معد بن عدنان بن أدد بن الهميسع .. الخ" 1/56 ابن سعد.

والإسناد نفسه اعتمده " الطبري " حيث قال: " حدثني الحارث عن محمد بن سعد عن هشام قال أخبرني مخبر ولم أسمعه منه أنه كان ينسب معد .. الخ" 2/272 طبري.

فـ "هشام بن محمد بن السائب الكلبي" لم يسمع النسب من أبيه بل أخبره به مخبر ولم يكشف عن اسمه، والسؤال هو: كيف لم يسمع " هشام بن محمد" من أبيه نسب "عدنان" على ماله من أهمية وهو الذي احتكر النقل عن أبيه وسمعه شخص مجهول؟.

نخرج من هذا كله أن جميع المحاولات لوصل عدنان بإسماعيل مضطربة وواهية، ولا تقوم على أي سند متماسك، فمن هو "عدنان" إذن؟.

كل ما يمكن الإعتماد عليه في نسب عدنان هو اسم أبيه وجده فقط فقد أورد "ابن الكلبي" ما يلي:" ولد أدد بن زيد: عدنان ونبت، ونبت هو الأشعر أبو الأشعريين، وعمرا "والواقع أن معظم الروايات التي أوردت نسبا لعدنان تتقاطع عند هذا الجزء من النسب فقط أي: عدنان بن أدد بن زيد.

وبين كل أعمدة النسب الموجودة بين أيدينا لا نجد إلا شخصا واحدا اسمه " أدد بن زيد" وهو " أدد بن زيد بن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان بن سبا بن يشجب بن يعرب بن قحطان" " وقد أورد ابن الكلبي أن لـ" عدنان" أخا اسمه نبت وهو الأشعر، وحين نرجع الى نسب " نبت الأشعر" نجد أنه ابن " أدد بن زيد بن يشجب بن عريب بن يزيد بن كهلان بن سبا بن يشجب بن يعرب بن قحطان" وعليه فإن عدنان هو ابن أدد المذكور وبما أنه أخو الأشعر فهو بالتالي أخو مرة ومذحج وطيء إخوة الأشعر.

وجدير بالذكر أيضا أن الإسمين " يشجب ويعرب" الواردين في نسب " الأشعر" يتكرران في معظم أعمدة النسب المضطربة التي وضعت كمحاولة لوصل عدنان بإسماعيل.

5- بحسب ما جاء في السيرة النبوية إبن إسحق/ابن هشام:

أما عمود نسب النبي (ص) فعلى ما ذكره ابن إسحاق في السيرة، وتبعه عليه ابن هشام: هو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النظر ابن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان بن أدد بن مقوم بن ناحور بن تارح بن يعرب بن يشجب بن نابت بن إسماعيل ابن إبراهيم عليه السلام ابن تارح (وهو آزر) بن تاخور ابن شارخ (شاروخ) بن أرغو ابن فاغ بن عابر بن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح عليه السلام بن لامك ابن متوشلخ بن اخنون وهو إدريس عليه السلام. والإتفاق على هذا النسب الشريف الى عدنان وفيما بعد عدنان الى إسماعيل عليه السلام فيه خلاف كثير يأتي ذكره في الكلام على نسب عدنان في حرف العين المهملة إن شاء الله تعالى، بل قد منع بعضهم الرفع في النسب على عدنان تمسكا بأنه ليس في ما وراء عدنان الى آدم طريق صحيح كما صرح به النووي. قال القضاعي في عيون المعارف في أخبار الخلائف وقد روى أن النبي (ص) قال لا تجاوزا معد بن عدنان كذب النسابون.

6- ما جاء في الطبقات الكبرى لإبن سعد وسير أعلام النبلاء للذهبي:

قال الذهبي: قيل أن بين عدنان وإسماعيل تسعة آباء وقيل سبعة وقيل مثل ذلك عن جماعة لكن إختلفوا في أسماء بعض الآباء وقيل بينهما خمسة عشر آبا وقيل: بينهما أربعون آبا وهو بعيد جدا وكل ما قيل في النسب فوق عدنان لا يقين فيه من حيث عدد الآباء وأسماؤهم فلا جدوى من ذكر ذلك. قال ابن سعد في الطبقات: " الأمر عندنا على الإنتهاء الى معد بن عدنان ثم الإمساك عما وراء ذلك الى إسماعيل بن إبراهيم.

وروى الذهبي عن عروة بين الزبير قوله:" ما وجدنا من يعرف ما وراء عدنان ولا قحطان إلا تخرصا .

الذهبي: سير أعلام النبلاء، مؤسسة الرسالة بيروت 1986، ابن سعد: الطبقات الكبرى، دار صادر بيروت.

الخلاصة:

ليس هناك دليل يعتمد عليه للتدليل على أن عدنان من نسل إسماعيل وبالتالي تسقط دعوى أن محمد نبي الإسلام من نسل إسماعيل.

الفهـــرس

(1) ابن لهيعة: هو أبو عبد الرحمن عبد الله بن لهيعة بن عقبة بن لهيعة الحضرمي الغافقي المصري، كان مكثرا من الحديث والأخبار والرواية. توفي بمصر سنة سبعين ومائة. وكان عمره احدى وثمانين سنة، وكان مولده سنة سبع وتسعين (ابن خلكان).

(2) ابن قتيبة في المعارف ساق نسب عدنان الى قيدار بن اسماعيل أخي نابت. وهذا ما فعله الجواني في أصول الإحساب والزيدي في روضة الألباب.

وهكذا قال هشام بن محمد الكلبي كما في رواية ابن الإعرابي عنه (المسعودي) وقال المسعودي:289/2: وقد نهى النبي أن يتجاوز عن معد، وقد اختلف أهل النسب [في رواياتهم] فالواجب الواقف عند أمره عليه السلام ونهيه.

(3) في ابن هشام: ويقال عدنان بن أد. وفي رواية الكلبي: عدنان بن أد بن أدد.

(4) في ج و ث: وهو؛ وفي ت: فهو.

(5) في ت: ثابت؛ وفي ج: نابت.

(6) في السيرة: راعو؛ وفي ج: أرعو، وفي ث: أرعواء.

(7) في السيرة فالخ؛ وفي ج: فالغ.

(8) في ج: عابر؛ وفي السيرة: عيبر.

(9) في السيرة؛ يافش؛ وفي ج: أنوش.

(10) الزيادة عن ج.

الباب التاسع

القمر في الأساطير العربية

جاء في موسوعة أساطير العرب للدكتور محمد عجينة ص193-198 ما يلي:

1.1 - القمر / المقمة / وَدَ / سين / كهل / هبل

كان القمر إله عرب الجنوب وسُمي بأسمائهم وكذلك كان عند عرب الشمال. فقد عبدته حمير واتخذته كلب بدومة الجندل وبنو عبد ودّ بنو عامر (1). فمن أسمائه المِقة (*) في سبأ حيث كان " حرم بلقيس" مخصصا لعبادة " إيل مقه". فهل هو من الفعل الممات ومَق أي أحب؟ كما في قول الراجزة:

إن تـُقبل نعــانـق ونــفــرش النمــارقْ
أو تـديروا نـفـارق فـراق غيـر وامـــقْ

ووَدّ عند المعينيين من ودد أي تمنى أو أحب كما أن له من الأسماء "سين" في حضرموت (2) وعم في قتَبان

و" كهلن" أي الكهل وإليه تنتمي ربما قبائل عرب الجنوب التي تنتسب الى كهلان.

وهي الذي يشير إليه الأعشى مادحا الأسود بن المنذر اللخمي:

أرْيَحِي صَلت يظلُّ لـه القو م ركـوعـا قيامَهُم للهلال (3)

أو قول النابغة:

حيًّا ود وإنـي لا يحلُ لــهُ لهْوُ النساء وإنّ الدين قد عزما (4)

وليس لنا من حكايات أسطورية يلعب فيها "سين" دورا أو أدوارا كما هو الشأن في المجاميع الأسطورية السومرية أو البابلية غير أن الإخباريين حفظوا لنا رواية عن مشاهد عيان في نعت " وَدّ ". ولنا أن نعتبرها أسطورة متجمدة أو منحوتة في الحجارة بواسطة قانون غير قانون اللغة:

قال الكلبي:

فقلت لمالك بن حارثة (5): صف لي ودا حتى كأني أنظر إليه.

قال:" كان تمثال رجل كأعظم ما يكون من الرجال قد ذُبر عليه حلتان متزر بحلة مرتد بأخرى عليه سيف قد تقلده وتنكب قوسا وبين يديه حربة فيها لواء وفضة (أي جعبة) فيها نبل".

إن هيئة "وَد" وما يوحي به يمكن ترجمتها في جملة من السمات هي الذكورة والقوة الجسدية مما يجعله في عداد ذوي الكفاءة الحربية والثراء بل لكأنه وقد اجتمعت له هذه الصفات صار الى الملوك أقرب وبهم أشبه وأعلق.

وإذا بحثنا عن هذه السمات لم نجدها عند نظيره " سين" إلَـه القمر في أساطير الشعوب المجاورة وبالذات في أساطير بلاد ما بين النهرين والأساطير الكنعانية وإنما عند " شَمَش" (Shamash)، ذلك أن إله القمر عند البابليين مثلا مؤنث ويأتي في المرتبة الثانية بعد " شمش" رب الأرباب الذي منه تسلم حمورابي شريعته في أواسط الألف الثالث قبل الميلاد. فمن صفات " شمش" القوة والشجاعة ومن شأنه الإخبار بالغيب على لسان كاهن وبحضرته بعد أن تقدم إليه أضحية (6).

ورغم أن الآلهة عند الشعوب القديمة لم تكن ثابتة الصفات والوظائف إنما كانت سمتها التغير على مرّ الأيام والإنتقال أحيانا من حال الى حال ومن رتبة الى أخرى (كأن يعلو شأنها فتغدو آلهة قومية بعد أن كانت آلهة محلية أو العكس)، فلسائل أن يتساءل عن سر هذا الفارق بين سين " العربي" ونظيره السومري أو البابلي أو الكنعاني. وإذا إفترضنا جدلا أن العرب قد " اقتبسوا" هذا الإله فلأية غاية؟ لا شك أن ذلك كان استجابة لجملة من الخصوصيات والضرورات التي تتلاءم مع بيئتهم وثقافتهم. فما عسى أن تكون؟ وما هي القرائن الدالة على كل ذلك إن وجدت؟

ثم أو يكون " هبل" أعظم آلهة قريش وأبا اللات والعزّى ومناة الثالثة الأخرى عندهم صورة من تجليات " سين" العربي أو من مثيله وقرينه " شمش" البابلي؟.
يقول ابن الكلبي في هبل ـ وها نحن مرة أخرى لا أمام أسطورة وإنما أمام بقية من بقاياها:" كان لقريش أصنام في جوف الكعبة وحولها، وكان أعظمها هُبل".

وكان فيما بلغني من عقيق أحمر على صورة الإنسان مكسور اليد اليمنى أدركته قريش كذلك فجعلوا له يدا من ذهب.

كان أول من نصبه خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر (7). وكان يقال له هُبل خزيمة.

وكان في جوف الكعبة قدامة سبعة أقداح... (8).

لعل أول ما يسترعي إنتباه القارئ إشارة ابن الكلبي الى منزلته بين أصنام قريش. فهو أعظمها. ثم هو في جوف الكعبة ولا بد أن في ذلك تعظيما له وتقديما على سائر الأصناف وعلى سائر الآلهة عندهم. ويتدعم هذا الرأي إذا اعتبرنا المعدن الذي منه صنع فهو من العقيق الأحمر ما خلا يده اليمنى وليست دون سائر الجسد نفاسة لأنها من ذهب. ثم لا ننسَ أنه على صورة الإنسان شأنه في ذلك شأن " وَدّ" على ما رأينا، ولذلك دلالته على تطور المعتقدات عند العرب كما نفصله بعد. أما إذا نظرنا الى اسمه وأصله فإنا نجد أنه لا اشتقاق له في العربية ولذلك فإن الروايات التي تذكر أنه قد اجتلب في جملة ما استجلب من أصنام من خارج الجزيرة قد تقارب الصواب. وقد رجح بعضهم أن أصله عبراني أو فينيقي لا سيما أن الهاء في العبرانية أداة تعريف.

أما في اللهجة الصفوية فكانوا يكتبون اللات هكذا: هـ لت وهالت (9) وربما كذلك في العربية مطلقا لأن (الهاء جزء من أسماء الإشارة الى القريب وهي من أدوات التعريف) وآنذاك يكون " هبل" مركبا من هـ + بل أي الإله الأكبر أو الرب لا سيما أن البعل هو الرب والسيد في لغة أهل اليمن ـ حسِب وهب بن منبه ـ وأنه " بل" أو " بيل" عند البابليين و" بعل" عند الكنعانيين أي الزوج فضلا عن أن الهاء حرف تعريف في اللهجة الصفوية (10) وفي القرآن الكريم { أَتَدعُونَ بَعلاً وَتذَرُونَ أَحْسَنَ الخَلِقِينَ} (11) ولا تزال الأرض أو الزراعة " البعلية " في البلاد بمعنى الأرض غير المسقية أي التي تُروى بما تجود به السماء بناء على الإعتقاد الأسطوري القديم الذي مفاده أنها أرض الإله " بعل" وأنه الذي جاد عليها بالغيث. ففي إحدى الملاحم الكنعانية هي " ملحمة بعل" تعداد لأفعاله وصفاته:

" بعل الذي يرسل الصواعق
بعل سيعطي بغزارة أمطاره
وبغزارة رطوبته
وسيرسل صوته في السحب
وبروقه ورعوده على الأرض
فليكملوا هيكله بخشب الأرز". (12)

ويسمى المطر في بعض كتب اللغة " بعل الأرض" (13).

أما وظيفة " هبل"ـ كبير الآلهة ـ فإنها تتحدد من خلال ما يتعلق به من طقوس وشعائر. فلقد كانوا يستقسمون لديه بالازلام وكانت تضرب عنده القداح وفي ذلك دلالة على مدى علمه ومعرفته بشؤون الغيب.

إلا أن نصبه في جوف الكعبة على جبّ أمر لا يخلو من دلالة رمزية. فهُبَل ذكر وهو أب ومن بناته اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى، وهو بوجه من الوجوه من رموز الخصوبة يستمد معناه الرمزي من الماء. والقرائن الأخيرة تقربه أكثر من بعل إن لم تجعله يستوي وإياه. ذلك أن بعلا كان عند الكلدانيين والآراميين في صورة "ملك جليل جالس على عرش عظيم" وكان عرش الآلهة عند السومريين على الماء وكذا تصور الساميون الإله وقد استوى عليه بعد الخلق كما سلف أن رأينا وكان على الماء (14).

2.2 ـ القمر / الثور / الهلال

وإذا ما نظرنا الآن الى القمر من خلال ما يتعلق به على الصعيد الرمزي كان الثور رمزا له وليس هذا بالغريب لا سيما إذا اعتبرنا أن الثور كان في جنوب الجزيرة العربية ـ مثلما كان في مصر القديمة وفي الهند ـ حيوانا مقدسا. فقد كان رمزا للإله " المقه" في سبأ وفي مأرب وهو كذلك في النصوص اللحيانية والثمودية بل وعند غير

العرب من الشعوب السامية. فمن ألقاب " إيل" إله الكنعانيين والعبرانيين أنه " إيل ثور" بل إن بني كنانة على ما يذكر الألوسي عبدوا الثور (15).

ولعل توحد القمر بالهلال راجع - شكلا - الى أن قرون الثور تذكرهم بالهلال إحدى الصور التي يتجلى من خلالها القمر. أما من حيث الدلالة فلعل مرد ذلك أن الثور في تصور الشعوب القديمة كان رمزا من رموز القوة. فهو في أساطير الخلق يحمل الكون على قرنه أو على ظهره. كما أنه رمز من رموز الفحولة والخصوبة لصلته بالحرث والأرض ولا يكون إلا للذكور من الحيوان. بل هو في بعض الأساطير النشوئية الكونية المصرية مصدر الحياة إذ الكون قد نشأ عندهم من استمناء آتوم (16).

وجاء في صفحتي 307 و 308 ما يلي:

2.2.4 - الثور الوحشي / إيل إلَه الساميين القدامى القمري

لم نعثر على أساطير تتعلق بالثور الوحشي إلا أنه قد وصلتنا عنه صور شعرية إبداعية لا بد أن لها علاقة بالثور. وقد كان الثور قرين العمر أو ودّ أو سين إله القمر، بل كان من نعوت " إيل" إله الساميين القديم (*) وليس من المستبعد أنها آثار لأعمال طقوسية تتعلق بالصيد المقدس مثلما يذهب الى ذلك بعض دارسي الأدب وتاريخ الشعوب القديمة (**).

3.2.4- الوعل / المقة إله سبأ القمري

في حديث يشك بعضهم في صحة نسبته الى النبي يسمى حديث الأوعال أن الوعل من الحيوانات الحاملة للكون كما سبق أن رأينا ذلك مع الثور الأسطوري، ويعد من حملة العرش الثمانية؛ وكنا رأينا أن حملة العرش بالنسبة الى الشيعة قد ورد ذكرهم في آي القرآن الذي لا ينبغي أن يحمل على ظاهر معناه وأن حملة العرش إنما هم حملة العلم وهم في رأيهم الأئمة:" حدثنا عبد الرزاق حدثنا يعلى بن عبد العلاء عن عمه شعيب بن خالد حدثني سماك بن حرب عن عبد الله بن عميرة عن الأحنف بن قيس عن عباس بن عبد المطلب قال:

كنا جلوسا مع رسول الله (ص) بالبطحاء فمرت سحابة. فقال رسول الله (ص): أتدرون ما هذا؟ قلنا السحاب. قال والمزن. قلنا: والمزن. قال: والعنان. قال: فسكتنا. فقال: هل تدرون كم بين السماء والأرض؟ قلنا الله ورسوله أعلم. قال: بينهما مسيرة خمسمائة سنة ومن كل سماء الى سماء مسيرة خمسمائة سنة وكشف كل سماء مسيرة خمسمائة سنة.

وفوق السماء السابعة بحر بين أسفله وأعلاه كما بين السماء والأرض. ثم فوق ذلك ثمانية أوعال بين ركبهن وأظلافهن كما بين السما والأرض والله فوق ذلك. وليس يخفى عليه من أعمال بني آدم شيء" (17).

إن الوعل كما أثبتت ذلك دراسات أديان العرب القدامى من رموز الإله المقمة إلَه سبأ القمري (18).

<u>قرني الكبش المعلقتين في الكعبة:</u>

جاء في كتاب: أخبار مكة " للأزرقي ص 165-166 ما يلي:

في معاليق الكعبة وقرني الكبش
ومن علق تلك المعاليق

حدثنا أبو الوليد قال: حدثني جدي قال: حدثنا ابن عيينة عن منصور ابن عبد الرحمن الحجبي عن خاله مسافع بن شيبة عن صفية بنت شيبة، أن إمرأة من بني سليم ولدت عامتهم، قالت لعثمان بن طلحة: لِم دعك النبي (ص) بعد خروجه من البيت؟ قال: قال لي: إني رأيت قرني الكبش في البيت، فنسيت أن آمرك أن تخمرهما، فإنه لا ينبغي أن يكون في البيت شيء يشغل مصليا، قال عثمان: وهو الكبش الذي فدى به إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام.

حدثني محمد بن يخيى، عن سليم بن مسلم عن عمرو بن قيس، أنه كان يقول: كان قرنا الكبش في الكعبة، فلما هدمها ابن الزبير وكشفها، وجدوهما في جدار الكعبة مطليين بمشق، قال: فتناولهما فلما مسهما، همدا من الأيدي، قال محمد بن يهيى، عن هشام بن سليمان عن ابن جريج عن عبد الله بن شيبة عن عثمان، قال: سألته هل كان في

الكعبة قرنا كبش؟ قال: نعم كان فيها، قلت: رأيتهما، قال: حسبت أنه قال أبي أخبرني أنه رآهما، وعن ابن جرجج عن عجوز قالت: رأيتهما وبهما مغرة.

حدثني محمد بن يحيى، عن الواقدي عن أشياخه قال: لما فتح عمر بن الخطاب رضي الله عنه مدائن كسرى، كان مما بعث به إليه هلالان، فبعث بهما فعلقهما في الكعبة، وبعث عبد الملك بن مروان بالشمستين وقدحين من قوارير وضرب على الإسطوانة الوسطى الذهب من أسفلها الى أعلاها صفايح، وبعث الوليد بن عبد الملك بقدحين وبعث الوليد ابن زيد بالسرير الزينبي وبهلالاين، وكتب عليهما اسه، بسم الله الرحمن الرحيم، أمر عبد الله الخليفة الوليد بن يزيد أمير المؤمنين في سنة احدى ومائة؛ قال أبو الوليد: أخبرنيه إسحاق بن سلمة الصايغ، أنه قرا حين خلق الكعبة، وأخبرنيه غير واحد من الحجبة سنة اثنتين وأربعين ومائتين،

الهـوامـــش

(1) انظر كتاب الأصنام: ص10 و55. وجواد علي: المفصل ج 6 ص 51 وما بعدها وريكمان، ديانات العرب قبل الإسلام ص 317-328 ويستفاد منهما أن أسماء القمر " ورخ" و " شهر" و " ربع شهر" و " خول".

(*) ويجعل بعضهم نطقها Ilmukah (جواد علي ـ المفصل ـ 6 ص 52). أو Illumquh أنظر: Jamme: Le Panthon Sud J arabe Pre J Islamique. P 63 et I.B.L.A.N.1948 p. 42.

(2) ريكمان: المرجع السابق ص 317. وسين عند أهل الرافدين ابن الإله إنليل (الهواء) من حبيبته نِنليل، وله اسم آخر هو "نانا" (عن فراس سواح: مغامرة العقل الأولى ص 505).

(3) ديوان الأعشى: ص 26 استشهد به أحمد كمال زكي: الأساطير دراسة حضارية مقارنة ص 82.

(4) ديوان النابغة ص 216 ط تونس 1986 تحقيق الشيخ محمد الطاهر بن عاشور. وعبارته: (حياك ربي)
وقد ضبطه محقق كتاب الأصنام كما يلي:

حيـاك وَدّ فإنـا لايحـل لنـــا لهوُ النساء وأن الدين قد عزما

(5) مالك بن حارثة الأجدري من بني عامر اجدار. عن ابن الكلبي أنه أول سادن لودّ بدومة الجندل ـ كان أبوه يبعثه باللبن إليه فيقول اسقع إلهك. ورأى خالد بن الوليد يهدمه في غزوة تبوك. ابن الكلبي: كتاب الأصنام ص 10 وص 55.

(6) أنظر Felix Guirand: La Mythologie-p.50 والموسوعة العالمية انسكلوبيديا أونيفرساليس فصل " الأساطير الأشورية البابلية" ص43-63 وفصل " عام االنجوم" ج2 ص 979.

(7) ابن الكلبي: كتاب الأصنام ص 27-28 وفي رواية الأزرقي أن الذي نصبه عمرو بن لحي جاء به من هيث من أرض الجزيرة. أخبار مكة ج1 ص 65.

(8) سيرة ابن هشام ج1 ص86 وكتال الأصنم ـ ص 27 ـ 28.
والأزرقي: أخبار مكة ج1 ص117 ـ 118. وفيه خبر عن ابن إسحاق أتم من الذي في كتاب الأصنام وفيه أنه "... كان عند هبل في الكعبة سبعة قداح كل قدح منها فيه كتاب (...) وقدح فيه المياه فإذا أرادوا أن يحفروا للماء ضربوا بالقداح".

(9) تفسير الطبري ط بولاق: ص 23 ص 53 وجواد علي: المفصل ج6 ص 232.

(10) المرجع السابق ص 232.

(11) سورة الصافات آية 123 ـ وما بعدها { وَإِنَّ إلياسَ لمِنَ المُرسَلينَ * إذ قَالَ لِقَومِهِ ألا تَتَقُونَ * أَتَدعُونَ بَعلاً وَتَذرُونَ أحسَنَ الخَلِقِينَ}. (12) نسب وهبة الخازن: أوغاريت ص 21ن0 و222.

(13) عن ابن عباس أن المطر بعل الأرض بمعنى أنه يلقحها وقد لتلاشى المعنى الأسطوري وبقي في العبارة المعنى " الدنيوي" أو غير المقدس. يقول ابن المعتز في هذا الغرض:

ومُـزنَـةٍ مشـعـلة البــارقِ تبـكي علـى الأرض بُـكـاء العاشـق
تلقـح بالقـطـر بطون النـدى والقــطـر بـعـلُ التربـة العـاتــق

(وأبو منصور الثعالبي: ثمار القلوب في المضاف والمنسوب ـ ط دار المعارف ص 516).

(14) وأنظر شوقي عبد الحكيم: أساطير وفولكلور العالم العربي ص 12.

(15) ج ريكمان:" ملاحظات حول دور الثور في ديانة عرب جنوب الجزيرة ".
J. Ryckmams: notes sur le role du taureau dans la religion sud arabe in MELANGES D'ISLAMOLOGIE Volume 2 pp. 365-366.
وأنظر: الألوسي: بلوغ الأرب ج2 ص 216 واعتبر ذلك بما لدى الهنود وتمثيلهم القمر على صورة عجل ـ انظر في هذا الشأن: الشهرستاني الملل والنحل ويذكر أنهم" اتخذوا له(أي القمر) صنما على شكل عجل يجره أربعة وبيد الصنم جوهرة " الملل والنحل ج 2 ص 259. نسب وهبة الخازن: أوغاريت ص 168 ـ 218 وجواد علي: المفصل ج 6 ص 54.

(16) جون. أ. ولسن ـ ما قبل الفلسفة ترجمة جبرا إبراهيم جبرا ص 69.
ورودلف آنتس: الأساطير في مصر القديمة. ص 21.

(*) انظر أعلاه أساطير الكواكب: القمر وعلي البطل: الصورة في الشعر العربي ص123-125-126 والمفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ج6 ص50 وانظر صورة الثور في الأدب معلقة لبيد ـ جمهرة أشعار العرب ص66-71ط دار المسيرة بيروت ـ مصورة عن طبعة بولاق معلقة النابغة. جمهرة أشعار العرب ص53-54 وديوان أوس بن حجر تحقيق محمد يوسف نجم ص2و4و43 وديوان بشر بن أبي خازم ص 51-55-82-101-120-204-232، وفي ديوان زهير بن أبي سلمى ص 42-264-379- وفي ديوان امرئ القيس ص 101-160.

(**) " الفريد بيستون": The ritual hunt … le Museon 61-183-196-

(17) المزن جمع مزنة وهي السحاب أو أبيضه أو ذو الماء. والعنان: اسم من عنّ الشيء أي ظهر جمع عنانة وهي السحابة.
ابن كثير: البداية والنهاية ج1 ص10 ويعلق بقوله هذا لفظ الإمام أحمد (ويقصد الإمام أحمد بن حنبل في مسنده). وانظر في تأويل حملة العرش عند الشيعة: أساطير الخلق.

(18) G. Ryckmans: Religions arabes preislamiques in R.H.R. p. 328.
J. pirenne La religion des arabes preislamiques.

وقد نشر في مجلة الباحث 28 سنة 1976 ص 177-217.
و A. Jamme: le pantheon sud – arabe d'apres les sources epigraphiques. فصلية عن مجلة " لوميزيون"
" Le Museon "T.L.X. 1947 p. 56-147" وانظر أعلاه أساطير الكواكب.

هل عَبَدَ العرب القمر قبل الإسلام؟

جاء في دائرة المعارف الإسلامية – الجزء الرابع ما يلي:

أ- عقيدة الجاهليين في الله:

مما لا شك فيه أن العرب قبل محمد (ص) قالوا بوجود إله على نحو ما، سموه " الله " أو " الإله "، وعبدوه نوعا من العبادة. وهذه الكلمة إما أن تكون من أصل عربي صحيح، وإما أن تكون آرامية الأصل مشتقة من كلمة " ألاها " ومعناها الله. وليس يعنينا الآن أن نفحص عما إذا كان " الإله " في نظرهم يمثل فكرة مجردة، أم أنه كان يمثل تدرجهم في تصور إله معين مثل هُبَل. (أنظر ما كتبه في هذا الموضوع :-Reste arabischen Heident Wellhausen ums، الطبعة الثانية، ص117 وما بعدها، وكذلك ما كتبه نولدكه عن العرب في الجاهلية في Dictionary of religion and ethics:Hasting.، جـ 1، ص662).

أما في هذا المقام فيكفينا أن نستشهد على تصور أهل مكة لله بما ورد في القرآن. فقد جاء فيه أنهم كانوا يقولون إن الله هو الخالق الرازق (سورة الرعد، الآية 16؛ سورة العنكبوت، الآية 61،63؛ سورة لقمان، الآية 25؛ سورة الزمر، الآية 38؛ سورة الزخرف، الآية 9 والآية 87. وجاء في الآية 17 من سورة الرعد، والآية 63 من سورة العنكبوت، حكاية عن أهل مكة أنهم كانوا يؤكدون أن الله هو الذي ينزل من السماء ماء) وكانوا يجأرون الى الله إذا مسهم الضر (سورة يونس، الآية 22؛ سورة النحل، الآية 53؛ سورة العنكبوت، ألآية 65؛ سورة لقمان، الآية 32) وهذه الآيات تؤلف كلا لا ينفصل ولا يكاد يكون لكل واحدة منها وزن وهي منفردة.

وكانوا يعترفون بالله ويقسمون به جهدا أيمانهم (سورة الأنعام، الآية 109؛ سورة النحل، الآية 38؛ سورة فاطر، الآية 42) ويجعلون له نصيبا من الحرث والأنعام مميزا عن أنصبة الآلهة الأخرى (سورة الأنعام، الآية 138،139) وكانوا يقولون إن الله لم يحرم عليهم قط أن يشركوا به، (سورة الأنعم، الآية 148؛ سورة النحل، الآية 35) ، وكانوا يقولون أيضا بوجود آلهة أخرى تخضع لله انصرفوا الى عبادتها في حمية وحماسة.

وليس من السهل دائما أن نميز بين آرائهم وبين تفسير محمد (ص) لهذه الآراء، وبخاصة بين الألفاظ التي استعملوها هم، والألفاظ التي استعملها هو. ومما لا شك فيه أنهم اعتبروا بعض الآلهة بنات لله (سورة الأنعام، الآية 100؛ سورة النحل، الأية 57؛ سورة الصافات، الآية 149؛ سورة النجم، الآية 21)؛ مثل اللات والعزى ومناة أو منات. (انظر سورة النجم، الآية 19،20). وذهب البعض الى أن اللات تحريف لكلمة "الله". وجعلوا لله بنين أيضا (سورة الأنعام، الآية 100)، على أننا لا نستطيع أن نقول أكان أهل مكة قد أطلقوا على هؤلاء الآلهة لفظ شركاء" ، وربما كنت تسميتهم لهم "بالملائكة" أقل احتمالا. وكان أهل مكة في جميع الأحوال العادية يعبدون هذه الآلهة دون الله، كما كانوا يؤثرونها بالقرابين دونه ويرجحونها عليه (سورة الأنعام، الآية 138 وما بعدها)، وكانوا يقولون إنها على الأقل كانت تشفع لهم عنده. (سورة النجم، الآية 26) على أنهم لم يكونوا على يقين من أن هذه الآلهة كانت قادرة على الخلق (سورة الرعد، الآية 16). ولهذا كانوا يرجعون الى الله إذا مسهم الضر لأنهم كانوا لا يشكون في قدرته على الخلق.

كما أنه من المحقق أن أهل مكة جعلوا بينه وبين الجنة نسبا (سورة الصافات، الآية 158؛ انظر استعمال كلمة نسب في سورة الفرقان الآية 54، وسورة "المؤمنون"، الآية 101)، وجعلوهم شركاء لله (سورة الأنعام، الآية 100)، وقدموا لهم القرابين (سورة الأنعام، الآية 128)، وكانوا يعوذون بهم (سورة الجن، الآية 6).

ولسنا نعلم علم اليقين هل كانت قد وجدت لديهم فكرة عن الملائكة، أو أنهم جعلوهم شركاء لله، وربما كان هذه تفسيرا من عند محمد (ص) (سورة الأنعام، الآية 100؛ سورة الطور، الآية 39). أما محمد (ص) فإن رأيه واضح في هذه الأمور: فإنه الى جانب قوله بوجود الله يقول بوجود الملائكة ووجود الجن مع الشيطان، وأن الشياطين كانت على صلة بالجن والملائكة، وهذه الكائنات هي التي كان أهل مكة يجارون إليها في الواقع ولكنها لم تكن تملك لهم نفعا ولا ضرا (سورة الإسراء، الآية 56). أما اعتبارهم هذه الكائنات إناثا وتسميتهم لها بأسماء، فهو إفك

ظاهر البطلان. ويبدو من هذا أنه مهما يكن الأمر بمكة في عهدها الأول، ومهما يكن الأمر في بقية بلاد العرب، ومهما يكن أصل الأسماء التي أطلقوها على هذه الكائنات ـ فإن الدين في مكة أيام محمد لم يكن وثنية ساذجة، بل كان أشبه بالعقيدة المسيحية التي جعلت للقديسين والملائكة مقاما بين الله وعباده. وقد كان محمد (ص) يرى أنه جاء مصلحا يدعو الى عقيدة أكثر بساطة وقدما ويعيد الملائكة والجن الى مكانهم الصحيح.

ب ـ عقيدة محمد (ص) في الله:

تبدو عقيدة محمد بسيطة واضحة في الركن الأول من أركان الإسلام، وهو شهادة أن لا إله إلا الله. ومعنى هذا عند محمد (ص) وعند أهل مكة هو أن الله وحده هو الإله الحق دون سائر الآلهة التي كان يعبدها أهل مكة. وشهادة أن لا إله إلا الله لم تتعرض لماهية الله، وإنما تعرضت فقط لبيان مقامه. وعلى هذ فكلمة "الله" كانت ولا تزال اسم العلم الذي يطلق على الخالق عند المسلمين. وهي تقابل كلمة "يهوه" Yahweعند اليهود، لا كلمة "إلوهيم" Elohim. وليس لكلمة "الله" جمع، وإذا أراد المسلمون الكلام عن الآلهة فالجمع فإنهم يلجئون الى جمع كلمة "إله". وهي اسم جنس يرجح أن كلمة "الله" اشتقت منه. وكان محمد (ص) يستعمل هذا الجمع عند كلامه عن الآلهة الأخرى، التي كان أهل مكة يشركونها مع الله (سورة الأنعام، الآية 19)، وقد حذوا حذوه المسلمون في ذلك، ولو أنهم آثروا أن يطلقوا على تلك الآلهة اسم الأصنام أو الأوثان تمييزا لها:((انظر مادة "الله" في Dictionary of religion and ethics- Hasting.

على أنه وإن كان اسم "الله" واحدا عند أهل مكة وعند محمد (ص)، فإن تصورهم لحقيقة الله لابد أن يكون مختلفا اختلافا بينا. ومن الواضح أن أهل مكة على وجه عام لم يكونوا يخافون الله، وإنما خوفه كان من أركان عقيدة محمد (ص). وكان أهل مكة يظنون الله بعيدا عنهم بعدا عظيما، في حين أن محمد (ص) كان يقول إن الله قريب جدا في كل لحظة، بل هو أقرب الى الناس من حبل الوريد (سورة ق، الآية 16). ولم يتردد أهل مكة في عصيان الله وعبادة آلهة أقل شأنا.

وقد عرف محمد (ص) الله بأنه الملك المنتقم الغيور وأنه سيحاسب الناس من غير شك ويعاقبهم في اليوم الآخر. وبذا تحولت تلك الفكرة عن الله الى ذات لها خطر عظيم.

وينبغي لنا الآن أن نتبسط في الكلام على هذه الذات، ومن حسن التوفيق أن لوازم السجع في وصف الله بعدة صفات يتردد ذكرها كثيرا في القرآن الكريم (سورة الأعراف، الآية 180؛ سورة الإسراء، الأية 8؛ سورة الحشر، الآية 24) وتبين شغف محمد (ص) بهذه الصفات وشدة تمسكه بها. وكانت الفطرة السليمة هي التي دفعت المسلمين بعد محمد (ص) الى جمع هذه الصفات وتقديسها. وهذه الصفات تعبر عن حقيقة الله عند محمد أحسن مما تعبر عنها الصفات التي ذكرها علماء الكلام في القرون الوسطى...(انظر عن أسماء الله الحسنى المقال الذي كتبه Redhouse في Jour. of the Roy. As Soc. سنة 1880، جـ12، ص1-69.)

جـ ـ الله في ذاته:

تبدو أسماء الله الحسنى لأول وهلة مجموعة من الألفاظ الدالة على التجسيم والعبارات الميتافيزيقية، ومع ذلك فإن محمدا (ص) عندما يتحدث عن يدي الله (سورة المائدة، الآية 64؛ سورة ص، الآية 75)، أو عن قبضته (سورة الزمر، الآية 67)، أو عن أعينه (سورة القمر، الآية 14)، أو عن وجهه (سورة البقرة ، الآيتان 115و272؛ سورة الأنعام، الآية 52؛ سورة الكهف، الآية 28 الخ..)، أو عندما يصفه بالإستواء على العرش (سورة طه، الآية 5 وغيرها) فإنه ينبغي ألا نرد ذلك الى العقيدة القائلة بالتجسيم، لأن الصفات في هذا الوضع أقرب الى مجازات. وإذا راعينا المصطلحات الفنية فإننا لا نجد في هذه الأوصاف سوى المجاز. أما التجسيم والتشبيه فكان ظهورهما عند المفسرين المتأخرين. وهذا هو الحال في العبارات الميتافيزيقية.

وقد استطاع محمد (ص) أن يصف الله بصفات واضحة معينة، مثل الأول والآخر والظاهر والباطن (سورة الحديد، الآية 3) وأنه القيُّوم (سورة البقرة، الآية 255؛ سورة آل عمران، الآية 2).

أما صفة "واجب الوجود" فقد نشأت عند علماء الكلام المتأخرين، فالله إذا هو الواحد الحي (سورة البقرة، الآية 255؛ سورة آل عمران، الآية الثانية الخ..)، المتعال (سورة الرعد، الآية 9)، العليم الواسع (سورة البقرة، الأية 247، الخ..)، القادر (سورة البقرة، الآية 20الخ..)، الغني (سورة البقرة، الآية 267 وغيرها) البديع (سورة البقرة، الآية 117؛ سورة الأنعام، الآية 101) الباقي (لا ترد هذه الصفة في القرآن، ولكن الفعل المشتق منه كثيرا ما يرد في القرآن مسندا الى الله) الصمد (سورة الأخلاص، الآية الثانية) ويقابلها في اليونانية "أباكس

ليكومينون"، ولم يكن المفسرون المتقدمون يعرفون أصل هذه الكلمة ومعناها الصحيح على وجه التحقيق؛ انظر الطبري، جـ 30 ص196، س 7).

ومن صفاته أيضا العزيز والعظيم والقهار (سورة يوسف، الآية 39 وغيرها)، والمتكبر (سورة الحشر، الآية 23؛ وهي صفة نقص إذا أسندت الى غير الله) والكبير والحميد، والمجيد (سورة هود، الآية 73؛ سورة البروج، الآية 15 وهي صفة يوصف بها القرآن، أما صفة "الماجد" فلم يرد ذكرها في القرآن) والكريم، وذو الجلال والإكرام (سورة الرحمن، الآية 78) والجليل (هذه الصفة لم يرد ذكرها في القرآن.

الباب الحادى عشر

عبادة العرب للشمس والقمر
بحسب "المفصل فى أديان العرب"
للدكتور محمد جواد حسنى

جاء في صفحتي 143و150 ما يلي:

وكل اسم ورد في المسند استهل بلفظة (ذت)، (ذات) فيراد به الشمس وهي إلهة، وكل لفظة بدأت بـ (ذ) فإنها تعني إلها وهو القمر أو عثتر، فنحن أمام ثالوث سماوي، يمثل عقيدة الجاهليين في الآلوهية، كما يمثل عقيدة الساميين عموما والثالوث السماوي هو نواة الألوهية عند جميع الساميين، ومنه أنبثقت عقيدة التوحيد فيما بعد.

وعثتر، هو (النجم الثاقب) المذكور في القرآن الكريم (1)، وقد ذهب المفسرون الى أن العرب كانت تسمي الثريا النجم، وذكر بعض منهم أن النجم الثاقب هو زحل، والثاقب الذي قد إرتفع على النجوم (2)، وذكر بعض آخر أن النجم الثاقب هو الجدي (3)، وأقسم في بعض أخر من القرآن الكريم بـ (النجم) (4)، وقد ذهب المفسرون الى أن النجم الثريا (5)، ونحن لا يهمنا هنا إختلاف علماء التفسير في تثبيت المراد من النجم، إنما يهمنا إن المراد به نجم من النجوم، فنكون أمام ثالوث معبود: هو الشمس والقمر والنجم الثاقب، الذي هو (عثتر) في نصوص العرب الجنوبيين.

وقد ذكر أن العرب تعبدت للشمس وللقمر، وأن طائفة منهم تعبدت لكواكب أخرى مثل الشعرى، حيث تعبدت له خزاعة وقيس، ومثل (سهيل) حيث تعبدت لها (طيء). و (عطارد)، وقد تعبد له (بنو أسد) و (الأسد)، وقد تعبد له بعض قريش، و(الدبران) وقد تعبدت له (طسم). و(الزهرة)، وقد تعبد لها أكثر العرب، و(زحل) وقد تعبد له بعض أهل مكة، حتى أن من الباحثين من زعم أن (الكعبة) كانت معبدا لزحل في بادئ الأمر، وتعبد للمشترى قوم من لخم وجذام (6).

ونجد في الكتابات العربية الجنوبية جملة: (ودم ابم) أي (ود اب) و(ابن ودم) أي (اب ود)، كما نجد جملة: (ولد ود) و(اولد ود) (اولد هو ود)أي (اولاد ود) بمعنى (شعب معين)، وتعبر الجمل الأولى عن معنى أن الإله (ود) هو إله شفيق رحيم عطوف على الأنسان، هو بالنسبة له بمنزلة الأب من الأبن، فهو (اب) للإنسان لا بالمعنى الحقيقي بالطبع، أي بمعنى أن الإنسان انحدر من صلبه، بل بالمعنى المجازى الذي أشرت إليه - وبهذا المعنى نفسر جملة: (أولاد ود) تعبيرا عن معنى (شعب معين)، فالإله (ود) هو أب هذا الشعب يحميه ويدافع عنه ويمعطف عليه .

وقد عرف (القمر) بـ (ثور) ولعل ذلك بسبب قرنيه اللذين يذكران بالهلال. ودعي بهذه التسمية، أي (ثور) في الكتابات (7)، وقد رمز الى الإله (القمر) عند شعوب سامية قديمة أخرى (8).

ونظرا لأن (القمر) هو الإله الذكر، صار بمنزلة الأب، فدعيّ بـ (أيم) أي (أب). ونعت بمحب، فقيل له (ودم) لأنه يحب عبيده ويشفق عليهم، وهو (كلهن) أي القادر القدير، وهو (حكم) أي الحاكم والحكيم، وهو (سمعم) أي السامع والسميع، وهو (علم) أي العالم والعليم، والبصير المبصر، وهو (نهي) أي الناهي (9)، وهو (صدق) الصادق الصديق المتعال المنعم الكريم الى غير ذلك من نعوت عرف بها ورُمز بها إليه في النصوص.

ويجب أن ننتبه الى أن الكتابات الجاهلية وكذلك أخبار أهل الأخبار، قد نصا على اسم الإلهة (الشمس)، فدعوها بإسمها، أي الشمس، أما القمر فلا نجد لإسمه الخاص ذكرا يتناسب مع مقامه، نعم ذكر بـ (شهر) و (سين) في النصوص العربية الجنوبية، و(شهر) القمر في العربيات الجنوبية، ولا زال الناس يسمونه بهذه التسمية في جنوبي جزيرة العرب. لكننا نجد أسماءه المأخوذه من النعوت. أي من صفاته تطغى عليه. فهو (ود) في الغالب في النصوص المعينية. ويظن من لا علم عميق له بالعربيات الجنوبية، أنه إسم إله خاص به، كما في حالة الشمس.

ونحن نجد هذه الظاهرة في روايات أهل الأخبار أيضا، فبينما تنص أخبار أهل الأخبار على تعبد بعض العرب للشمس، وعلى مخاطبتهم لها بـ (الإلاهه) وبـ(لاهه) (10)، وعلى تعبد بعضهم لزحل أو للمشترى أو لغيرهما من الأجرام السماوية كما تحدثت عن ذلك في موضع آخر، لا نجد للقمر ذكر في أخبار أهل الأخبار، فلم يشيروا الى إسمه ولا الى تعبد الجاهليين له، حتى ليذهب الظن بعد تتبع جميع ما ورد في تلك الأخبار واستقصاءها استقصاءا تاما إن الجاهليين لم يعرفوا عبادة القمر، والظاهر أن أهل الأخبار كانوا في جهل من عبادة الجاهليين للقمر، بسبب ما شاهدوه من تعبد أهل مكة وغيرهم وكذلك القبائل الى الأصنام وتقربهم إليها .

وجاء في كتاب الأصنام لأبي المنذر هشام محمد بن السائب الكلبي صفحة 19:

وقد بلغنا أن رسول الله (ص) ذكرها يوما، فقال: لقد أهْديتُ للعُزّي شاةً عفراء، وأنا على دِين قومي.

وكانت قُريشٌ تطوف بالكعبة وتقول:

واللاتِ والعُزى وَمَنَاةَ الثالثةِ الُأخرى! فإنهنّ الغرانيقُ العُلى

وإن شفاعتهنّ لتُرتجى!

وجاء في صحيح البخاري باب ما ذُبح على النصب والأصنام حديث 407:

حدثنا مُعلى بن أسد: حدثنا عبد العزيز بن المُختار: أخبرنا مُوسى ابن عُقبة قال: أخبرني سالم أنه سمع عبد الله يُحدث عن رسول الله (ص)، أنه لقي زيد بن عمر وبن نُفيل بأسفل بلدح، وذاك قبل أن يُنزل على رسول الله (ص) الوحي، فقدم إليه رسول الله (ص) سُفرة لحم فأبى أن يأكل منها، ثم قال: إني لا آكل مما تذبحون على أنصابكم، ولا آكل إلا مما ذكر اسم الله عليه.

وجاء في السبرة النبوية لإبن هشام ص153 و154:

(خرج القدح على عبد الله وشروع أبيه في ذبحه، ومنع قريش له):

قال ابن إسحاق: وكان عبد الله ـ فيما يزعمون ـ أحب ولد عبد المطلب إليه، فكان عبد المطلب يرى أن السهم إذا أخطأه فقد أشوى، وهو أبو رسول الله (ص). فلما أخذ صاحب القداح القداح ليضرب بها، قام عبد المطلب عند هبل يدعو الله، ثم ضرب صاحب القداح، فخرج القدح على عبد الله، فأخذه عبد المطلب بيده وأخذ الشفرة، ثم أقبل به الى أساف ونائلة ليذبحه، فقامت إليه قريش من أنديتها، فقالوا: ماذا تريد ا عبد المطلب؟ قال: أذبحه؛ فقالت له قريش وبنوه: والله لا تذبحه أبدا حتى تُعذر فيه. لئن فعلت هذا لا يزال الرجلُ يأتي بإبنه حتى يذبحه، فما بقاء الناس على هذا!.

(نجاة عبد الله من الذبح):

فخرجوا حتى قدموا مكة، فلما أجمعوا على ذلك الأمر، قام عبدُ المطلب يدعو الله؛ ثم قربوا عبد الله وعشرا من الإبل، وعبد المطلب قائم عند هُبل يدعو الله عز وجل، ثم ضربوا فخرج القدح على عبد الله؛ فزادوا عشرا من الإبل، فبلغت الإبل عشرين، وقام عبد المطلب يدعو الله عز وجل.

الهــوامــش

(1) الطارق، رقم 86، الآية 3.
(2) تفسير الطبري (91/30).
(3) تفسير القرطبي، الجامع (1/20).
(4) النجم، رقم 53، الآية 1.
(5) تفسير الطبري (24/27).
(6) Johamm Ermest Oslander, Studien uber dle Varislamische Religion der Arater. In ZDMG. 1853 – 505 Grohmann, S. 81
(7) Glaser 1546, Wiever Museum 5.
(8) Handbuch, I.S. 214 Nieldene, Altarabische Mondreligion, S. 110.
(9) Handbuch, I.S. 215 L. Nielsen Neue Katabanische h. schriften, S. 15.
(10) ابن الأجدابي (79).

الباب الثانى عشر

مكانة القمر في القرآن

مع أن القرآن ينهي عن عبادة القمر في آية صريحة وهي فصلت 37:

ومِنْءَ ايَتِهِ الَّيلُ وَالنَّهَارُ والشَّمسُ والقَمَرُ لا تَسجُدُ لِلشمسِ ولا لِلقمَر واسْجُدُوا للهِ الِذي خَلَهُنَّ إن كُنتُمْ إياهُ تعْبُدُونَ.

فصلت 37

إلا أننا نرى الله يقسم به وبأشياء أخرى في آيات عديدة. من يقسم بشئ ففي العادة أنه يقسم بأعظم منه. ولهذا نرى في الكتاب المقدس أن الله يقسم بذاته:

ونادى ملاك الرب إبراهيم من السماء مرة ثانية وقال:" ها أنا **أقسم بذاتي** يقول الرب، لأنك صنعت هذا الأمر، ولم تمنع ابنك وحيدك عني، لأباركنك وأكثرن ذريتك فتكونُ كنُجوم السماء وكرمل شاطئ البحر وترث ذُريتك مُدُن أعدائها. وبذريتك تتباركُ جميعُ أمم الأرض.

تكوين 22: 15- 18

لنأخُذ وعد الله لإبراهيم مثلا، فلما **قطع لهُ ذلك الوعد أقسم بنفسه، إذ ليس هنالك من هو أعظم منه حتى يُقسم به.** وقد قال لهُ: لأباركنك وأعطينك نسلا كثيرا**!"** وهكذا، انتظر إبراهيم بصبر فنال ما وُعِدَ بهِ. فالواقع أن الناس يقسِمُون بالأعظم. والقسم عندهم، يضعُ حدا لكل مشاجرة.

عبرانيين 13:6

أمثلة من آيات يقسم بها الله بالقمر:

{32} كَلاَ والقمَر

{33} وَاليل إذا أديَرَ

{34} والصُّبح إذا أسفَرَ

{35} إنَّهَا لإحْدَى الكُبر

المدثر 32- 35

{16} فَلاَ أُقسِمُ بالشَفَقِ

{17} وَاليلِ وَمَاوَسَقَ

{18} والقَمَر إذَا اتَّسَقَ

الإنشقاق 16- 18

{1} والشَمْسِ وَضُحتهَا

{2} والقَمر إذا اتَلتَها

{3} وَالنَّهَار إذَا جَلتهَا

{4} واليل إذَا يغشَهَا

الشمس 1- 4

لا يقسم الله فقط بالقمر بل بموقع النجوم كما في سورة الواقعة:

{75} فَلا أقْسِمُ بِمَوَقِع النُجُوم

{76} وَإِنَهُ لَقَسَمٌ لو تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ

الواقعة 75- 76

بل أن القرآن يقول أن الله رب النجم العظيم الشعري Sirius

{49} وَأَنَهُ هُو رَبُ الشِعرى

النجم 49

أكثر من هذا لقد أثنى القرآن على الصابئين الذين يعبدون النجوم وقال أن لهم أجرهم عند الله.

{62} إِنَّ الذِينَ أَمَنُوا وَالذينَ هَادُوا وَالنصَرَى وَالصَبئينَ مَن أَمَنَ بِاللهِ وَاليوم الأخِرِ وَعَمِل صَلِحًا فَلهُمْ أجرُهُمْ عِند رِبَهِم وَلا خوفٌ عَليهِم وَلا هُم يَحزنُونَ.

البقرة 62

{69} إِنَّ الذِينَ أَمَنُوا وَالذِينَ هادُوا وَالصبِئونَ وَالنَّصرَى من أَمَنَ باللهِ وَاليُوم الآخِرِ وَعَمِل صَلحا فَلا خوفُ عَلَيْهِم ولا هُم يحزنُونَ.

المائدة 69

{2} يَسئلونَكَ عنِ الأهِلةِ قُل هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاس وَالحَجُّ وَليسَ البِرُّ بأن تَأتُوا البُيُوتَ مِن ظُهُورهَا وَلكِنَّ البِرَّ من اتَّقى وأتُوا البُيُوتَ من أبوابِهَا واتَقُوا الله لعَلَكُم تُفلِحُونَ.

البقرة 2

<u>بل أن القرآن يقول أن شهر النسيء القبطي كفر!</u>

جاء في سورة التوبة 9:36 و37 " إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا في كتاب الله يوم خلق السماوات وأرض منها أربعة حُرُمٌ ذلك الدين القيم فلا تظلمُوا فيهن أنفسكم وقاتلوا المُشركين كافة كما يُقاتلونكم كافة واعلموا أن الله مع المُتقين إنما النسيءُ زيادة في الكفر يُضل به الذين كفروا يُحلونهُ عاما ويُحرمونهُ عاما ليُوطئُوا عدة ما حرم الله فيُحلموا ما حرم اللهُ زين لهُم سُوءُ أعمالهم واللهُ لا يهدي القوم الكافرين".

تحليل فلكي: لا يمكن أن نعتبر الحساب الفلكي الطبيعي كفرا إلا في حالة واحدة وهي أن يكون المتكلم جاهلا بعلم الفلك لقد عرف العلماء أن هناك ثلاثة أنواع من السنوات:

<u>(1) السنة الشمسية التي تراقب حركة الأرض حول الشمس</u>

أن الآرض تدور حول نفسها مرة كل يوم وحول الشمس مرة كل سنة فتكمل هذه الدورة في 365 يوما وثماني ساعات و11 دقيقة و11 ثانية _ وفي السنة الفرعونية القبطية قام الفراعنة بتقسيم السنة على 12 شهر كل منها 30 يوم= 360 يوما وأضافوا شهرا صغيرا أسموه النسئ يتكون من ما تبقى من السنة 365-360 = 5 أيام أي أن شهر النسئ هو خمسة أيام فقط ولكن السنة أكثر من 365 بثمان ساعات وعدة دقائق وعدة ثواني التي تكون يوما كل أربع سنوات فأضافوا يوما كل أربع سنوات ليكون شهر النسئ 5 أيام في السنة البسيطة و6 أيام في السنة الكبيسة.

<u>(2) السنة القمرية</u>

قسمها العرب الى 12 شهرا كل منهما 30 يوما وبهذا نجد أن أعيادهم ليست ثابتة حسب فصول السنة مرة تجئ في الصيف أو الشتاء ...الخ.

(3) **<u>السنة النجمية</u>**

وقد تبعها الفراعنة أيضا فكانوا يراقبون نجما يظهر بعد فيضان النيل إسمه نجمة الشعرى اليمانية.

لقد بلغ تقديس إله الإسلام للقمر درجة أنه أعتبر أن شهر النسئ كفرا مع أنه يتفق مع الواقع العلمي للتقويم الشمسي الصحيح.

ادانة الكتاب المقدس لعبادة الشمس والقمر والكواكب.

لقد أدان الكتاب المقدس عبادة الشمس والقمر والكواكب في مواضع عدة منها:

ويقولُ الربُّ: "في ذلك الحين ينبُشون من القُبور عِظام مُلوكِ يَهُوذا وعِظامَ رُؤسائهم وكهنَتَهم وأنبيائهم، وعِظام سُكان أورُشليم. ويَعرضُونها أمام الشمس والقمر وكواكب السماءِ التي أحَبُها وعَبَدُوها وضَلوا وراءَها، واستشارُوها وسَجَدُوا لها، فلا تُجمعُ ولا تُدفنُ، بل تصيرُ نُفاية فوقَ وجهِ الأرض، وجميع البِقَية الباقية من هذه العشيرة الشريرة المُشتتة في جميع البقاع التي نَفَيتُهم إليها يُؤثرُون المَوت على الحياة".

أرميا 8:1-3

"وقُل لهم: هذا ما يُعلنهُ الربُ القديرُ، سأحطم هذا الشعب وأدمر هذهِ المدينة كما يُحطمُ المرء إناء الخزاف، بحيث لا يُمكن إصلاحهُ، ويدفن الرجالُ في توفه إذ لن يتوافر موضع أخرُ للدفن. هذا ما سأجربهِ على هذا المكان وعلى سُكانهِ يقول الربُّ، سأجعل هذه المدينة مثل تُوفة، وأحيل بُيوت أورُشليم وبيُت مُلوكِ يهوذا الى موصع نجاسة، وكذلك كُل البيُوتِ التي أحرقوا على سُطوحِها بُخورا لكواكب السماء، وسَكبُوا سَكائب خمر لألهة أخرى".

أرميا 19:11-13

هذه كلِمة الرب التي أوحي بها الى صفنيا بن كوشي بن جَدليا بن أمريا بن حزقيا، في عهد حُكم يُوشيا بن آمُون ملك يهُوذا. يقولُ الرب:" سأمحُو محوا كل شيء عن وجهِ الأرض. أبيدُ الإنسانَ والحيوان وطيور السماء وسمك البحر، وأقضي على الأشرار ومعاثرهم، وأستأصل البشر عن وجهِ الأرض، يقول الربُّ. أمُدُّ يدي لأعَقبَ يهُوذا وكل أهل أورُشليم، وأفني من هذا الموضع بقية عبدة البعل، وكل كهنة الوثن. والذين يصعدُون الى السُّطوح للسجُودِ لكواكب السماء، والذين يجثون عابدين الرب حالفين بإسمه، وبإسم ملكوم أيضا. والذين ارتدُّوا عن اتباع الرب، والذين كفوا عن طلبه والتماسهِ.

صفيا 1:1-6

الباب الثالث عشر

الآيات الشيطانية

عن كتاب "النسخ في الوحي" ـ سيد محمود القمني:

تروي كتب التاريخ الإسلامية وكتب السير والأخبار، أن النبي (ص) في المراحل الأولى من دعوته في مكة، وبعد أن هاجر بعض أتباعه الى الحبشة، ورأى تجنب قريش له، وأنه في نفر قليل من أصحابه ـ استشعر الوحشة فتمنى قائلا:" ليته لا ينزل علَّي شيء ينفرهم مني". كما يروي أنه قرأ سورة النجم في المسجد الحرام أمام سادات قريش، ومعه بعض أتباعه يصلون معه، ولما وصل الى الآيات " أفرأيتم اللات والعزى، ومناة الثالثة الأخرى" النجم 19،20، يروي أنه استمر يقول:" تلك الغرانيق العلا، إن شفاعتهم لترتجى". مما أدى الى صدى واسع النطاق، حيث أعلنت قريش رضاها عن محمد (ص) وعما تلى من آيات، وقال:" بلى؛ لقد عرفنا أن الله يحيي ويميت، ويخلق ويرزق، لكن هذه تشفع لنا عنده، وإذا جعلت لها نصيبا، فنحن معك". ويذكر (الطبري) أن" المؤمنين صدقوا نبيهم فيما جاءهم عن ربهم (؟!).. فلما انتهى الى السجدة المسلمون بسجود نبيهم، تصديقا لما جاء به واتباعا لأمره، وسجد من سجد من المشركين وغيرهم، لما سمعوا من ذكر آلهتهم، فلم يبق في المسجد مؤمن ولا كافر إلا وسجد". وروى البخاري عن ابن عباس قوله: إن رجلا واحدا لم يسجد لكبر سنه ووهن عظمه،" إلا رجلا رأيته يأخذ كفا من تراب فيسجد عليه"، وقد سمى الواقدي هذا الرجل بالإسم في قوله" فسجد المشركون كلهم إلا الوليد بن المغيرة، فإنه أخذ ترابا من الأرض ورفعه الى وجهه، ومعلوم أن (الوليد) كان من أشد الناس على النبي (ص) كما كان من ذوي الثراء بين وجهاء مكة وأشرافها، ولا شك أن موقفه هنا بحاجة الى بعض التأمل.

وتتابع الروايات حكايتها، فتقول: إنه كان لتلك القصة المعروفة في التراث الإسلامي بحديث الغرانيق، صدى واسع، حتى أنه وصل الى مسامع المسلمين المهاجرين لدى نجاشي الحبشة، فقفلوا من مهجرهم راجعين بعد أن انتفى سبب اغترابهم. لكن هؤلاء التقوا في طريق عودتهم بركب من كنانة، أخبروهم أن النبي (ص) ذكر شفعاء، قريش بخير فتابعوه، لدرجة أنهم صلوا صلاته، ثم ارتد عنها فعادوا لمعاداته، فبعد أن قال: " أفرأيتم اللات والعزى، ومناة الثالثة الأخرى، تلك الغرانيق العلا، إن شفاعتهن لترتجى"، عاد يقول: إن جبريل جاءه وعاتبه قائلا: " ماذا صنعت؟ لقد تلوت على الناس ما لم آتك به من الله عز وجل، وقلت ما لم يقل ثم تلى " أفرأيتم اللات والعزى، ومناة الثالثة الأخرى، ألكم الذكر وله الأنثى، تلك إذن قسمة ضيزي". النجم 22:19 .

وقد عقب القدامى والمحدثون على حديث الغرانيق لنفيه، واستهجانا له، وللإيجاز يقول (د.شعبان محمد إسماعيل) من المحدثين:" وهذه القصة غير ثابته لا من جهة النقل، ولا من جهة العقل". ومن القدامى (أبو جعفر النحاس) الذي هاله أمرها، فقام يعلن : أن " هذا حديث مفظع وفيه هذا الأمر العظيم". وقدم محقق كتابه لذلك بحجة منطقية تماما، وهي " أنه لو جوزنا ذلك، لذهبت الثقة بالأنبياء، ولوجد المارقون سبيلا للتشكيك في الدين، ثم أردف بما جاء عند (الواقدي) وهو يقول: "... حتى نزل جبريل فقرأ عليه النبي هذا، فقال له: ما جئتك به!، وأنزل الله: لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلا". الإسراء 12 .

والآية المشار إليها، " لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلا" جاءت في عتب الله تعالى على نبيه الكريم (ص)، في الآيات **{ وإن كادُوا ليفتنونك عن الذي أوحينا إليك لتفتري علينا غيرهُ وإذا لأتخذوك خليلا، ولولا ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلا }** الإسراء 73،74 ، ثم نجد تبريرا قرآنيا لما حدث، لا مجال فيه لخلط أو لبس، يوضح أن الشيطان لعنه الله، انتهز فرصة تمني النبي القرب من قومه، فتدخل في الوحي إبان تلقيه، وألقى إليه بتلك الآيات الفظيعة، فنسخها تعالى بالآيات الصادقة. ويعلمنا الله تعالى أن ذلك ليس أمرا جديدا ولا غريبا، فقد كان الشيطان يفعلها مع أي نبي من الأنبياء والرسل (المكرمين) إذا تمنى أحدهم ذات الأمنية أو مثلها، وقد جاء هذا الإيضاح المبين في قوله جل وعلا: **{ وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته }**. الحج 52.

ويعقب أبو جعفر النحاس الذي استفظع الأمر على تلك الآيات، فيؤكد أنه حتى لو كان حديث الغرانيق قد حدث، وأن الشيطان وجد الفرصة في التمني، فإن النبي لم ينطق بما ألقى الشيطان، أو كما قال: " ... فيكون التقدير على

هذا: ألقى الشيطان في تلاوة النبي (ص) إما شيطان من الجن، ومعروف في الآثار أن الشيطان كان يظهر في كثير وقت النبي (ص) ، فألقى هذا في تلاوة النبي (ص) من غير أن ينطق به النبي (ص) ، ومن هنا يحتمل أن يكون مناط احتجاجه ما جاء في آيات أخرى تقول: { **فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم، إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون، إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مُشركون }.** النحل 100:98.

هذا ما كان من أمر حديث الغرانيق، وما كان من إيضاحات القرآن الكريم لما حدث، ولكن ما يعنينا ونهتم به ويدخل في إطار بحوثنا، بعيدا عن بحوث المغيبات الدينية ذاتها، التي لها ميدانها وفرسانها، هو قراءة الواقع الذي حدثت فيه الحادثة، ومعرفة الظروف التي لا بستها. لنفهم كيف كان القصد من الأمر فتنة قوم في قلوبهم مرض، وكيف قست قلوب آخرين فتم اختبارهم وفرزهم، وبالإطلال على تلك الفترة الزمنية نرى الواقع لم يفرز بعد عددا من الحواجز بين النبي وقومه، لكن كانت هناك حواجز قد قامت بالفعل، كانت من وجهة المشركين هي الحواجز الأساسية والحاسمة. والمعلوم أن قريشا لم تكن تختلف مع المصطفى (ص) حول المسألة العقدية الأولى لدعوته، وهي الإيمان بإله واحد يحيي ويميت يخلق ويرزق، ومصدر علمنا بذلك من القرآن الكريم ذاته، والذي شهد لهم بذلك في عدد من الآيات المكرمة، ومن تلك الآيات { ولئن سأتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر **ليقولن الله** فأني يؤفكون } العنكبوت 61، { قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم، **سيقولون لله** قل أفلا تتقون } المؤمنون 86-87، وغير تلك الآيات بذات المعنى كثير. ولكن وجه الخلاف، والحاجز الكبير، كان يتمثل في دعوة النبي (ص) لإسقاط شفاعة الشفعاء من أرباب العرب.

وهكذا، كان معنى أن يلغي محمد (ص) الشفعاء، هو إلغاء الحاجز الأخير بين القبائل وبعضها، وإسقاط الرمز القوي السيادي المتماهي مع السيد الأرستقراطي هذا ناهيك عن نظرتهم الى النبي (ص) بحسبانه يسعى الى إلغاء سادة القبائل من شفعاء، ليصبح هو السيد الأوحد لكل القبائل، لتنتقل له وحده الشفاعة من حيث كونه صاحب العلاقة مع الله وليس الشفعاء ولا الكهان ولا التجار. أي صاحب القرار القاطع والنهائي الناطق باسم الله، وذلك عبر الشهادة له بأنه رسول الله، هو ما يتهدد مصالحهم التجارية جميعا بالدمار.

وفي ظل ذلك الوضع يمكن قراءة حديث الغرانيق مرة أخرى، ففي تلك الظروف، ومع مهاجرة الأتباع للحبشة، ومع قسوة الواقع ومرارته، ومع الغربة وسط الأهل، ومع الظرف النفسي الذي لا بد تركته تلك الأوضاع في النبي (ص)، تمنى، فتدخل الشيطان، فقال ما قال، فتبعته قريش وخاصة ساداتها الذين تواجدوا تلك اللحظة بالحرم. لأنه هكذا لن يمس الأمر مصالحهم، فسجدوا بسجود النبي (ص)، وصلوا معه صلاته. وهنا كانت الفتنة المقصودة بقول الآيات { ليجعل ما يُلقي الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض، والقاسية قلوبهم } الحج 53. والقلوب كانت آنذاك بمعنى العقول، أي الذين لا يفقهون ولا يدركون المرامي البعيدة لدعوة النبي (ص)، تلك المرامي التي سبق أن أدركها العقلاء منهم رغم عدم إيمانهم، وأفادوهم بها، وشرحوها لهم، وهو ما لمسناه في قول (عتبة بن ربيعة) لهم بعد أن التقى النبي (ص) ، وأدرك الأهداف الكبرى للدعوة، ولا شك أن (عتبة بن ربيعة)، وهو أحد الأرستقراطيين الكبار، قد أدرك الأبعاد الكبرى للدعوة والتي كانت تبغي توحيدهم جميعا في دولة كبرى تناجز الروم والعجم، دون إضرار بمصالحهم التجارية، وهو ما حدث بعد ذلك بالفعل. بل، وبعد انتصار الدعوة تم تمكين هذه المصالح وتقويتها ودعمها، فالنبي بعد فتح مكة لم يضمن للمكيين مكانتهم بين العرب فقط، بل ضمن لقريش ولزعامتها مركزهما في الإسلام. والناظر لفتح مكة بقليل من وضوح الرؤية، يكشف أن فتح مكة لم يكن هزيمة لقريش، وهو الأمر الذي نلحظه في تذمر الأنصار، ثم بعد ذلك عمل النبي (ص) بنفسه على تكريس الوضع الإجتماعي القائم، عن طريق الأعطيات والإقطاعات. ثم دعم الوحي ذلك بتكريس الملكية الفردية " والله فضل بعضكم على بعض في الرزق " بل قدم عقلنة واضحة للتفاوت الطبقي كما في قوله تعال: { ضرب الله مثلا عبدا مملوكا لا يقدر على شيء ومن رزقناه رزقا حسنا فهو ينفق منه سرا وجهرا هل يستوون الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون } النحل 75، ناهيك عن إعادة سر التفاوت الطبقي الى التقدير الإلهي في قوله: { وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم في ما آتاكم } الأنعام 165.

لكن كان واضحا أن الأمر بهذا المعنى لم يصل الى أذهان الأرستقراطيين المكيين في ظل دعوة الإسلام الأولى للمستضعفين، فكانت فتنتهم بحديث الغرانيق، لكن توتر بعض المسلمين نتيجة ما ألقى الشيطان، وتضعضع أحوالهم المعنوية، كان لا بد أن تتبعه العودة السريعة بإيضاح دور الشيطان فيما حدث. والذي كان أيضا اختبارا للمسلمين المستضعفين لإظهار مقدار الطاعة، ومدى مسارعتهم إليها، مسارعة إسماعيل الى الذبح طاعة للأمر الإلهي. وعليه فقد جاء النسخ لما ألقى الشيطان في الوحي، عملا إجرائيا كانت أطرافه الإعتبارية: القبلية في جانب والوحدة المرتقبة في جانب آخر، وأطرافه الشخوصية هي: أهل مكة في جانب، والنبي (ص) في جانب، بينما كانت

أدوات هذا الجدل هي الشفعاء، والشيطان، وكلمات الله التي تمثلت في وحي لا كالإلهام، ولا كالخاطر، ولا كالهاجس، لكنه الوحي الصادق الذي أدى دورا غني الدلالة، ويشير بدون إبهام الى صدوره عن فاعل واع مريد، كان الوحي هنا فعلا شعوريا يتسم بالإدراك والوعي التأمين لما يحدث، ولشكل الإستجابة المطلوبة بحسب شروط الواقع وضروراته. كان وعيا بطبيعة المرحلة الآنية، وبطبيعة المرحلة المقبلة وما سيلحقها من تحولات. لكن يثور هنا السؤال: **كيف يتحول الوحي ويتبدل، وهل يمس ذلك قدسية كلمة الله الثابتة؟** وهذا ما دعى بعد ذلك الى نشوء مبحث هام وكبير من مباحث علوم القرآن، هو (الناسخ والمنسوخ في القرآن الكريم)، وهو الظاهرة التي لحظها القرشيون حتى قالوا: " ألا ترون الى محمد، يأتي أصحابه بأمر ثم ينهاهم خلافه، ويقول اليوم قولا يرجع عنه غدا ؟"، وهي ذات المقالة التي قالها اليهود اليثاربة بعد الهجرة، عندم تحول النبي (ص) بالمسلمين في الصلاة ـ عن بيت المقدس ـ الى كعبة مكة. وكان ذلك التحول والتبدل مدعاة لرد الآيات الكريمة: { وإذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل قالوا إنما أنت مفتر بل أكثرهم لا يعلمون } النحل 101. والمعنى أن هناك آيات تم استبدالها بأخرى، مع إشارة واضحة الى احتساب المشركين لذلك التبديل افتراء من النبي (ص) على الله جل وعلا، والله منه برئ. إلا أن الآيات أوضحت بلا إبهام أن من يرفضون منطق الإستبدال والتحول (أكثرهم لا يعلمون)، وهو ما دعمته الآيات بقولها: { يمحو الله ما يشاء ويثبت } الرعد 39. وهو ما يشير ليس فقط الى الإستبدال، بل الى محو آيات بعينها، ثم بقولها { ما ننسخ من آية أو ننسها نأتِ بخير منها أو مثلها } البقرة 106.

وقد جاء عن ابن عباس من تفسير الآية" " يمحو الله ما يشاء ويثبت أن الله يبدل ما يشاء من القرآن فينسخه، ويثبت ما يشاء فلا يبدله وما يثبت إلا في كتاب " وعن (قتادة) عن عكرمة قال:" إن الله ينسخ الآية بالآية فترفع وعنده أم الكتاب ـ أي أصل الكتاب " وعن (قتادة) أيضا في شرح الآية { منه آيات محكمات } أل عمران 7، قال:" المُحكمات هي الآيات الناسخة التي يعمل بها "، مما يشير الى غير المحكمات التي لا يعمل بها، على ذمة (قتادة). وإزاء القول بأن الآيات المنسوخ منها والناسخ، المعلوم لدينا أو المجهول ـ لنسخه أو محوه ـ إنما في كتاب أزلي محفوظ هو أم الكتاب، يقول د. نصر أبو زيد:" النسخ هو إبطال الحكم وإلغائه، سواء ارتبط الإلغاء بمحو النص الدال على الحكم ورفعه من التلاوة، أو ظل النص موجودا دالا على الحكم المنسوخ، لكن ظاهرة النسخ تثير في وجه الفكر الديني السائد المستقر إشكاليتين يتحاشى مناقشتهما، الإشكالية الأولى: كيف يمكن التوفيق بين هذه الظاهرة بما يترتب عليها من تعديل للنص بالنسخ والإلغاء، وبين الإيمان الذي شاع واستقر بوجود أزلي للنص في اللوح المحفوظ. والإشكالية الثانية: هي إشكالية جمع القرآن ... ومشكلة الجمع ما يورده علماء القرآن من أمثلة قد توهم أن بعض أجزاء النص قد نسيت من الذاكرة الإنسانية... ولم يناقش العلماء ما تؤدي إليه ظاهرة نسخ التلاوة، أو حذف النصوص سواء بقى حكمها أم نسخ أيضا، من قضاء كامل على تصورهم الذي سبقت الإشارة إليه لأزلية الوجود الكتابي للنص في اللوح المجفوظ.. فإن نزول {الآيات المثبتة في اللوح المحفوظ ثم نسخها وإزالتها من القرآن المتلو، ينفي هذه الأبدية المفترضة الموهومة .. فإذا أضفنا الى ذلك المرويات الكثيرة عن سقوط أجزاء من القرآن ونسيانها من ذاكرة المسلمين، ازدادت حدة المشكلة.. والذي لا شك فيه أيضا، أن فهم قضية النسخ عن القدماء لا يؤدي فقط الى معارضة تصورهم الأسطوري للوجود الأزلي للنص، بل يؤدي أيضا الى القضاء على مفهوم النص ذاته ".

الباب الرابع عشر

القمر الأب أو الضلع الأكبر فى الثالوث

عن كتاب الأسطورة والتراث ـ د. سيد محمود القمنى

تأسيس (1):

في صباه، وهو يصبو الى الفهم والتفسير، اتجه العقل البشري نحو ظواهر الطبيعة النافعة، والغضوب الباطشة، واللينة السلسة، والمزمجرة المدمرة، يرجو بينه وبينها تواصلا، يبغي به نفعا، وتوقيا لعصف العاصف منها وزلزلته، فسجد لها عابدا، وتقرب منها بما رآه أهلا لها، متزلفا، راغبا للخير، دافعا للشر.. فكان أن تصور الكون كله مليئا بالحياة.

وجنح به الخيال الى تأليه المظاهر الكبرى في الوجود، من الشمس الى القمر الى الكواكب الى النجوم الى البرق والرعد، حتى النهر والصخر والخصب والجدب، فجعل لكل حالة في الطبيعة آلهة معينة بها، تستحق منه العبادة، والتقرب إليها بأثمن ما لديه، ضمانا لعطفها ودرءا لغضبها.

وإبان ذلك أو ربما قبله، قدس الإنسان ـ فيما رآه جديرا بالقدسية ـ آباءه وأسلافه الغابرين، وكان لظاهرة الأحلام دورها في تقديس الأسلاف، فلم يكن لدى الإنسان في مبتدأ أمره تفسير واضح لأحداث المنام وأحواله، وهذا المبتدأ لم يكن إلا مرحلة الطفولة في التطور البشري، فكان كالطفل واضح الحلم جَليه، فكان لا يفرق بين حدث الحلم وحدث الواقع، وفي المنام كان الأسلاف الراحلون أحياء فاعلين، فخرج بنتيجة مؤداها أن أباه الراحل لم يزل موجودا وحيا ومؤثرا، وإن كان مخفيا بطريقة ما.

ومن هنا سوغ اعتقاده في أرواحية الطبيعة وصبغها بالحياة، أن سلفه الراحل هو حالة من حالات الطبيعة، أو هو في واحدة من ظواهرها، فربما كان في هذه الشجرة أو تلك النبتة، أو في هذا الحيوان النافع، أو في تلك المياه الجارية.

وهي تلك المرحلة المسماة ـ إصطلاحيا ـ بالطوطمية، والتي تم فيها تقديس الكائنات الأرضية، واعتبارها محلا لسكنى السلف الراحل، مع الأخذ بالحسبان أن الطوطمية من كلمة (أوطوطيمان) من العهد الكونكي، وتعني (هذا من قرابتي).

وفي مرحلة تالية، وعندما أخذت العشائر البدائية تتجمع في قبائل، واتصلت القبائل مكونة مجتمعا أكبر وأكثر رحابة واتساعا، لم يعد ممكنا فرض روح السلف المعبود، الحالة في حيوان طوطمي مقدس لدى قبيلة، على قبيلة أخرى تقدس طوطما آخر، فكان أن تم تمثل السلف في ظاهرة ترضي جميع الأطراف المتجاورة أو المتحدة، فإرتفع العقل بسلفه المعبود عن التمثل في حيوان على الأرض، الى تمثله في مظهر كوني أكبر، فكانت عبادته المخلصة للكواكب والنجوم إن هي إلا للأسلاف المقدسين.

تأسيس (2):

على ناتج البحوث الأركيولوجية، إفترض الباحثون أن المجتمع الإنساني قد مر بمرحلتين شكلا نظامين اجتماعيين مختلفين: مجتمع سادته المرأة، حيث كانت تستقر الى جوار أطفالها، بينما يخرج الذكور للقنص، وكانت المرأة فيه للجميع، لم يكن هناك نظام زواج بالمعنى المعروف بعد، ومجتمع ساده الذكور، بما في الذكورة من قسوة وخشونة، وقد اختلف العلماء حول أي المجتمعين كان سابقا للآخر، بينما افترضنا في طرح خاص سبق لنا وضعه في دراستنا (أضحية للذكر، قربان للأنثى) (1) أن إختلاف النظامين: الذكري والأنثوي، ليس اختلافا زمانيا، إنما هو اختلاف مكاني. ودللنا على أن المجتمع الذكري الأبوي كان مجتمعا رعويا بدويا عبد آلهة ذكور، الى جوار المجتمع الأنثوي الأموي الذي سادته المرأة وعبد إلهات نساء، يمثلن القدرة على الميلاد والخصوبة ومنح الحياة،

تأسيسا على فرضنا أن المجتمع الأنثوي الأمومي كان مجتمعا زراعيا، شكل فيه الخصب ظاهرة أساسية مما جعلها أس الإعتقاد والعبادة، الممثلة في إلهة خصبة ولود، كانت أما أولى مقابل عبادة الأب الأول في المجتمع الرعوي البدوي الذكري الأبوي، وبمرور الزمن تمكن البدو الرعاة من التسلل الى المناطق الزراعية، في شكل غزو بطئ تدريجي أدى الى سيادة الذكور في النهاية، ونشوء نظام الزواج، ومن ثم ترك الأقدمون لنا آباءهم وأمهاتهم ممثلة في آلهة كونية، تركزت خاصة في الظواهر الفضائية.

تأسيس (3):

معتمدا على نتائج بحوث كل من (آتكسون وروبرتسون سميث) افترض (سييجموند فرويد) أن أساس القرابين، التي كانت تقدمها الشعوب القديمة لآلهتها، في شكل أضاحي من البشر، أو الحيوان بعد ذلك كبديل عن الإنسان، والذي لم يزل مستمرا الى الآن، والذي تمثل في ديانة (فرويد) اليهودية في ذبيحة من الغنم الذكر الخالي من العيوب، في عيد الفصح العبري افترض أن ذلك يعود الى ذكرى في اللاشعور الجماعي، تعود بدورها الى أيام سيادة الذكور المطلقة في المجتمع البدائي فيما يزعم وقسوة الأب الذكر الفظ، وإرهابه لبنيه، واستيلائه بإستمرار على النساء جميعا، وقتله لأي من أبنائه يثير غيرته، أو لأي سبب آخر، مما أدى الى تحالف الأبناء ـ يوما ـ ضد الأب القاسي والثورة عليه، وقتله وافتراسه معا، وما ذبيحة الفصح أو الأضحية والإجتماع حولها وأكلها جماعة، إلا تذكارا لإنتصار حلف الأبناء ضد الأب الشرس وقتله وافتراسه (2).

وقد عارضنا رأي (فرويد) في الدراسة المشار إليها آنفا، وطرحنا فرضا آخر لتفسير طقس القربان والتضحية، على أساس مختلف تماما، إعتمادا على رؤية تأملية خاصة في كلمة الأضحية والتضحية Sacrifice فرأينا الأب الأول فاديا استشهد فداء بنيه، وضحى بنفسه دفاعا عنهم، ومن أجل استمرار حياتهم، في صراع مع واحد أو أكثر من ضواري ذلك الزمان.

كما افترضنا أن هذا لا بد قد حدث في المجتمع الأبوي الذكري البدوي الرعوي حيث ارتفع الأب بمجد عمله في نظر أبنائه الى السماء مقدسا، ليحل في أوضح كواكب البادية وأقربها الى حس الرعاة، أقصد القمر، الذي أصبح إلها يستحق التضحية له بأعز ما يملك الإنسان، عرفانا له بتضحيته السالفة.

وللتشابه القائم بين قرني التيس أو الخروف أو الثور، وبين الهلال، فقد تصور الإنسان أن هذا الحيوان إن هو إلا سلفه المعبود ومن ثم قام بذبحه في احتفالات خاصة، ثم أكله ليحتويه في حشاه وبطنه، تذكارا بتلك الأيام الغابرة.

ورغم اختلاف المجتمعات التي تحتفل بهذه المناسبة (الذبح)، فإن العين الفاحصة لكل احتفال أضحوي ـ رغم اختلاف الطوائف ـ ستلاحظ غلبة الطقوس القمرية على هذه المحافل.

وأحيانا قام الإنسان بذبح أحد أبنائه، أو نذره للذبح كضحية لربه، وانتشر هذا الطقس انتشارا واسعا في وقت من الزمان، ويبدو أنه الأساس في ظاهرة الختان، التي اعتبرت ـ لدى كثير من الباحثين ـ ذبحا جزئيا، بديلا عن الذبح الكلي الذي كان يمارس في غابر الأيام.

أما القرابين في المجتمع الأمومي، الذي عبد ربات ولادات منخصبات في مناطق زراعية، فقد افترضنا أنها ممارسة الجنس الجماعي، وهو ما عثرنا عليه في طقوس كثير من الإلهات الإناث في حوض المتوسط، وسبق أن فصلنا القول فيه في دراستنا (المشار إليها) حيث وجدناه منتشرا بشكل وبائي حاد، وكان قربانا وتقربا يتلاءم مع نظام زراعي، للخصب والميلاد والحياة فيه الدور الأساس، وتلعب فيه الإلهات الإناث دور الخصب والولادة ومنح الحياة، ويقوم على اساس قديم، سادت فيه الأنثى التي لا تعرف رجلا واحدا، وبعد تداخل المجتمعين: الرعوي الأبوي، والزراعي الأمومي، وسيادة الذكور ونشوء نظام الزواج، بدأت محاولات للتخفيف من طقس الجنس الجماعي بما يتلاءم مع الأوضاع الجديدة، كما خفف من قبل ذبح الطفل الى عملية ختان، فتحول الطقس من جنس جماعي عام، الى فريضة يجب أن تؤديها المرأة ولو مرة واحدة على الأقل في حياتها، وهي ممارسة الجنس مع غرب عنها.

ثم تطور الأمر نحو مزيد من التخفيف، فتم تخصيص طائفة من النساء كمنذورات لمعابد الإلهات الإناث، يقمن بهذه المهمة بشكل خاص بديلا عن بقية النساء وفداء لهن، أما النساء اللأتي لا يقمن بذلك، ولا يدخلن في سلك الكهانة الجنسية، فكان مفروضا عليهن استبدال الجنس مع غريب بقص شعورهن للإلهة المعبودة.

تأسيس (4):

ولأن الأب الذي في السماء كان أبا في المجتمع الذكري الأبوي الرعوي، ولأن الإلهة التي في السماء كانت أنثى ولودا في المجتمع الأنثوي الأمومي الزراعي، ولأن المجتمعين تداخلا وكذلك النظامان، فقد زوج العباد آلهتهم بعضها من بعض، ومن ثم كان القمر رب البادية وأبو الرعاة، زوجا للأم الكبرى التي كانت صاحبة أخطر دور في حياة المحصول الزراعي ونضجه، أقصد الشمس.

ولأن هناك زواجا قد حدث فلا بد من وليد، فكما كانت حياة الأب الأول والأم الأولى على الأرض، فلا بد أن تكون كذلك في السماء، وبذلك إكتملت أضلاع الثالوث الإلهي، نعم، اختلف وضع الزهرة والشمس ما بين مجتمع وآخر، فتارة كانت الشمس ذكرا وتارة أنثى، وتارة كان كوكب الزهرة زوجة أنثى وتارة ابنا ذكرا، تبعا لإختلاف المجتمعات وطبيعة البيئة وعلاقتها بالشمس والزهرة، إلا أن القمر بالذات، كتبت له السيادة بسيادة الذكور المطلقة، فظل هو الأب الذكر دائما، وأخطر ضلع في الثواليث الإلهية المختلفة: الذي ربما كان أهمها لبحثنا الآن ثالوث الجنوب العربي اليمني، الذي قدس الثلاثي السماوي: القمر كإله ذكر أخذ دور الأب، والشمس كإلهة أنثى أخذت دور الأم..و(عشتر) أو الزهرة كإله ذكر أخذ دور الإبن. لكن القمر كان هو الإله المقدم، فعبده القتبانيون والحميريون بالإسم (عم)، وعم القبيلة أبوها وسيدها، وعبده الحضارمة بالإسم (سين)، وعبده المعينيون بالإسم (ود)، وعبده السبئيون ـ فيما يقول الباحثون ـ بالإسم (المقة).

سين وياسين:

و (سين) كبير آلهة حضرموت، كشفته بعثة بريطانية في منطقة الحريضة عام 1944، في نقوش تمتد بطول الشريط الساحلي لجنوب الجزيرة العربية، على امتداد أرض الأحقاف (3) وقد كان إله القمر باسم (سين) معروفا في عبادات الرافدين القديمة (4)، كما كانت له معابدة ومزاراته في شبه جزيرة سيناء، والتي يرى الباحثون أن اسمها مشتق من اسمه (5).

ونرى أن الإسم (سين) يتركب من (ن) النون الأخيرة، وهي أداة التعريف في العربية الجنوبية، تلحق بآخر الاسم المراد تعريفه، و(سي) وهي في اللغات السامية بشكل عام إنما تطلق على الشياة عموما (الخراف، الماعز، البقر والثيران .. الخ)، وهي التي تطورت بعد ذلك من (سي) الى (شاة) (6)، وعليه فإن الاسم (سيم)، كعلم دال على إله القمر، إنما يعني الإله التيس أو الإله الثور، وهو ما يلتقي تماما مع ألقاب القمر المنتشرة في الجنوب اليمني وهو اللقب (الثور) (7).

ولكن الأمر اللافت للنظر في أمر الإله (سين)، أن بعض المتخصصين في اللغات السامية وعلمائها، يرون أن الإسم هو (ياسين) (8)، وهو مما يستدعي التساؤل: هل هناك علاقة بين (سين) أو (ياسين) وما جاء في القرآن الكريم (يس والقرآن الحكيم إنك لمن المرسلين) (9). خاصة إذا أخذنا بالحسبان ملاحظة للباحثة اليمنية ثريا منقوش في ملاحظة هامشية تقول: إن الإله (سين) ظل كمكبوت في العقل اليمني يُستدعي اليوم في قرى اليمن عندما يتعرض عزيز لحادث، فيقولون: (ياسين عليك)، كما يقول المصريون (اسم الله عليك) (10)**!!** وهي تقصد بدون مواربة أن الإله (سين) كان يعرف أيضا باسم (ياسين)، ولعل (الياء هنا للنداء وربما كانت للترجي)، وهو ما يدعمه ما جاء عند المؤرخ اليمني (أبو الحسن الهمداني) في حديثه عن الإله القمري السبأي (المقة) بقوله: إن أصل الكلمة هو (يلمقة) (11)، أو (يا المقة).

هذا إضافة الى ما يجب وضعه في الإعتبار عن اعتياد القرآن الكريم القسم بمقدسات عرب قبل الإسلام وتمجيدها، مثل قسمه بالشمس والقمر صراحة، وبالكواكب الخمس المعبودة المعروفة بالخنس الجوار الكنس في قوله: (فلا أقسم بالخنس الجوار الكنس) (12)، أو كما في قوله (فلا أقسم بمواقع النجوم وأنه قسم لو تعلمون عظيم) (13).

وقد كان من أسماء الإله القمر لدى عرب الجنوب الإسم (شهر) وكان منتشرا بدوره في كل اللغات السامية كعلم على إله القمر في حالة الهلال، ولم يزل مستعملا الى الآن في اليمن (14) وقد جاء بنفس الإسم والمعنى في القرآن الكريم في قوله: (فمن شهد منكم الشهر فليصمه) (15) بمعنى من شهد منكم الهلال**؟!**.

الأب الودود:

وقد عبد المعينيون القمر بالإسم (ود)، ويمعني الأب، والودود أو الحنون، وفي عبادة هذا الإله المعيني دعم آخر لنظرتنا التي طرحناها مقابل نظرية (فرويد)، ورأينا فيها أن طقس التضحية هو تكرار لحدث استشهاد الأب الأول

دفاعا عن أبنائه في معركة مع ضار شرس، ثم تحول الأب بعد موته لحيل في طوطم حيواني (خروف أو تيس أو ثور). وبعدها ارتفع ـ في نظر أبنائه وأحفاده ـ ليتلبس بالقمر، للتشابه بين قرني الطوطم الأرضي وبين الهلال.

وقد جاءت النصوص تشير الى الإله القمر بالصيغة (ودم شهرن)، وهي تعني الأب القمر (ود= الأب + شهر= الهلال + ن أداة التعريف اليمنية = الأب القمر)، وقد ورد في صيغة أخرى هي (دم شهرن) (16) وتحمل المعنى نفسه (الأب القمر).

ونلاحظ هنا أن الأب حمل في إسميه معاني الود والرحمة والمحبة، إضافة الى دماء الشهادة والتضحية، فدخل في تركيب اسمه ـ إضافة للود ـ معنى الدم، في (ودم)، وفي (دم)، وما زلنا نعبر الى اليوم عن الروابط القرابية بأنها صلة (دم)، ونعني بها القرابة من جهة الأب بالذات، لأن قرابة الأم صلة (رحم)، والميم في (ودم شعرن) هي للصلة والإتصال والربط بين (ود) و (شهرن)، ويدعمنا أكثر أن (ود) الأب الذي حارب الضواري واستشهد في سبيل أبنائه ـ في نظرتنا ـ قد مثله الجنوبيون في هيئة رجل مقاتل شجاع محارب (17) ولقبوه بعدد من الألقاب التي تحمل معاني التبجيل والحب، فناداه اللسان اليمني (صدوق) أي الصادق (18)، و(نهي) أي الحسن، و (رضى) أي الراضي الرحيم، و (حكم) (19) أي الحكيم، و(رحمن) أي الرحمن (20)، و(حريمن) أي المحرم أو القدوس (21)، والرب، والملك، والعزيز، والعادل، والأمين (22). أما أبلغ الأدلة على تطابق عبادة القمر لدى المعينيين مع نظريتنا، فتتمثل في اعتقاد المعينيين أنهم إنما أبناء مباشرون للقمر (ود)، حتى أطلقوا على أنفسهم (هـ ـ ود) أو (هود) (23)، والهاء تفيد الإنتساب والبنوة ويصبح المعنى (أبناء ود) أو الأبناء الذين في الأرض للأب الذي في السماوات (24).

المقـة:

(المقة)، هو اسم إله القمر السبأي، كما ورد عند الباحثين في آثار الجنوب العربي ويعتبر السبئيون أنفسهم أولاد الإله (المقة) (25)، ويعد أشهر آلهة اليمن، فقد ورد اسمه في النقوش المكتشفة حتى عهد قريب أكثر من ألف مرة (26)، ويقول الباحثون: إن الإسم يعني اللامع أو الثاقب، لكنا نرى أن هذا الإسم الغريب يحتاج جهدا آخر في التعامل معه.

ووجه الغرابة ـ في نظرنا ـ يكمن في أمرين: الأمر الأول ويتعلق بـ(الألف واللام ال) في بداية (المقة)، ونحن نعلم أن أداة التعريف في العربية الشمالية هي (الهاء ـ هـ) في أول الكلمة، مثل (هبعل) أي الإله (بعل)، وكانت في العربية الجنوبية هي (النون ـ ن) تضاف الى نهاية الكلمة مثل (رحمان) أي (الرحمن) فما هي دلالة الألف واللام في اسم (المقة)؟.

والأمر الثاني يتعلق بالتاء الأخيرة في (المقة)، والتاء في العربية القديمة، شمالية وجنوبية، كانت تضاف آخر اللفظة للتأنيث، بينما نفهم من النصوص السبئية أن (المقة) إله ذكر، قال الباحثون أنه إله القمر السبأي، فما هي حكة إضافة تاء التأنيث لإسم علم يدل على إله ذكر؟.

ولنبدأ بالمشكلة الأولى: (الألف واللام ـ إل)، وأظنني وجدت حلها فيما أشار إليه (موسكاتي) عن شخصية إلهية غامضة تسمى (إل) (27)، وقد كان (إل) اسما إلهيا في بلاد الرافدين وبلاد الشام القديمة، وهو فيما يؤكد لنا (د. جواد علي ونولدكة وآخرون)، إلها ساميا معروفا في كل العبادات السامية (28) إلا أنهم لم يوضحوا لنا دلالته بشكل صريح، كذلك يؤكد لنا (ديتلف نيلس) أن معبودا بإسم (إل) كان معروفا في كل بقاع جزيرة العرب، ويرى أنه كان اسما ذا دلالة عامة، يستعمل كبديل لكل اسم إلهي في حديث الغائب، فيقال (إل كذا) ويتبع (إل) اسم الإله المقصود، ويضيف (نيلسن) أن (إل) ورد كعلم لإله خاص في النقوش السبئية والقتبانية (29)، ولكنه بدوره لم يوضح لنا أي إله خاص تسمى بالإسم (إل) وعلى أي منطقة من الطبيعة أو على ظاهرة طبيعية كانت دلالته، هذا وقد أفادنا (ريكمانز) أن (إل) قد جاء في النقوش السبئية يحمل اللقبين (فخر) بمعنى العظيم و (تعلى) بمعنى تعالى (30)، كما أفادنا (هوبر) بأنه قد عثر على (إل) في النقوش الثمودية بالصيغة (إله ن) وتعني الله (31).

وتأسيسا على هذه المعاني، يمكننا الزعم أن (الألف واللام) في أول (المقة) إنما تعني الله أو الإله، وتصبح لفظة المقة تعني (الإله مقة)، أو (الرب مقة).

وتبقى الإشكالية الثانية وهي (تاء التأنيث) الأخيرة، وأتصور أن حلها يمكن العثور عليه في نص قتباني يشير الى موضع الذبائح المقدسة بقوله:" مختن ملكن بمكي " (32)، وتعني مذبح الملك بموضع مكي، أو المذبح الملكي في منطقة مقدسة أطلق عليها النص اسم مكي، ولأن المذبح لا يكون إلا في معبد، إذن فمعبد الإله هنا ومزاره المقدس

في منطقة (مكي)، فهل هناك علاقة بين الإله (المقة) وبين مكي؟ هناك مشكلة ظاهرية يمكن أن تواجه هذا الإقتراح وهي أن النص (مختن ملكن بمكي) نص قتباني، يشير الى معبد إله القمر القتباني، وإله القمر القتباني كان هو الإله (عم) وليس (المقة)، إلا أني أعتقد أن هذه المشكلة الظاهرية ستساعد على الحل، أكثر من إثارتها للإشكالية، ولنطرح الآن تصورنا للحل في الخطوات التالية:

1- ورد عند (بن طيفور المصري) و(القيرواني) أن أهل اليمن كانوا يقلبون القاف كافا كما يفعل أهل فلسطين اليوم، ومن هنا لا تستبعد العلاقة بين (المقة) و(مكي).

2- أن إشارة النص القتباني الى المذبح الملكي بكونه في الموضع (مكي)، مع ما عرفناه عن تقديسهم للإله (إل) وتلقيبه بفخر وتعلى، والصيغة الثمودية التي عثر عليها هوبر (إله ن) أي الله والتي تشير الى (إل)، وما عرفناه عن (إل) كعلم دال على إله خاص عند القتبانيين والسبئيين معا فيما زعم (نيلسون)، ومع ما زعمناه حول كون (الألف واللام) في أول (المقة) إنما هي (إل) وتعني إله أو رب، مع هذه المجموعة من الإشارات تجدنا مدفوعين دفعا الى استنتاج أو معبد (إل) على الأرض سواء كان قتبانيا أم سبئيا، إنما كان يشار إليه بالإسم (مكي)، ويقدس معبده ومحيطه كحرم خاص بالإله (إل).

3- ومن هنا نقترح أن يكون اسم (المقة) ليس خاصا لإله خاص، إنما يعني (إل = إله + مقة أو مكي= معبد الإله على الأرض)، وهنا ننتقل خطوة أخرى فنقول أن ترجمة (المقة) بالإله أو الرب مقة ترجمة غير دقيقة، ويجب أن تكون (إله أو رب مقة أو مكي)، أي إله المعبد الحرام الموجود على الأرض ويسمى مكي.

4- وتأسيسا على ذلك لا يعد (المقة) اسم علم يطلق على إله القمر السبأي، إنما تصبح (المقة) تعني (رب البيت)، ولأن رب البيت أو إله مكي هو القمر، ولأن الرب المعبود، في عموم دول الجنوب هو القمر، فقد ألقى في روع الباحثين أن اللفظ (المقة) الوارد بكثرة في النقوش السبئية، هو اسم علم أطلقه السبئيون على إلههم القمري!

5- ومع هذا الفهم تصبح (تاء التأنيث) في آخر (المقة) مفهومة، إذا لم يكن (المقة) إلها ذكرا، إنما معبدا يحيطه موضع حرام مقدس للإله على الأرض.

6- ويدعم رؤيانا هذه أنه قد جاء في النصوص السبئية أكثر من إشارة للإله المعبود باسم (ذوي سموي) (33)، أي رب السماء أو صاحب السماء أو الذي في السماء، وهذا إنما يعني أن رب السماء (وهو هنا إله ذكر وليس أنثى) هو (إل) أو (إله ن) بالذات وبشكل خاص، أما (المقة) أو (مكة) فلم تكن سوى حرم معبد هذا الإله على الأرض أي يصبح (إل) هو (ذوي سموي) رب السماء ورب البيت المقدس له على الأرض.

7- أنه قد ثبت في النقوش: أن زوجة إله القمر وهي الشمس، قد أطلق عليها اسم (إلات) (34)، ومن هنا يصبح (إل) هو إله القمر لأن (إلات) الشمس هي مؤنث (إل)، وتتضح التسمية الحسية تماما لـ(إل) بأنه (ذوي سموي) أو الرب الذي في السماء.

8- أنه كان من عادة ملوك اليمن التسمي بالأسماء الإلهية، ضمانا لإكتساب القدسية المسوغة للحكم الإلهي، ومن هذه الأسماء (إل ذرح) أي الله المضئ، و(إل شرح) أي الله المتلألئ و(إل يسع) أي الله المشع (35).

9- وعليه نصل الى نتائج هي:-

* أن (مقة أو مكي أو مكة) تشير الى موضع الحرم الإلهي على ارض.

* أن (المقة) إنما تعني رب البيت.

* أن رب البيت هو (إل) هو (الفخر تعالى) هو (ذوي سموي) هو رب السماء هو (إله ن)هو (الله).

ثالوث إل:

ومع (إل) إله السماء الذكر أو (القمر)، ومع (إلات) إلهة السماء الأنثى أو (الشمس) جاء الضلع الثالث ممثلا في الوليد الإلهي (عشتر سمين) أي عشتر السماء، الذي أشارت إليه النصوص بالإسمين:(Azizos آزيزوس) وكان يتقدم الشمس عند شروقها، و(Monimos مونيموس) وكان يتبع الشمس حين غروبها (36)، والكوكب الوحيد الذي يتقدم الشمس عند ظهورها ويظهر وراءها عند غروبها، هو كوكب الزهرة، لذلك نستنتج أن الزهرة كان إلها ذكرا، أخذ دور الإبن في الثالوث المقدس عند عرب الجنوب وحمل اللقبين: (العزيز آزيزوس) و(المنعم - مونيموس)، ويذهب بعض الباحثين الى أنه المقصود بالنجم الثاقب في القرآن الكريم (37).

و(العزيز) ترد في صيغة أخرى هي (عزين) (38)، ونظنها تقابل الصيغة (عزيم) في اللسان العبري، إذ أخذنا في الحسبان خلط اللسان بين حرفي الـ(ن) والـ(م)، و(العزيم) في العبرية ليس سوى الماعز، والتيوس بوجه خاص، وهو ما يعيد الى أذهاننا صفة الأب القمر كثور أو خروف أو تيس لذلك حملت لنا اللغة في حفرياتها ما يؤكد أن الإبن قد حمل ـ بدوره ـ عن الأب الصفة ذاتها. وأن الإصرار على تصوير الآلهة القمرية في الجنوب بصور الحيوانات المشهور عنها قدرة الإخصاب الجنسي، وكانت رموزا لآلهة الخصب عموما، سواء في بلاد الرافدين أم الشام أم مصر، حيث كان الثور والتيس ممثلين لآلهة الفداء المعروفة بألهة الخصب، يطرح علينا تساؤلا: هل عرفت بلاد اليمن القديمة، في عصور ازدهارها كيمن سعيد زراعي خصب، عبادة الخصب وما رافقها من طقوس الجنس الجماعي، ونذر البنات للمعابد كبغايا للإله؟.

الحقيقة أننا لم نعثر بهذا الصدد على مؤيدات واضحة، إنما عثرنا على ما يضع الأمر موضع الترجيح، فقد جاءت لنا النصوص القتبانية بأسماء نساء دخلن في سلك الكهنة وقدمن أنفسهن كمنذورات للمعابد (39)، كما جاءنا نقش من معين يصور إلهة على هيئة امرأة تحمل سنابل في يدها اليسرى، وتنشر الخير فوق الجميع بيدها الأخرى (40)، وهي دلالة واضحة على إلهة خصب بلا لبس، وخاصة سنابل الحبوب التي استخدمت كرمز خصب في كل العبادات الجنسية القديمة، ويمكننا أن نفهم السر في اعتبار سنابل القمح رمز خصب، إذا أخذنا في اعتبارنا هيئة حبة القمح المفوقة، والتي كانت في نظر الإنسان القديم فرجا صغيرا، وملاحظته أنها عندما تروى بالمياه كما يُروى فرج الأنثى بمياه الذكر، تنفلق الحبة عن حياة جديدة ممثلة في نبتة جديدة، كما ينفلق فرج الأنثى عن المولود الجديد، هذا إضافة الى ما أورده الباحثون أنه كان لدى يمن الجنوب طقس يمارس عند إصابة المنطقة بجفاف، فيخرجون بالأضاحي الى العراء، ويرددون أدعية وأناشيد ما زالت تردد الى الآن في المناسبات ذاتها وفي المنطقة ذاتها (41).

أما طقس التضحية الذي عرفناه إبداعا خاصا بالمجتمع الأبوي الرعوي، والذي استمر بعد تزاوج المجتمعين الأبوي والأمومي، وعبادة الخصب في هذه المجتمعات، واقتران الأضاحي بطقوس الجنس، فإنا نجد له ترديدا واضحا في القرابين الحيوانية، التي كانت تقدم لآلهة اليمن، وفي النقش (مختن. ملكن. بمكي) كانت كلمة مختن تعني المذبح ومنها الختان الذي هو بديل عن الذبح الكلي للطفل كقربان للإله، وهو بدوره رمز جنسي واضح، يرجح نوعا من الطقوس الجنسية في العبادات اليمنية.

وهناك أسطورة حبشية تدخل في صلب الإعتقادات الدينية الحبشية تقول: إن سلسلة أباطرة الحبشة هم نسل الأنثى الشمسية (ماكد) المعروفة في الأساطير باسم (بلقيس) ملكة اليمن، بعد أن ضاجعها إله القمر (حكيم)، المعروف في الأساطير باسم (سليمان) (42) مع ملاحظة أنه كان هناك تواصل دائم بين بلاد اليمن وبلاد الحبشة، نتيجة للتقارب الجغرافي والتبادل التجاري، والأسطورة تشير بوضوح الى الإعتقاد في نوع من العبادة الجنسية. ناهيك عن كون الآلهة اليمنية تشكل ثالوثا يقوم فيه الجنس بدور رئيس، حتى تكتمل أضلاع الثالوث.

ورغم كل هذه الشواهد فإنها لا تضع الإقتراح بوجود عبادة جنسية في الجنوب اليمني موضع اليقين قدر وضعه موضع الترجيح، فإن لدينا كثيرا من الشواهد التي يمكننا بها دعم هذا الإقتراح دعما قويا، وسيأتي ذكرها في حينه.

الى مكة:

من المعروف أنه بعد انهيار مركز اليمن السعيد التجاري، ودمار سد مأرب الشهير، نزحت القبائل اليمنية نحو الشمال، لتستقر في أنحاء من بلاد العرب، واستقرت أكبرها (خزاعة) في المنطقة التي أصبحت تعرب باسم (مكة) (43). ومن الطبيعي أن تحمل هذه القبائل في رحلها معتقداتها وآلهتها وطقوسها الدينية، ومن الطبيعي أيضا أن يرحل (رب البيت) مع أصحابه ليتقدس له بيت جديد على الأرض في مكة؟!.

وقد لاحظت الباحثة اليمنية (ثريا منقوش) التشابه بين ما اعتقدت أنه إله قمري لسبأ بام (المقة) وبين (مكة)، وربطت بين الإثنين في ضوء ما جاء عند (بن طيفور المصري) و (القيرواني) عن بعض أهل اليمن ولكنِهم القاف كافا، وما جاء على لسان النبي (ص) حول الفقه اليماني والحكمة اليمانية، لتصل من ملاحظاتها الى أن أهل اليمن هم أصل التوحيد الذي جاء بعد ذلك في الدين الإسلامي، وأتصور أنه بعد جهدنا في التعامل مع الإسم (المقة)، يمكن أن تكون ملاحظة الباحثة حول التشابه بين (المقة) و (مكة) قد تدعمت بشكل كاف، كما أن تعاملنا الآتي مع الطقوس التي صاحبت البيت المكي الحجازي. سيضيف الى (منقوش) مزيدا من الدعم والأسانيد، في إحتمال أن يكون (مكة) الحجازي هو (المقة) اليمني، وخاصة مع ما جاء عند (المسعودي) عن البيت الإلهي

الحجازي أنه خطط أصلا لعبادة الكواكب السيارة (44). وغنى عن الذكر أن أبرز الكواكب السيارة المؤلهة هي القمر الأب والشمس الأم والزهرة الإبن، أو الرب (إل) والأم (إلات) والإبن (عشتر).

وفي الروايات الإسلامية أن منطقة الحجاز كانت صحراء بلقعا، حتى انفجرت زمزم تحت خد (إسماعيل) طفلا، فكان أول من جاء واستقر بجوار البئر ركب من **اليمن** (45). مضافا الى ذلك ما جاء عن (عمرو بن لحي **الخزاعي)** عند الإخباريين المسلمين، بإعتبار أول حاجب للبيت الحجازي الإلهي، وفي ذلك إشارة واضحة الى بداية حجابة هذا البيت **مع الخزاعيين القادمين من اليمن**، وخاصة إذا علمنا أن هذه الحجابة الأولى للبيت، لا تبعد ـ زمانيا ـ عن تاريخ دمار سد مأرب وتشتت القبائل اليمنية بأكثر من نصف قرن (46). مع لمحة هامة جاءت في كتب التراث الإسلامي، وتحكي عن (تبع الثاني) **أحد ملوك اليمن**، الذي قدم البيت الإلهي الحجازي، وطاف به، وقام ينحر للناس **ويطعمهم**، ثم كسا البيت بالبرود اليمنية، وجعل له مفتاحا (47). ذاك المفتاح الذي **استلمه الخزاعيون**، وأصبح فيما بعد محل صراع ونزاع انتهى به الى يد (قصي بن كلاب)، الذي ألف القبائل (وقرشهم تقريشا ومنها قريش) ضد خزاعة، وأخرجهم وانتزع منهم البيت الإلهي. وسواء حدثت قصة (تبع الثاني) أم لم تحدث فهي تعبير عن ترجيح الذاكرة لصدى أحداث وظروف نشأة البيت وعلاقته بأهل اليمن، حتى جعلت مفتاحه بيد اليمنيين.

ولا يفوتنا هنا ما أكدته الباحثة (منقوش) ـ على ذمتها ـ أن كثيرا من عادات الحج للبيت الحجازي، كانت على غرار التقاليد اليمنية القديمة في تأدية فروض العبادة والحج للإله (المقة) وإن كانت لم تورد مؤيدات واضحة لتأكيدها هذا (48).

عبادة الجنس:

وسمي الموضع المقدس المحرم الحرام في الحجاز بالإسم (مكة)، وأطلق على إله هذا الموضع المقدس اسم (رب البيت)، وكان التعبير (رب البيت) هو التعبير الدارج والمفضل قبل الإسلام على ما نشاهد في كتب التاريخ الإسلامي. أما رب البيت عند عرب قبل الإسلام، أو ما اصطلح على تسميتهم بالجاهليين، فقد حمل الإسم (الله)، ولعله ليس يخاف أن الله هي من (إل) و(إله ن). بعد أن حلت أداة التعريف في العربية العدنانية (الألف واللام) في أول الكلمة، محل أداة التعريف في العربية القحطانية واليمنية (ن)، إضافة الى (الات) الإلهية المقدسة والزوجة الأم، و(هبل) كبير أصنام الكعبة، ونظنه قام هنا بدور الإله الإبن، إذا أخذنا بالحسبان أن الإسم (هبل) هو في الأصل (هـ ـ بعل) أو (هبعل) والهاء كانت أداة التعريف في العربية الشمالية وظلت على حالها، بينما أهملت العين بالتخفيف مع مرور الزمن، أما (بعل) في(هبعل) فهو اسم إله الخصب في بلاد الكنعانية الشامية المتصلة جغرافيا وتجاريا بمنطقة مكة اتصالا وثيقا، وقد كان بعل إلها معروفا ومنتشرا انتشارا هائلا في البلاد الشامية كإله للخصب، وصاحبته طقوس جنسية تفشت تفشيا عظيما في مختلف تلك المناطق، وقد كان في الأساطير الأوغاريتية الشامية ابنا للإله (إل) (49).

ويبدو أن توسط منطقة (مكة) بين بلاد الشام وبلاد اليمن، وما كان من تواصل مستمر بينها وبين مكة، أدى الى تداخل بين عقائد المنطقتين في مكة، فدخل (بعل)، وحل محل (عشتر سمين) كإبن للإله أو (إل)، ويلقي لنا الإخباريون المسلمون بظلال هذه التداخل في الرواية التي تقول: إن (عمرو بن لحي الخزاعي) سافر من مكة الى الشام في تجارة، فرآهم هناك يتعبدون لآلهة الخصب هذه، وكان مما أحضره (هبل وإساف ونائلة) فوضع هبل في فناء الكعبة، ووضع (إساف) على الصفا ووضع (نائلة) على المروة (50).

وإذا كان (هبل) في الأصل (بعل) إله الخصب صاحب الطقوس الجنسية فهل عرف البيت الإلهي الحجازي هذا النوع من الطقوس؟ إذا كان ذلك كذلك، فإنه سيدعم احتمالنا الذي سبق أن طرحناه عن ترجيح وجود عبادة جنسية غابرة في عبادة (المقة) اليمنية.

ولنبدأ محاولة الإجابة مع (إساف) و (نائلة).

تقول كتب التاريخ الإسلامية: إن الصنم (إساف) كان معبودا ذكرا على جبل الصفا وأن الصنم (نائلة) كان معبودا أنثى على جبل المروة، وأنهما كانا شخصين حقيقيين دخلا فناء الكعبة، وهناك فجر إساف بنائلة، فمسخهما الله هذين الصنمين (51)!!

ولكن، كيف للعقل أن يستسيغ هذه الرواية الإسلامية عن (إساف) و (نائلة)، في ضوء حقيقة أن الصفا والمروة كانا مقدسين لدى الجاهليين، كذلك (إساف) و (نائلة) كانا ربين جديرين بالتبجيل والتقديس، وكانوا يسعون بينهما سبعة أشواط ويتمسحون بهما، ويقصون شعورهم عندهما، في طقس هام من طقوس الحج (52)، وعندما جاء

الإسلام أقر السعي بين الصفا والمروة أشواطا سبعة، واعتبرهما من شعائر الله في الحج، فهل كان العربي قبل الإسلام يقدس ويبجل من ذكرت الرواية الإسلامية أنهما فجرا ومارسا الفعل الجنسي في فناء الكعبة.

الحقيقة أنه لا يمكن فهم هذا الأمر إلا إذا كان فعل آساف و (نائلة) بالكعبة في نظر عبادهما ليس فجر إنما عملا مقدسا، وأنهما كانا يمثلان عبادة جنسية سادت زمانا في هذه المنطقة، وأن السعي بينهما لم يكن في المقاييس الخلقية القديمة أمرا مشينا، إنما كان نوعا من العبادة المقدسة والمقررة في نظر أصحابها، والتي كانت منتشرة في بقية بقاع المنطقة انتشارا هائلا، خاصة في بلاد الشام والعراق بوجه خاص، وبقية بلاد الهلال الخصيب بأكملها، دونما إحساس بأنه أمر مخجل أو معيب، وكل ما في الأمر أن الرواة المسلمين عندما واجهوا هذه المسألة بالمقاييس الأخلاقية الجيدة، لم يستسيغوا الأمر على هذا الشكل، فسموا الفعل الجنسي المقدس فجرا قام به (إساف) و (نائلة) فمسخا صنمين.

وهذه الحقيقة أولى، نضعها في رصيد ترجيحنا وجود عبادة جنسية في المنطقة في أدوارها الأولى.

وهناك علامات:

والعجيب حقا أن الروايات الإسلامية عندما أرادت تفسير السر في استمرار تقديس الصفا والمروة في الإسلام، واستمرار السعي بينهما في شعائر الحج الإسلامي استبدلت الذكر (إساف) والأنثى (نائلة)، بذكر وأنثى مرة أخرى، ممثلين في (آدم) و(حواء) ليقوما بالفعل الجنسي بدلا من (إساف) و (نائلة)، حيث أمر الله (جبريل) أن يُنزل (آدم) من على الصفا و(حواء) من على المروة الى خيمة نصبت موضع البيت، وهناك جمع بينهما في الخيمة، وساعتها أضاء قضيب الخيمة الذي كان من ياقوت أحمر، ثم أمر الله (جبريل) بعد ذلك هذا الجمع أو الجماع، أن ينحى (آدم) و (حواء) عن موضع البيت ليرفع مكانه قواعد البيت، فهبط (جبريل) مرة أخرى، وأخرجهما من الخيمة، وبنى البيت بحجر من الصفا وحجر من المروة (53)، أو بمزيج من الذكر والأنثى؟ بل يقال أن ما لله تعالى من منسك أحب إليه من موضع المسعى بين الصفا والمروة (54) وهذه حقيقة أخرى نضيفها لرصيد احتمال وجود عبادة جنسية في البيت الإلهي المكي في عهوده القديمة.

وهناك رواية إسلامية أخرى تقول إن (آدم) و (حواء) عندما هبطا من الجنة نزلا مفترقين، وظلا هائمين حتى التقيا، وعرف (آدم) (حواء) (أي جامعها، والتوراة بشكل خاص تصر على استخدام لفظ عرف بمعنى جامع) على جبل عرفة، لذلك عرف الجبل باسم عرفة لأن (آدم) عرف أو جامع (حواء) عليه؟ (55) ومن هنا تقدس الوقوف بعرفة، وكان الوقوف بعرفة من أهم مناسك الحج الجاهلي، فكانوا يتجهون الى هناك ذرافات ذكورا وإناثا يبيتون ليلتهم حتى يطلع عليهم النهار، وأن العقل ليتساءل أما مشهد ألوف الرجال والنساء يتجهون الى الجبل ليبيتوا هناك جميعا حتى الصباح: ما وجه القدسية في هذا الطقس؟ إن لم يكن من قبل ذلك تجمعا لممارسة طقس الجنس الجماعي طلبا للغيث والخصب، مع ملاحظة أن عرفة يطلق عليه الجمع (عرفات)، ولا نعرف جبلا يجمع اسمه إلا (عرفات)؟! فهل الجمع هنا للجبل أم للمجتمعين على الجبل في حالة جماع أو عرفات، يماثلون به الفعل الأول الذي قام به (إساف) عندما عرف (نائلة)، أو (آدم) عندما ضاجع (حواء)، أو إله القمر (إل) عندما جامع الشمس (إلات)؟ وهذه حقيقة ثالثة نضيفها الى الرصيد.

ولو عدنا الى طقوس الحج الجاهلي فسنجد طقسا عجيبا ومثيرا، وهو أنهم كانوا يطوفوا حول البيت الإلهي ذكورا وأناثا عُراة تماما (56)، فما الداعي لهذا العُري إن لم يكن بغرض يستحق العري؟ وعندما جاء الإسلام جعل للإحرام زيا لا يستر إلا العورة، بل وحرم لبس المخيط وكره لبس الطيلسان المزرر اللمحرم (57).

وهناك رواية إسلامية تقول: إن الحجر الأسود كان أبيض لكنه إسود من مس الحيض في الجاهلية؟ (58) أي أنه كان هناك طقس لدى الجاهليين تؤديه النساء في الحجر، وهو مس الحجر الأسود بدماء الحيض، ودماء الحيض بالذات؟!! وقد كان دم الحيض عند المرأة في اعتقاد الأقدمين هو سر الميلاد، فمن المرأة الدم، ومن الرجل المنى، ومن الإله الروح. علما أن الدورة الشهرية للمرأة تتوافق مع حركات القمر توافقا بينا، وكان (إل) كما علمنا هو إله القمر؟!

وطقس عجيب آخر هو الإحتكاك بالحجر الأسود (59) بل إن كلمة حج مأخوذة أصلا من فعل الإحتكاك، فهي في أصلها من (ح ك) (60)، مع الأخذ بالإعتبار هيئة الحجر الأسود وشكله.

وفي الروايات الإسلامية أن (جبريل) بعد أن أخذ (آدم) وأراه مناسك الحج كلها قال له:" إن الله تبارك وتعالى قد غفر لك وقبل توبتك، وحلت لك زوجتك (61) وفي التفسير أن مكة سميت بكة لأنه **يبك بها الرجال والنساء**، وأن الحطيم ما بيم الحجر الأسود وباب البيت سُمي حطيما لأن الناس **يحطم بعضهم بعضا هناك** (62).

وهناك غير ذلك شواهد ودلالات على عبادة الخصب والجنس، فالروايات الإسلامية تقول أن (عمرو بن لحي الخزاعي) أحضر (هبل) و (إساف) و(نائلة) من (هيت) على شاطئ الفرات فوق الأنبار من نواحي بغداد (63). ومعروف لدى جميع الباحثين أن هذا المكان بالذات كان مرتعا نفشت فيه عبادة الخصب وطقوس الجنس بشكل وبائي حاد، وجاء عند الباحثين أن العرب قدسوا من سموهم بنات الله وكن بالدرجة الأولى تمثيلا للقوى المولودة في الطبيعة (64) وكان لقريش وبعض العرب شجرة خضراء عظيمة يقدسونها تسمى (ذات أنواط) (65)، والإسم (ذات أنواط) هو أحد ألقاب الشمس التي عرفناها بالإسم (إلات) كإلهة أم أنثى، وفي ذلك ما يدعم علاقتها بالخصب والجنس في نظر العرب. كما كان لمزلفة كشعيرة حج ـ في الأصل ـ إلها يدعى (قزح)، وهو إله برق ورعد ومطر (66).

ثم ما الداعي لطقوس أخرى مثيرة في الحج الجاهلي، ولا معنى لها إلا في ضوء احتفالات الخصب والجنس، مثل طقس الشرب من زمزم، وحتى الإسم زمزم وهو من الزمزمة، والزمزمة صوت الرعد (67) الذي يسبق المطر، وما لزوم طقس حلق الشعر ـ وبالذات عند المروة ـ الذي لا يمكن فهمه بالمرة، إلا في ضوء طقوس الخصب الجنسية القديمة، والذي كان بديلا عن االجنس الجماعي، وخاصة أنهم كانوا يمزجونه بالدقيق، ويترك للفقراء يصنعونه فطيرا في هيئة القمر، إضافة الى الذبح كطقس أساس (68) وصلاة الغيث وإهداء الجواري للكعبة، والذي استمر في صدر الإسلام (69) ويذكرنا بالمنذورات للمعابد في ديانات الخصب القديمة، أو ما جاء في استفسارات غريبة من المسلمين، مثل سؤال (أبي بصير) لأبي عبد الله عن محرم نظر الى فرج امرأة في الحج حتى أمنى، فأجاب بأن عليه الفداء بأن يذبح هديا (70).

ولدينا أيضا ما جاء في قول (عمر بن الخطاب) من على المنبر إبان خلافته:" متعتان كانتا على عهد رسول الله وأنا أنهي عنهما وأعاقب عليهما: متعة الحج، ومتعة النساء" (71).

حيت كان النبي في حجة الوداع قد قال: ابدأوا بما بدأ الله عز وجل به، فأتى الصفا فبدأ به ثم طاف بين الصفا والمروة سبعا، فلما قضى طوافه عند المروة قام فخطب في أصحابه، وأمرهم أن يحلوا ويجعلوها عُمرة، ويتمتعوا بالحج، والمتعة هنا أي اللذة بإباحة محظورات الإحرام في المدة المتخللة بين الإحرامين، حتى قال قائل كما أخرجه (أبو داود) في سننه: أننطلق وذكورنا تقطر؟ فقال النبي:" إذا استمتع الرجل بالعمرة فقد قضى ما عليه من فريضة المتعة" (72).

أما أهل اليمن، فكان لهم ميزات خاصة بمالهم من سابقة، حيث رفع الإسلام عنهم الذبح والحلق (73)، وجاء عن النبي:" طوفوا بالبيت واستلموا الركن فإنه يمين الله في أرضه يصافح بها خلقه (74)، والركن هو (الركن اليماني)، وذهب وهب أن الركن اليماني ياقوتة من الجنة أنزلت على الصفا (75)، وكان الحجيج يمسحون ـ عادة ـ الحجر الأسود والركن اليماني (76)، ولا يزالون.

وظل للقمر دوره واحترامه في الإسلام، بعد أن تحول من (إل) أو الله الى آية من آياته الله، فوضع فوق المآذن مع النجمة رمزا للزهرة؟!!. وظلت الشهور قمرية، والحج قمريا، والصيام قمريا بدويا كامل الجوع، بعكس الصيام الزراعي، كما في صيام العذراء المسيحي، الذي يمتنع عن تناول الطعام الحيواني ويقتصر على تناول النبات، بل ظن أكثر الناس أن العلة في صيام الأيام البيض لأن لياليها مقمرة لولا أن الفقهاء لاحظوا ذلك فقالوا: إن العلة الحقيقية هي أن آدم هبط الى الأرض مسودا من الذنب فناداه مناد من السماء أن يصوم ثلاثة أيام هي الثالث عشر، والرابع عشر، والخامس عشر من الشهر القمري، (وهي الليالي المقمرة تماما) فعاد أبيض (77).

الحقيقة أنه لا يمكن فهم هذا إلا في ضوء عبادة الثالوث القمري، وأن هذه العبادة قد رافقها في أصلها اليمني طقوس جنسية واضحة، انتقلت من مكى مع (إل) الى مكة، وظلت عند الجاهليين، وبقيت منها بقايا تشير إليها. في كثير من الطقوس التي ظلت في شعائر الحج الإسلامية، فيما أبقاه الإسلام من الشعائر الجاهلية، لكن بعد أن نقاها من شوائبها القديمة وارتقى بها بما يتفق والمقاييس الخلقية الجديدة.

الهــوامـــش

(1) سيد القمني:ـ أضحية للذكر، قربان للأنثى ـ الجذور الإجتماعية.
(2) سيجموند فرويد، موسى والتوحيد، ترجمة جورج طرابيشي، دار الطليعة بيروت، ط 3، 1979، ص 18، 181.
(3) ثريا منقوش: التوحيد ايما (التوحيد في تطوره التاريخي)، دار الطليعة، بيروت 1977، ص 72،73.
(4) د. نجيب ميخائيل: مصر والشرق الأدنى القديم، حضارة العراق القديم دار المعارف، القاهرة، 1961، ج6، ص124.
(5) جان برتيرو: الديانة عند البابليين، ترجمة وليد الجادر، جامعة بغداد، 1970، بغداد، ص 40، انظر أيضا د. عبد الحميد زايد، الشرق الخالد دار النهضة العربية د.ب. القاهرة ص 146، أنظر أيضا د. نجيب ميخائيل، المصدر السابق، ص144.
(6) انظر في معنى (سي) سبنينيو موسكاتي: الحضارات السامية ترجمة د. السيد يعقوب بكر، دار الكتاب العربي للطباعة 1957.
(7) ديتلف نيلسن (وآخرون): الديانة العربية القديمة، ترجمة د. فؤاد حسنين مكتبة النهضة العربية، 1958 القاهرة ص، 188.
(8) د. أنيس فريحة: دراسات في التاريخ، دار النهار، 1980 بيروت، ص 88.
(9) القرآن الكريم: سورة يس، آية (1).
(9) ثريا منقوش: المرجع السابق، ص 71.
(10) أبو الحسن الهمداني: الإكليل ج2 اقتبسته ثريا منقوش في المرجع السابق ص 88.
(11) القرآن الكريم: سورة التكوير آية (15).
(13) القرآن الكريم: سورة الواقعة آية (75).
(14) ديتلف نيلسن: المصدر السابق، ص 206.
(15) القرآن الكريم: سورة البقرة آية (185).
(16) ثريا منقوش: المرجع السابق، ص 66،70.
(17) نفس الموضع.
(18) نفس الموضع.
(19) ديتلف نيلسن: المرجع السابق، ص 191.
(20) د. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ج5، ص 55.
(21) ديتلف نيلسن: المرجع السابق، ص 181.
(22) سبنينيو موسكاتي: المصدر السابق ص 195.
(23) ديتلف نيلسن: المصدر السابق ص 210.
(24) عدت الى تسجيل هذه الحاشية، وحاشية أخرى مطولة، وسترد تحت عنوان (وهناك علامات) بعد أن إنتهيت من كتابة هذه الدراسة حيث طالعت كتاب د. علي زيعور: العقلية الصوفية ونفسانية التصوف، دار الطليعة بيروت، ووجدت من الأوفق الإستفادة مما ورد عند د. ريعور ويتعلق بموضوعنا في الحاشيتين المذكورتين.
معروف أن عبادة (ود) استمرت في جزيرة العرب وأرض الحجاز حتى ظهور الإسلام ويبدو لنا أن عبادته استتبعت نوعا من العبادة التضحوية، ونظنها عملية (وأد) الصغار، تأسيسا على اشتراك القمر (ود) والتضحية (وأد) في جذر واحد، ولو كان سبب الوأد اقتصاديا ما ترك عمر بن الخطاب ابنته ترعى الغنم حتى السادسة ثم يقوم بعد هذه المدة بوأدها، إضافة الى ملاحظة أخرى هامة هي أن الغنم رمز قمري لإله القمر، فلماذا ست سنوات تختلط الفتاة فيها برمز القمر، أو بالغنم أو بالخروف (ود)؟ إن لم يكن ذلك لإنشاء المودة التي تعود بدورها الى نفس الجذر المشترك مع (ود) و (وأد)!!.
(25) نيلسن: المصدر السابق، ص 210.
(26) نفسه: ص 177.
(27) سبتينو موسكاتي: المصدر السابق، ص 127.
(28) د. جواد علي المصدر السابق، ص17، أنظر أيضا
Reste, S.L, Noldeke, Wker den guttes namen EL, in Monets berichte der K. Akadinie der Wissenschaft zu Berlin, 1880,s; 161,1887 s, 175.
(29) ديتلف نيلسون: المصدر السابق، ص 184.
(30) Ry ckmans (yanzague), Les nems propres sud semitiqiues,3 vol, lou -vain,1924-1935, vol, p.1,2, vol, p.27,33.
(31) ديتلف نيلسن: المصدر السابق، ص 212.
(32) ثريا منقوش: المرجع السابق، ص 77.
(33) ديتلف نيلسن: المصدر السابق، ص 184.
(34) نفسه: ص 215.
(35) نفسه: ص 275.
(36) نفسه: ص 222.
(37) القرآن الكريم: سورة الطارق ي 3.
(38) هوامش د. د.السيد يعقوب بكر على ترجمة لكتاب موسكاتي: الحضارات السامية القديمة، ص377.
(39) ثريا منقوش: المرجع السابق، ص 78.
(40) نفسه: ص 70.
(41) ثريا منقوش: المرجع السابق، ص 79.
(42) نيلسن: المرجع السابق، ص 277.
(43) سيد القمني: الحج، مجلة الكويت، الكويت، عدد 12 ديسمبر 1981.
(44) مروج الذهب، ج 4، ص 47.
(45) الصدوق أبو جعفر القمي: علل الشرائح، المكتبة الحيدرية، النجف ط 2، 1966، العراق، ص 432.
(46) محمود الحوت: في طريق الميثولوجيا عند العرب، دار النهار، ط 2، 1979، بيروت، ص 49.
(47) أبو محمد عبد الملك بن هشام: السيرة النبوية، شركة الطباعة الفنية المتحدة، تحقيق طه عبد الرؤوف، 1974 القاهرة ج 1، ص 20، 21.
(48) ثريا منقوش: المرجع السابق، ص 86.
(49) د. أنيس فريحة: ملاحم وأساطير من الأدب السامي، دار النهار للنشر بيروت، ط 2، ملحمة البعل، اللوحة الثانية، ص119.

(50) أبو الفتح الشهرستاني: الملل والنحل، تحقيق محمد سيد كيلاني، نشر مصطفى البابي الحلبي، 1961 القاهرة، ج2، ص 233.
(51) أبو جعفر بن جرير الطبري: تاريخ الرسل والملوك، دار المعارف، ط 2، القاهرة، ج 2، ص 284.
(52) د. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج 5، ص 23.
(53) الصدوق القمي: علل الشرائع، ص 421، 422. (54) نفسه: 433.
(55) الشهرستاني: الملل والنحل، ج 2، ص 233.
(56) د. جواد علي: المصدر السابق،ج5، ص224،225. (57) الصدوق القمي: المصدر السابق، ص 485.
(58) محمد حسني عبد الحميد: أبو الأنبياء إبراهيم الخليخ، دار سعد للنشر، ط1 القاهرة ، ص 92.
(59) الشهرستاني: المصدر السابق، ص 247. (60) د. جواد علي: المصدر السابق، ص 223.
(61) الصدوق القمي: المصدر السابق، ص 401. (62) نفسه: ص 400.
(63) البلاذري: معجم البلدان، ج 4، ص 997. (64) محمود الحوت: المرجع السابق، ص 123.
(65) د. خليل أحمد خليل: مضمون الأسطورة في الفكر العربي، دار الطليعة ط 2، 1980، بيروت، ص 23.
(66) نفسه: ص 40،41، أنظر أيضا محمود الحوت: المرجع السابق، ص 150.
(67) انظر مختار الصحاح في باب (زم م).
(68) والفعل حلق (ح ل ق) يعني ـ إضافة الى قص الشعر ـ القتل والذبح والحلق هو المستدير في الشئ، وهو رمز جنسي واضح، و (حلق) بمعنى ارتفع وطار هي في التفسيرات الفرويدية رمز للفع الجنسي.
وكما سبق أن أشرنا الى أن امتزاج المجتمعين الرعوي (أبوي النظام) والزراعي (أموي النظام) في المزمان الغابر، قد أدى الى امتزاج مماثل في الطقوس والشعائر، لذلك أصبحت احتفالات الجنس تصحب احتفالات التضحية، وهناك دلاله واضحة على صدق ترجيحاتنا هذه نستقيها من المصادر اللغوية، حيث يرتبط (الغنم) رمز التضحية والجنس (لغة) في تبادل اللام والنون بين (غنم) و(غلم)، والغلم هو الجنس والشهوة، و (اغتلم) مارس الجنس، و(غُلمة) تعني اشتداد الشهوة (ارجع في ذلك الى الفيروز أبادي، ج4، ص158)، كما أن صغير الغنم (حمل) يؤدي جذره بنا الى (لحم) بمعنى جسد، والى (الحمل) والميلاد.
وزيادة في التعضيد نلفت النظر الى العلاقة ما بين القرن (قرن الخروف والهلال) وبين(القران) بمعنى الزواج، وما جاء في عجائب المخلوقات للقزويني (ص 409):" إذا دفن القرنان تحت الشجرة بكرت الميلاد"، وما نعلمه عن حج القرآن في الجاهلية، وتزيدنا اللغة تأييدا في كلمة (الموسم) وهي الأمطار الربيعية الأولى وكلمة (الموسم) بمعنى زمن الإحتفال بالوسم، أو احتفالات الخصب، والمومس، وهي المرأة (الموسومة) بالزنى، مع ملاحظة انتشار المومس في مكة قبل الإسلام، فهل هناك علاقة بين طقس الحج الجاهلي وبين وجود طائفة المومس؟ وهل يرتبط الوسم والموسم والمومس؟ نترك ذلك لمن يهتم من الباحثين.
(69) الصدوق القمي: المصدر السابق، ص 410. (70) نفسه: 456.
(71) عبد الحسين الموسوي: النص والإجتهاد، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات كربلاء، ط4، 1966، العراق، ص187.
(72) نفسه: ص 176، انظر أيضا الصدوق القمي في علل الشرائع ص 411، 413، 414.
(73) الصدوق القمي: المصدر السابق، ص 442. (74) نفسه: 424
(75) نفسه: ص 427. (76) نفسه: ص 429.
(77) نفسه: ص 280،281.

الباب الخامس عشر

الإله الكبش

عن كتاب " المسكوت عنه ـ الجذور الوثنية للأديان التوحيدية"ـ وليد المنسى

.

الثلاثية المقدسة في الإسلام:

المدهش في اللغة العربية أن الرموز الثلاثية المقدسة قد اشتقت من جذر واحد في اللسان العربي القديم هو (إيل)، و(إيل) عندهم هو ذو القرون الأشعث الضخم، و(إيل) هو الإله الكبش وإله القمر، وهو الجذر الذي اشتقت منه إله والله وإلهة " وقد سمت العرب الشمس لما عبدوها الآلهة، والآلهة الشمس الحارة وحكى الثعلب والأليهة والإلاهة والإلهة وألاهة كله: الشمس اسم لها" و " الإلهة الحية العظيمة" (1) قال الشاعر:

كفى حزنا أن يرحل الركب غدوة

وأصبح في عليا الإلهة ثاويا

القــرن:

قام الإسلام منذ البدء على خطى الحنفية لتكريس عبادة إله واحد هو الله دون سائر آلهة الكعبة الثلاثمئة وستين، والله اسم إله غاية في الشهرة قبل الإسلام، وكان إله قريش، بينما كان هبل إله كنانة حليفة قريش، فأب النبي (محمد) نسب الى هذا الإله، (عبد الله) وتسمى به (عبد الله بن جدعان) الذي تم في داره حلف الفضول الجاهلي، و(عبد الله بن أرقط) كان دليل النبي (محمد) و(أبو بكر الصديق) في هجرتهما الى المدينة " فاستأجر عبد الله بن أرقط رجلا من بني الدئل بن بكر، وكانت أمه إمرأة من بني سهم بن عمرو وكان مشركا، يدلهما على الطريق. ويوضح لنا نسب زوجات النبي محمد مدى انتشار عبادة الله قبل الإسلام ومدى أهميتها، فجلهم نسب الى اسم مركب لهذا الإله، فخديجة بنت خويلد كانت زوجة (لعتيق بن عابد بن عبد الله) وأنجبت له (عبد الله بن عتيق)، وتزوج النبي من (زينب بنت خزيمة بن الحارث بن عبد الله)، ومن (حفصة بنت عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزي بن عبد الله)، ومن (أم سلمة بنت أبي أمية بن المغيرة بن عبد الله) ومن (جويرية بنت الحارث)، " وكانت قبل رسول الله (ص) عند ابن عم لها، يقال له عبد الله"، ومن (عائشة بنت أبي بكر) وكان لها ابن عم يدعى (عبد الله بن جدعان).

ولأن العرب، ولا سيما قريش، كانت تعرف الإله الله قبل دعوة (محمد بن عبد الله) من التأثيرات الدينية لكل من المسيحيين واليهود، فإن مهمة النبي محمد لم تكن تقديمه كإله كما تضللنا العديد من كتب السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي، بل عبادته وحده دون سائر الآلهة الأخرى وعدم الإشراك به. وتدعم النصوص القرآنية معرفة العرب وقريش لله قبل الإسلام:" ولئن سألتهم من خلقكم، ليقولن الله ...". الزخرف: 87. " قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم سيقولون لله، قل أفلا تتقون". المؤمنون 87-86.

من أين اشتق اسم الله؟

تثير تضاربات أئمة علماء اللغة العربية في اشتقاق اسم الله الكثير من الحيرة والشك، فتتعدد بينهم الإجتهادات وتتباين آرائهم بصورة متناقضة في جذور هذا الإشتقاق:

" وقيل في اسم الله أنه مأخوذ من إله يأله أذا تحير جزعي عليه مثل ولهت وقيل هو مأخوذ من إله يأله الى كذا، أي لجأ إليه لأنه سبحانه المفزع الذي يلجأ إليه في كل أمر (2). ومرد هذا التناقض يرجع الى تنقيبهم عن مصدر هذا الإشتقاق في رحم اللغة العربية، التي لم تنجب هذا الجذر إنما تبنته بعد أن هاجر إليها من لغة أخرى، هي الآرامية.

في مفارقة اجتهادية تتكشف من خلالها مفاتيح اشتقاق اسم الله. ويشير (بهاء الدين وردي) أن من أسماء الله القديمة إيل، يشير الجوهري عن الأزهري أن اسم الله هو (إيل) ويقول (ابن الكلبي): " إن إيلا لغة في إيل وهو الله

عز وجل". إن النقوش الآثارية التي عثر عليها في المقاطعات الآرامية تتضمن إشارات واضحة الى التطور اللغوي الذي لحق باللفظ (إيل) منذ الألف الأول قبل الميلاد من حيث البنية والمدلول، فمن حيث البينة ترددت في النقوش صيغ متعددة لـ (إيل) مثل (إلـ ه)، (إلـ ها)، (إله هم)، (إلـهه)، ومن حيث المدلول تحولت الصفة (إيل) عند العرب القدماء الى اسم الله . (3) إن من الطبيعي أن يدخلوه في تركيب أسمائهم مثل عبد الله، ماء الله سعد الله..الخ.

أما عند العرب فقد تحورت "إل"، كما عند عرب اليمن، الى (إلـه) و(إلاه)، و (ألا لاه)، ثم حذفت العرب الهمزة استثقالا لها، فلما تركوا الهمزة حولوا كسرتها من اللام المحولة عن الهمزة المكسورة التي أدغمت في اللام الأصلية. وذهبت الهمزة أصلا فقالوا (أيلاه)، فحركوا اللام الساكنة، ثم التقى لامان متحركتان فأدغموا الأولى في الثانية وأضافوا إليها هاء السكت، وهي حرف مهموس ضعيف مخرجه أقصى الحلق، والألف قريبة من الهاء في المخرج، فقالوا: (الله)، وهو تطوير مبدع لإسم أريد له أن يستقل عن جذوره ومشتقاته.

السلف إسماعيل ووليمة التهام الرب الإسلامية

لضرورة التوحد السياسي والديني تهيأ العرب مع إطلالة القرن السابع الميلادي لفكرة السلف المشترك والإله الواحد، لصهر جميع قبائل الجزيرة العربية في تاريخ أسطوري مشترك وقومية واحدة، فنسبت حركة الأحناف والإسلام لاحقا العرب الى النبي (إبراهيم) وإلهه (إيل) عن طريق جدهم المسمى (يعرب) ولا يسند أسطورة هذا النسب أي دليل أو منطق؛ فهي من التلفيقات التي أصابت التاريخ العربي والإسلامي، فكلمة (عرب)، وهي المفتاح الذي استخدم للتدليل على هذا النسب لا تمت للشخصية الأسطورية المسماة (بيعرب) بأي صلة، فأصلها (عبري) (Araba) وتعني (صحراء) وقد أطلقها اليهود على قبائل شبه الجزيرة العربية القاطنين تلك الصحراء الشاسعة.

هذا النسب الأسطوري استخدم كوظيفة متعددة الأوجه لكي يقارب ما بين الدعوة الجديدة وما بين الديانتين التوحيديين السابقتين لها، المسيحية واليهودية اللتان تنسبا نفسيهما الى (إبراهيم) (4)، وهي تسعى في الوقت ذاته الى نسب العرب بكل قبائلهم الى سلف مشترك، كما أنها تجد مسوغا لها للنبوءة:" وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب". العنكبوت:27.

ثم يصير السلف (إبراهيم) هو أول مبشر بالدين الحنيف الإسلامي، حسب هذا التقارب بين الحنفية والإسلام:" وما كان إبراهيم يهوديا أو نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين". آل عمران: 67 ويأتي الأمر الإلهي للنبي محمد باتباع ملة إبراهيم" ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين." النحل:123.

فالدعوتان في جوهرهما شيء واحد. إن نفرا من أصحاب رسول الله (ص) قالوا له: يا رسول الله، أخبرنا عن نفسك، قال: نعم، أنا دعوة أبي إبراهيم (5) وعندما سأله أحدهم:" ما هذا الدين الذي جئت به؟ قال: جئت بالحنفية دين إبراهيم. (6)

ويلاقي الحفيد السلف الحافر على الحافر، حتى في ملامحه فالجد (إبراهيم) والحفيد (محمد) كأنهما شخص واحد عاش في زمنين مختلفين:" قال ابن إسحاق: وزعم الزهري عن سعيد بن المسيب أن رسول الله (ص) وصف لأصحابه إبراهيم وموسى وعيسى حين رآهم في تلك الليلة (الإسراء والمعراج) فقال: أما إبراهيم، فلم أر رجلا أشبه قط بصاحبكم، ولا صاحبكم أشبه به منه" (7) وتقديرا لهذا السلف يسمي النبي محمد أحد أبنائه بإبراهيم دون سائر الأنبياء.

لأن الدين الإسلامي ينسب نفسه الى (إبراهيم) وإلهه ودعوته فقد سعى الى تعريب ملحمة هذا السلف التوراتي ومقاربتها للحفيد، فالنبي (محمد) عرف بإبن الذبيحين وهما أبوه (عبد الله) وجده (إسماعيل) اللذان يتركب اسميهما العربي المعدل والعبري من الجذر (إيل)، والإثنان تم تقديمهما كقربان بشري للإله، وتم افتداؤهما وتفجرت في ملحمتهما بئر واحدة هي زمزم.

في ثنايا اسم (إسماعيل) نجد اسم إله أبيه الإله (إيل)(EL)- Ishma (سمع إيل)، أي السميع بالله، وقد استعيض عن ذبحه بالكبش، والكبش بالعبرية "إيل"، وقد هاجرت هذه الملحمة التوراتية لتسكن جوف الإسلام حاملة معها الإله (إيل) وجل معتقداته:" فبشرناه بغلام حليم، فلما بلغ معه السعي قال يا ابني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى. قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين فلما أسلما وتله للجبين

وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزي المحسنين إن هذا لهو البلاء المبين وفديناه بذبح عظيم". الصافات:110- 107.

وقد اختلف في تفسير نوعية هذا الذبح العظيم في التراث الإسلامي، وإن اتفق معظمهم على أنه الكبش. ينبع هذا الإختلاف من إن كلمة "إيل" السامية كانت تطلق على العديد من الحيوانات ذات القرون:" حدثنا أبو كريب قال: حدثنا معاوية بن هشام عن سفيان عن رجل عن ابن صالح عن ابن عباس قال:" وفديناه بذبح عظيم" قال كان وعلا". " حدثنا ابن حميد قال: حدثنا سلمة عن ابن إسحاق عن عمرو بن عبيد عن الحسن أنه كان يقول ما فدى إسماعيلا بتيس" (8). وقال علي ابن أبي طالب:" وفديناه بذبح عظيم" قال بكبش أبيض أقرن. (9)

وعلق قرنا الكبش "إيل" الذي فدى به إسماعيل في ميزاب الكعبة، التي صارت لاحقا (بيت الله)، وكانت قد بنيت حينذاك بواسطة النبي (إبراهيم). (10):" وإذا يرفع إبراهيم القواعد من البيت. البقرة: 127.

ويشير التراث الإسلامي الى أن تعليق قرني الكبش (إيل) في الكعبة كان أول الإسلام:" حدثنا ابن حميد قال: حدثنا سلمة عن ابن إسحاق عن الحسن بن دينار عن قتادة بن دعامة عن جعفر بن إياس عن عبد الله بن عباس قال: خرج عليه كبش من الجنة قد رعاها قبل ذلك أربعين خريفا فأرسل إبراهيم ابنه فاتبع الكبش، فأخرجه الى الجمرة الأولى فرماه بسبع حصيات، فأفلته عندها، فجاء الجمرة الوسطى، فأخرجه عندها فرماه بسبع حصيات، ثم أفلته، فأدركه عند الجمرة الكبرى، فرماه بسبع حصيات فأخرجه عندها، ثم أخذه فأتى به المنحر من منى وذبحه، فوالذي نفس ابن عباس بيده، لقد كان أول الإسلام، وإن رأس الكبش المعلق بقرنيه في ميزاب الكعبة وقد وخش (11).

" حدثنا أبو كريب قال: حدثنا ابن يمان عن إسرائيل عن جابر عن العشي قال: رأيت قرني الكبش في الكعبة".

"حدثنا ابن المثنى قال: حدثني عبد الأعلى قال: حدثنا داؤد عن عامر أنه قال: وكان قرنا الكبش منوطين بالكعبة".

توحي هذه الروايات الإسلامية مباشرة بعبادة الإله الكبش (إيل)، فإسم إله الديانة الجديدة اشتق منه، وصار القتل الطقسي المؤد هو الإحتفال الأكثر أهمية في الإسلام، (عيد الأضحى)، وصار طقس الحج الذي قام على حادثة الفداء من أركان الإسلام غاية الأهمية وصار الجد إبراهيم مؤسسا لهذه الدعوة تاريخيا، وأصبح السلف إسماعيل متماهيا مع الكبش، وغدت الكعبة التي بناها وعلى ميزابها قرنا الكبش مركز هذه الديانة وقبلتها. ولا يزال الهلال، المتماهي شكلا مع قرني الكبش هو الرمز الأكثر شهرة للإسلام، معلقا في مآذن المساجد، بيوت الله، الأمر الذي يستدعي تعليق قرني الكبش بميزاب الكعبة، بيت الله، وما زالت العديد من أعلام الدول الإسلامية تتزين بهذا الهلال.

الإله الكبش (إيل):

ارتبط الكبش وقرونه عند العرب بالقوة، وكان من أقدم الطواطم التي قدستها الشعوب السامية وألهتها ونسبت جذورها إليها، فما زلنا نقول (آل محمد) أو (آل علي) على سلف الأسرة ومؤسسها، وتسمت كثير من القبائل العربية بإسم الطواطم ذات القرون كبني عنزة أكبر قبائل الجزيرة العربية.

" والكبش عند العرب الضأن وكبش القوم: رئيسهم وقيل كبش القوم: حاميهم والمنظور إليه فيهم وكبش الكتيبة: قائدها.. وكبشة اسم، وكان مشركو مكة يقولون للنبي: ابن أبي كبشة. أبو كبشة جد النبي وهب بن عبد المناف" (12) وقد انتقلت هذه المعاني من الآرامية والعبرية، فكلمة عنود التي تعني ابن الكبش الصغير بالعربية، تعني بالعبرية (كبش وقائد)، ويعني القرن في العديد من النصوص التوراتية القوة:" أليس بقوتنا اتخذنا لأنفسنا قرونا". عاموس 6:13 و " لأنك أنت فخر قوتهم وبرضاك بنتثل فرننا". مزامير 17:89.

وقد نقل اليهود المستعربين هذه المعاني الى اللغة العربية، يقول الشاعر سماك اليهودي:

فإن لا أمت نأتكما بالقنا ... وكل حسام معا مرهف
بكف كمي به يحتمي ... متى يلق قرنا له يتلف

يقول حسان بن ثابت باكيا حمزة بن عبد المطلب:

والتارك القـــرن لـــدى لبـدة يعثر في ذي الخرص الذابل
واللابس الخيل إذا أحجمت كالليـث في غابتــه الباســل

وقال كعب بن مالك يبكي حمزة بن عبد المطلب أيضا:

والعاقر الكوم الجلاد إذا غدت ريح يكاد الماء منها يجمد
والتارك القرن الكمي مجـدلا يوم الكريمة والقنا يتقصد

وفي النص القرآني وصف للأنعام:" لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه وتقولوا سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين". الزخرف: 13.

وتعني مقرنين، هنا، المشتقة من جذر قرن: أطاقه وقوي عليه. وفي قصة " ذو القرنين" القرآنية نستطيع الربط ما بين اسم هذه الشخصية والقوة الهائلة التي تمتع بها:" ويسألونك عن ذي القرنين قل سأتلو عليكم منه ذكرا أنا مكنا له في الأرض وآتيناه من كل شيء سببا فاتبع سببا". الكهف: 83- 84.

ويقول (ابن هشام) فيه " وكان من خبر ذي القرنين أنه أوتي ما لم يؤت أحد غيره، فمدت له الأسباب حتى انتهى من البلاد الى مشارق الأرض ومغاربها، لا يطأ أرضا إلا سلط على أهلها حتى انتهى من المشرق والمغرب الى ما ليس وراءه شيء من الخلق." (13)

والكبش كما يعني سيد القوم في العربية، فإنه أيضا يعني القوة، قال المجذر بن زياد:

إما جهلت أو نسيت نسبي فـأثبـت النسبـــة أني مــن بني
الطاعنين برماح اليزنـــي والضاربين الكبش حتى ينحني

من اسم هذا الكبش "إيل" تسمى إله الدعوة الجديدة، كما نسب إليه اسم مكة، مركزها وعاصمتها، فاستنادا الى رواية (ابن طيفور المصري) و (القيرواني) القائلة إن أهل حمير كانوا يقلبون القاف كافا، ترى (ثريا منقوش) أن أصل الكلمة مكة هو مقة، وكان مقة اسما للإله السبئي المعروف (إل مقة) الذي اشتق اسمه من الإله الكنعاني (إيل) وانتشرت عبادته بعد انهيار مركز اليمن التجاري بانهيار سد مأرب وتشتت القبائل اليمنية في أرض الحجاز، واستقرار أكبرها (خزاعة) في المنطقة التي صارت تعرف باسم (مكة) (14). " وقد أدرك الرسول (ص) علاقة مكة بأهل اليمن بما توافر لديه من معلومات تاريخية عن العلاقة بين مكة وأهلها، واليمن وقبائلها وعقائدها، فورد على لسانه وهو بالمدينة، ما هنا يمن وما هنا شام، فمكة من اليمن. وقوله (ص): أتاكم أهل اليمن وهم أرق قلوبا. الفقه يماني والحكمة يمانية. وأنا رجل يمان والدين يمان" (15)

القمر ـ الشمس:

ارتبطت عبادة الطواطم ذات القرون كالكبش والثور وغيرها مع عبادة الهلال للتشابه الجلي بين تلك القرون والهلال وارتباطهما في العقل البشري وقتها بالخصوبة، فقد عبدت آلهة القمر في مصر وفلسطين وقبرص وكريت كبقرة طويلة القرن، كما أننا نصادف الهلال وقرص الشمس بين قرني كل من الآلهة: خنمو وأبيس ونوت وحاتحور وبعل ورع وآمون وأوزريس وإيزيس وحورس ..الخ، وقد انتقلت هذه العقائد الى جنوبي الجزيرة العربية باليمن التي قامت دانتها على عبادة الإله القمر (إل مقة) (El Mguh) الذي اشتق منه اسم مكة مباشرة.

وقد عبد المعينيون القمر باسم ود (16)، ويعني الأب ومنها الودود في اللغة العربية، وهو من أسماء الله الحسنى. وعبده الحضارمة بالاسم (سين) وسين في بعض اللغات السامية تطلق على الكباش، والنون الأخيرة هي أداة التعريف في العربية الجنوبية (17). وبعض المتخصصين في اللغات السامية يعتقدون أن الإسم هو ياسين (18)؛ وفي القرآن ياسين والقرآن الحكيم أنك لمن المرسلين" ولعل ذلك يفسر تحريم (مالك) التسمي بهذا الإسم. ومن أسماء الإله القمر عند عرب الجنوب (شهر)، وهو ذاته اسم القمر في النص القرآني:" فمن شهد منكم الشهر فيصمه". البقرة: 115.

وقد كانت الكعبة في الجاهلية مكان مراقبة الهلال. وللقمر في الإسلام مكانة بارزة إذ يرتبط بالزمن، فالسنة قمرية:" يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج". البقرة: 98.

تزينت أحدى السور القرآنية باسم (القمر)، ونجد في العديد من النصوص القرآنية أن الله يقسم به:" كلا والقمر". المدثر: 32 و " القمر إذا اتسق". الإنشقاق: 18.

وظل للقمر مكانته المركزية في الإسلام، بعد أن تحول من (إل) الى (الله)، فصار الرمز الأشهر لهذه الديانة، مزينا مآذن مساجدها ومرصعا جل أعلام بلادها، وظلت الشهور قمرية، والحج قمريا، والصيام قمريا.

عبد أهل اليمن الشمس كزوجة للقمر، وسموها (شمس) حينا و(ذات حميم) حينا آخر، وقد عبدها عرب الجاهلية وتسموا بها، و(عبد شمس) من الأسماء المنتشرة عندهم وقتها، وجعلوها زوجة للإله القمر (إل) وأسموها أيضا (اللات)، تأنيثا لإسم (إل) وتسموا بها (كزيد اللات) وقد اشتق أحد أسمائها في اللغة العربية من الإله الكبش (إيل).

" وقد سمت العرب الشمس لما عبدوها الإلهة، والإلهة هي الشمس الحارة وحكى ثعلب: والألهة والإلهة وألاهة كله الشمس اسم لها". وتبقت رواسب ارتباطها بالإله الكبش (إيل) في تسمية أعلاها (بالقرن)، قالت صفية بنت مسافر بن عبد شمس:

يا من لعين قذاها عاثر الرماد
حد النهار وقرن الشمس لم يقد
أخبرت أن سراة الأكرمين معا
قد أحرزتهم مناياهم الى أمد

وكان العرب يتسمون بالشمس، فعبد شمس هو أصل الفرع القرشي الشهير. وبعد مجيء الإسلام غيرت أسماء بعض من تسموا بعبد شمس الى عبد الله، ومنهم أبو هريرة "، وعبد شمس بن الحارث سماه الرسول عبد الله ". وللشمس مكانتها المتقدمة في العقائد والطقوس الإسلامية وقد سميت بها إحدى السور القرآنية، وأقسم بها الله:" والشمس وضحاها والقمر إذا تلاها ". الشمس: 1- 2.

وقديما قامت كثير من العبادات الإسلامية على عبادة الشمس، فالصلاة في فجر الإسلام ارتبطت بطلوع الشمس وغروبها في صلاتين فقط، " قال السهيلي:" وذكر المزني أن الصلاة قبل الإسراء كانت صلاة قبل غروب الشمس، وصلاة قبل طلوعها، ويشهد لهذا القول قوله سبحانه:" وسبح بحمد ربك بالعشي والأبكار". وقال يحيى ابن سلام مثله" (19) وقد زيد عدد الصلوات الى خمس عقب حادثة الإسراء، لتلاحقها أيضا حركة الشمس"، قال ابن إسحاق، وحدثني عتبة بن مسلم، مولى بني تميم عن نافع بن جبير بن مطعم، وكان نافع كثير الرواية، عن ابن عباس قال: لما افترضت الصلاة على رسول الله (ص) أتاه جبريل عليه السلام، فصلى به الظهر حين مالت الشمس، ثم صلى به العصر، حين كان ظله مثله، ثم صلى به المغرب حين غابت الشمس، ثم صلى به العشاء الآخرة حين ذهب الشفق، ثم صلى به الصبح حين طلع الفجر، ثم جاءه فصلى به الظهر من غد حين كان ظله مثله، ثم صلى به العصر حين كان ظله مثليه، ثم صلى به المغرب حين غابت الشمس لوقتها بالأمس، ثم صلى به العشاء الآخرة حين ذهب ثلث الليل الأول، ثم صلى به الصبح مسفرا غير مشرق، ثم قال: يا محمد، الصلاة فيما بين صلاتك اليوم وصلاتك بالأمس." (20) ولمحاولة الإبتعاد مباشرة عن تقاليد صلاة عبادة الشمس ينهي الإسلام عن الصلاة لحظة شروق الشمس وغروبها، إذ ترتبط الشمس وقتها عندهم بـ (قرني) الشيطان " ولا تحينوا بصلاتكم طلوع الشمس ولا غروبها فإنها تطلع بين قرني الشيطان."

وكما يرتبط رمضان في بدئه ومنتهاه بالهلال، يرتبط الصيام اليومي بشروق الشمس وغروبها، فالإمساك يبدأ عندما:" يتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود"، ويبدأ الإفطار بغروب الشمس وترتبط كثير من طقوس الحج بالشمس منذ الجاهلية، فالحج في الجاهلية ارتبط بوداع شمس الصيف والجفاف الى طقوس قدوم الخريف، مؤسسا لملحمة إسماعيل في دراما الجفاف والعطش الى نعمة الماء؛ ففي غروب شمس التاسع من ذي الحجة يمارس الجاهليون طقوس حجهم الى جبل عرفة، الذي كان يسمى قديما (إلال)، في شعائر تعبر عن انتهاء سطوة حكم الشمس والصيف، وعند شروق الشمس تتم الإفاضة الى مزدلفة وكانت موقعا لعبادة إلة الرعد والماء والخصوبة (قزح)، وهو ذاته الإله النبطي (ذو الشرى)، وقزح الآن جبل بالمزدلفة تعبد إليه النبي (محمد)،" وقال حين وقف على قزح صبيحة المزدلفة: هذا الموقف وكل المزدلفة موقف" ثم يذهب الجاهليون عقب ذلك الى منى، كما يفعل الحجيج المسلم اليوم، وتقذف الحجارة على الشيطان المتماهي بإله الشمس الذي أنزل من عليائه الإلهية الى مرتبة شيطان وقت غروب الشمس.

" كانت صوفة تدفع بالناس من عرفة، وتجيز بهم إذا نفروا من منى، فإذا كانت يوم النفر أتوا لرمي الجمار، ورجل من صوفة يرمي للناس، لا يرمون حتى يرمي. فكان ذوو الحاجات المتعجلون يأتونه، فيقولون له، قم فأرم حتى نرمي معك، فيقول لا والله، حتى تميل الشمس فيظل ذوو الحاجات الذين يحبون التعجل يرمونه بالحجارة، ويستعجلونه بذلك ويقولون له: ويلك! قم فارم، فيأبى عليهم. حتى إذا مالت الشمس قام فرمى ورمى

الناس معه". ويمثل النحر عندها في الإسلام استجلابا للإله الكبش إله الخصوبة والماء المتمثل في الجد (إسماعيل).

الهـــوامـــش

---

(1) لسان العرب، مجلد 13، ص 471.
(2) المعري: رسالة الغفران، تحقيق وشرح د. بنت الشاطئ، دار المعارف القاهرة، 1956م، ص1.
(3) عماد الصباغ، سبق ذكره، ص 23.
(4) د. طه حسين، في الشعر الجاهلي، دار المعارف للطباعة والنشر، سوسة، تونس دون تاريخ، ص38.
(5) ابن هشام، السيرة، ج1، ص 166 .
(6) ابن هشام، السيرة، ج2، ص 585.
(7) ابن هشام، السيرة، ج12، ص400.
(8) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج1، تحقيق محمود أبو الفضل، دار القاهرة، ط4، ص 277.
(9) المصدر نفسه، ص 277.
(10) المصدر نفسه، ص 276.
(11) المصدر نفسه، ص 269.
(10) أبو اسحاق الثعلبي: قسس الأنبياء المسمى عرائس المجالس، الملكية الثقافية، بيرون، ص 91.
(11) ابن منظور: لسان العرب، ج13، ص471.
(12) ابن هشام، السيرة، ج1، ص307.
(13) ثريا منقوش: مرجع سابق، وسيد محمود القمني: رب الزمان، مدبولي الصغير، القاهرة، 1996، ص 162.
(14) ثريا منقوش: المرجع السابق، ص 87.
(17) سيد محمود القمني، الأسطورة والتراث، ص 116.
(18) ديتلف نيلسن (وآخرون)، الديانة العربية القديمة، ترجمة د. فؤاد حسين، مكتبة النهضة العربية، القاهرة، 1958، ص 188.
(19) د. أنيس فريحة: دراسات في التاريخ، دار النهار، بيروت، 1980
(20) ابن هشام، السيرة، ج1، ص 243.
(21) المرجع السابق، ج1، ص 245.

الباب السادس عشر

إلــه الإسلام
بقلم راضــي

يشير الدكتور جواد علي في الجزء الثامن من كتابه المفصل في تاريخ العرب صفحة 432، معلقا على إله القمر:" وأما القمر، فمن آلهة العرب الجنوبيين البارزة. ويعرف عندهم بـ (هلل) أي (هلال). والقمر من التسميات العربية الشمالية. وأما الهلال، فإنه القمر في أيامه الأولى عند أهل الحجاز. وللقمر أسماء نطقت بها العرب. فمنها: الطوس والباهر والغاسق والزبرقان والواضح والزمهرير والسنمَّار والساهور. والساهور هو القمر في الآرامية، من Sahro.

ويذكر الدكتور جواد علي في الجزء السادس من كتابه المفصل في تاريخ العرب صفحة 304، مشيرا الى (إل) و (إيل) أحد الآلهة المشهورة لدى العرب:

" ومن بين أسماء آلهة العرب الجنوبين اسم الإله: (إل) (إيل)، ذكر اسمه مستقلا كما ورد مقرونا بإسم الإله (عثتر) كما في الكتابتين الموسومتين بِـ Halevy, 144 بــ Halevy,150, وقد قدم ذكره فيها على اسم الإله (عثتر). وقد ورد بكثرة في الأعلام المركَبة."

ويذكر الدكتور جواد علي في الجزء السادس من كتابه المفصل في تاريخ العرب صفحة 313، عن الكتابات القديمة التي تم إكتشافها في الكتابات الثمودية (1)، فيما يخص أسماء آلهتم والتي من ضمنها الإله (إل) (إيل):

" وفي الكتابات الثمودية أسماء مركبة مثل (يعذر ال) (يعذر ايل)، (وصلم ال) (صلم ايل)، و (وعزر ال) (وعزر ايل)، و(سعدال) (سعدايل)، و(ودال) (ودايل)، اختتمت بإسم الإله (ال) (ايل)، مما يدل على أن (ال) (ايل) كان من الآلهة التي تعبَّد لها قوم ثمود."

كذلك يذكر الدكتور جواد علي في الجزء السادس من كتابه المفصل في تاريخ العرب صفحة 314، عن الكتابات اللحيانية، والتي تكشف المزيد عن اسماء الآلهة الموجودة في عصرهم ومن ضمنهم طبعا (ال) و (ايل):" ووردت في الكتابات اللحيانية (2)، اسماء جملة آلهة. منها (ذغابت) (ذو غابة) و (عوض) و(ود)، و(بعل سمن)، و(سلمان) (سلمن)، و (العزى)، و(منف) (مناف)، و(جدت)، و(ال) (ايل)، و(إله) و(لت) (الت)، و(سمع)، و(نصر)، و(منت)، و(هفلس)، و(عجلبون) (عجلبن)، واكثر هذه الآلهة كما نرى معروفة، وردت اسماؤها في الكتابات وفي مؤلفات أهل الأخبار."

كما يستطرد الدكتور جواد علي في الجزء السادس من كتابه المفصل في تاريخ العرب صفحة 318-319، مضيفا:" ولدينا اسماء ونعوت آلهة تعبد لها اللحيانيون من غير شك، وإن لم نعثر عليها في كتاباتهم، توصلنا الى معرفتها والوقوف عليها من دراستنا للأسماء اللحيانية المركبة، مثل (كبر ال) (كبر ايل) (3)، و(متع ال) (متع ايل)، و(ذرح ايل) (ذر حال)، و(غذر ال) (عذر ايل)، وأمثال ذلك، فإن اللفظة الثانية وهي (ال) (ايل)، هي الإله (ايل) (ايلو) وهو من الآلهة السامية القديمة."

ويضيف الدكتور جواد علي في الجزء السادس من كتابه المفصل في تاريخ العرب صفحة 321، معلقا على آلهة اللحيانيين:" وقد وردت لفظة (هله) هـ ـ لاهـ في كتابة لحيانية، وردت بصيغة التوسل والنداء والخطاب، أي بمعنى: (اللهم) و (يا الله). ووردت لفظة (لله)، أي (الى الإله) أو (لله)، في كتابة أخرى. وهي لا تعني في كلتا الحالتين إلها خاصا معينا، وإنما تؤدي المعنى الذي تؤديه لفظة (إله) و (الإله) في عربيتنا، و Godفي الإنكليزية، وربما قصد بها إله لحيان الأكبر (ذو غابة)، كما يقصد المسلمون بإطلاقها لفظنة (الله)، وذلك للتعبير عن اسم الله بإسلوب مؤدب مهذب."

ويستفيض الدكتور جواد علي في الجزء السادس من كتابه المفصل في تاريخ العرب صفحة 322، شارحا معنى لفظة (ال) (ايل):

" وعلى الرغم من ورود (ال) (ايل) El بصورة يستنبط منها إنها قصدت إلها معينا خاصا، أي اسم علم، لا نستطيع أن نقول إن (ال) اسم علم لإله معين مخصوص، مثل الآلهة الأخرى التي ترد اسماؤها في الكتابات، ذلك لأن الذين ذكروا (ال) (ايل) في الأعلام المركبة، أو في مواضع أخرى من كتاباتهم لم يقصدوا كما تبين من الإستعمال إلها معينا اسمه (ال) (ايل)، وإنما أرادوا ما نعبر عنا بقولنا (إله) والجمع آلهة. فلفظة (إله) عندنا ليست اسم علم، وإنما تعبر عن اسم الجلالة دون ذكر اسمه. وهي كذلك عندهم وعند بقية الساميين بمعنى (رب)، وإله و (بعل) عند الأقدمين. ولا يعرف العلماء معنى لفظة (ال) (ايل) على وجه علمي دقيق. ولكنهم يفسرونها عادة بمعنى (القدير) و (الحاكم). ومعنى ذلك أن (ال) نعت من نعوت الآلهة، أو اسم من أسماء الله الحسنى بحسب التعبير الإسلامي. ويرى بعض العلماء احتمال عدم وجود صلة له بـ (الوهيم) الكلمة العبرانية التي تطلق على الإله."

ويذكر الدكتور جواد علي في الجزء السادس من كتابه المفصل في تاريخ العرب صفحة 176:

" وإذا أردنا تلخيص ما توصلنا إليه عن آلهة العرب الجنوبيين، قلنا أنهم تعبدوا كما ذكرنا لثالوث سماوي تألف من القمر والشمس ومن عثتر، وهو الزهرة في رأي معظم الباحثين. وقد عرف القمر بـ (ود) عند المعينيين، وبـ (عم) عند قتبان، وبـ (سن) عند حضر موت، وبـ (ود) عند أوسان. وعرفت الشمس بـ (نكرح) عند المعينين، وبـ (شمس) عند السبئيين، وبـ (اثرت) (اثيرت) عند القتبانيين، وبـ (شمس) عند أهل حضرموت وأوسان. وعرف (عثتر) بـ (عثتر) عند المعينيين والسبئيين وعند قتبان وأهل حضرموت والأوسانيين."

ويستنتج الدكتور جواد علي في الجزء السادس من كتابه المفصل في تاريخ العرب صفحة 174، أن إله القمر في التراث العربي الديني القديم، قد أستخلصوا منه بعض العرب في الجاهلية اسم وعبادة (الله)، بعد توحيد ثلاثة معبودات، هي القمر والشمس وعثتر، فيقول:" ونجد الإله (القمر) يلعب دورا كبيرا في الأساطير الدينية عند الجاهليين. دورا يتناسب مع مقامه بإعتباره رجلا بعلا أي زوجا، والزوج هو (البعل)، والرب والسيد وصاحب الكلمة على زوجه وأهله عند العرب. وهو القوي ذو الحق، وعلى الزوجة حق الطاعة والخضوع له. وبناء على هذه النظرية جعل الإله القمر صاحب الحول والصول والقوة في عقيدة أهل الجاهلية في الأرباب. ومن هذا الإله القوي الجبار، جاء (الله) بعد أن تحول الثالوث عند بعض الجاهليين الى (واحد)، واستخلصوا منه عبادة (الله).

قبل الإسترسال في تدوين ما يخص مكة والكعبة، والأصنام وغيرها من عقائد المسلمين، يجب أن نشير، أنه وتماشيا مع المثل القائل، المنتصر هو الذي يكتب التاريخ، فإن تاريخ الإسلام والعرب تم تزويره وتلميعه، ليتلائم مع الصورة المهلهلة لنبي الإسلام، والخلافة الإسلامية التي أتت من بعده، من تاريخ الخلفاء الأربعة الأوائل (الخلفاء الراشدين) الى الخلافة العباسية.

يلمح الدكتور جواد الى ذلك التزوير أو التجميل، فيشير في صفحة 16 من الجزء الرابع من كتابه المفصل في تاريخ العرب كالتالي:

" وإذا كان أهل الأخبار قد أدخلوا (الإسكندر) مكة، وصيَّروه رجلا مؤمنا، حاجا من حجاج البيت الحرام، فلا غرابة إذن إن جعلوا أسلاف الفرس فيمن قصد البيت وطاف به وعظمه وأهدى له. بعد أن صيَّروا (إبراهيم) جدا من أجدادهم وربطوا نسب الفرس بالعرب العدنانيين. فقالوا: وكان آخر من حج منهم (ساسان بن بابك) وهو جد (أردشير). فكان ساسان إذا أتى البيت طاف به وزمزم على بئر إسماعيل، فقيل إنما سميت زمزم لزمزمته عليها، هو غيره من فارس."

ويضيف في الصفحة (17) من نفس الكتاب ما يلي:

" ولا نملك اليوم أثرا جاهليا استنبط منه علماء الآثار شيئا عن تأريخ مكة قبل الإسلام، ولذلك فكل ما ذكره عنها هو من أخبار أهل الأخبار، وأخبارهم عنها متناقضة متضاربة، لعبت العواطف دورا بارزا في ظهورها. ولا يمكن لأحد أن يكتب في هذا اليوم شيئا موثوقا معقولا ومقبولا عن تاريخ هذه المدينة المقدسة في أيام الجاهلية القديمة، لأنه لا يملك نصوصا أثرية تعينه في التحدث عن ماضيها.

ويقول المقريزي في " المواعظ والإعتبار في ذكر الخطب والآثار" الجزء الأول (45-167).

وكانوا: يُصلون لكل كوكب يوما يزعمون أنه رب ذلك اليوم وكانت صلاتهم في ثلاثة أوقات: الأولى عند طلوع الشمس والثانية عند استوائها في الفلك والثالثة عند غروبها فيُصلون لزحل يوم السبت وللمشتري يوم الأحد وللمريخ يوم الإثنين وللشمس يوم الثلاثاء وللزهرة يوم الأربعاء ولعطارد يوم الخميس وللقمر يوم الجمعة.

هل الصنم هبل هو إله الإسلام (الله أكبر)؟

قبل أن نسترسل في الحديث، ربما يعترض أحدهم بهذا السؤال:

كيف يكون الصنم هبل هو إله الإسلام؟ وقد أمر محمد أصحابه بتدمير هذا الصنم الموجود داخل الكعبة؟ وذلك في يوم فتح مكة في رمضان من السنة الثامنة للهجرة.

الجواب: إن هبل الصنم الذي كان موجود في جوف الكعبة هو رمز، والمرموز له هو (الله أكبر)، الذي كان محمد يعلم أصحابه أن إلهه (الله أكبر) كان موجود وجالس على العرش في السماء السابعة. محمد أخبر أصحابه أيضا أنه قد زار (الله أكبر) عندما صُعِدَ به الى السماء في حادثة المعراج. فلم يضر محمد عندما أمر أصحابه بتحطيم ذلك الصنم، حتى تكون كل مقاليد الأمور بيده، المقاليد الدينية والسياسية. وليس بيد قريش أو سادن لصنم. وقد نجح في ذلك نجاحا باهرا.

في أيامنا الحالية، توجد فرق إسلامية تقدس صور ورسوم لمحمد وأهل بيته، مثل الشيعة. لكن المسلمين السلفيين لو رؤوا أي صورة أو ر سم لمحمد لمزقوها ورموها في أكوام الزبالة. وقد حدث هذا لي شخصيا في مطار الظهران الدولي بالمملكة العربية السعودية سنة 1993م (حينها كنت مسلم). بعد أن أمِرت بالذهاب لغرفة التفتيش الشخصية. لقد تم مصادرة جميع رسوم محمد التي كانت عندي، ورأيت المسئول هناك يمزقها ويرميها في صفيحة الزبالة.

فهل يعتقد السائل أن السلفيين بتمزيقهم صورة أو رسم لمحمد ورميها في صفيحة الزبالة، أنهم بذلك لا يعترفون أو لا يقدسون محمد؟ أو أنهم لا يقرون بوجود شخص أو نبي إسمه محمد؟ أو أنهم لا يتبعون تعاليم محمد؟ أو أنهم يكرهون محمد؟

إن ما فعله محمد مع الصنم هبل، هو نفس الشيء الذي يفعله السلفيون الآن مع أي رسم أو صورة لمحمد**!!**

في الصفحة 283 من الجزء السادس من كتابه المفصل في تاريخ العرب، يصف الدكتور جواد علي بعض الطقوس الوثنية، التي كان يؤديها العرب في الجاهلية، ويقصد بها هنا الطواف (الدوار) (4):" ويظهر من دراسة ما ورد في كتب أهل الأخبار وفي كتب اللغة عن (الدوار) أن الدوار لم يكن صنما، وإنما هو طواف حول صنم من الأصنام، أي عبادة من العبادات لا تختص بصنم معين. وقد كان من عادة الجاهليين الطواف حول الأصنام، فظن بعض أهل الأخبار أن الدوار صنم معين، أو أنه صنم ينصب، فيدور حوله الناس."

كما يذكر في الصفحة 233-234 من الجزء السادس من نفس الكتاب، في معرض حديثه عن الصنم (اللات)، (تظهر الرواية التالية كيف وصل الأمر بعرب الجاهلية بإطلاق اسم الله أكبر على أحد أصنامهم، لذا، أعتقد أن ذلك الصنم ـ هبل ـ هو (الله) لدى قبيلة قريش وغيرها من القبائل العربية ـ الباحث) " وقد أقسموا باللات، كما أقسموا بالأصنام الأخرى، ونسب الى أوس بن حجر (5) قوله: وباللات والعزى ومن دانها وبالله، إن الله منهن أكبر."

أيضا يذكر في الصفحة 252-253 من الجزء السادس من نفس الكتاب، في معرض حديثه عن أحد أصنام العرب المهمة جدا (هبل):" وذهب بعض المستشرقين الى أن (هبل)، هو رمز الى الإله القمر، وهو إله الكعبة، وهو الله عند الجاهليين. وكان من شدة تعظيم قريش له أنهم وضعوه في جوف الكعبة. وأنه كان الصنم الأكبر في البيت."

ونقل عن ابن الكلبي، وغيره من المؤرخين، مثل: سبائك الذهب للأزرقي، وابن هشام، والطبري، والإستقامة، والمعارف، وخزانة الأدب، والكامل لإبن الأثير، ومروج الذهب، والبداية والنهاية، فذكر الدكتور جواد علي في صفحة 250-251 من نفس المصدر السابق:" يقول ابن الكلبي:" وكانت لقريش أصنام في جوف الكعبة وحولها، وكان أعظمها هبل. وكان فيما بلغني من عقيق أحمر على صورة إنسان، مكسور اليد اليمنى. أدركته قريش فجعلت له يدا من ذهب. وكان في جوف الكعبة قدامه سبعة أقداح، مكتوب في أولها: صريح والآخر ملصق. فإذا شكوا في مولود أهدوا إليه هدية، ثم ضربوا بالقداح فإن خرج صريح ألحقوه، وإن خرج ملصق دفعوه. وقدح على الميت، وقدح على النكاح، وثلاثة لم تفسر لي على ما كنت. فإذا اختصموا في أمر، أو أرادوا سفرا أو عملا، أتوه فاستسقوا بالأزلام عنده. فما خرج، عملوا به وانتهو إليه. وعنده ضرب عبد المطلب بالقداح على ابنه عبد الله."

أيضا يذكر في الصفحة 252 من الجزء السادس من نفس الكتاب، في معرض حديثه عن أحد أصنام العرب المهمة جدا (هبل)، فيقول:

" ويذكر أهل الأخبار أن (هبل) كان أعظم أصنام قريش، وكانت تلوذ به وتتوسل إليه، لِيَمُنَّ عليها بالخير والبركة، وليدفع عنها الأذى وكل شر. وكانت لقريش أصنام أخرى في جوف الكعبة وحولها، ولكن هبل هو المقدم والمعظم عندها على الجميع. وقد نصب على الجب الذي يقال له (الأخسف)، وهو بئر، وكانت العرب تسميها (الأخشف)."

ولهذا نجد إن الإله الصنم هبل (الله أكبر) وهو أحد أصنام العرب الـ360، نجد أن له صفات عليا، وقد أقرتها قريش، مثل قدرة الخلق والرزق والضر والنفع والتصرف بشئون الكون. كما أقرها أو أخذها نبي الإسلام منهم، فالإسلام لم يأت بجديد.

فقد ورد في سورة العنكبوت - سورة 29 - آية 61- 63:

وَلَئِن سَألتَهُم من خلقَ السمَوَاتِ وَالأرضَ وَسَخَّرَ الشَّمسَ وَالقَمَرَ ليَقُولنَّ اللهُ فَأنَّى يُؤفَكُونَ اللهُ يَبسُطُ الرِّزقَ لِمن يَشاء مِن عِبادِهِ ويَقدِرُ لهُ إن اللهَ بِكلِّ شيء عليمٌ ولئِن سألتَهُم من نزل من السماء ماء فأحيا بِهِ الأرْضَ من بعدِ موتِها ليقُولن اللهُ قُل الحَمْدُ للهِ بَلْ أكثَرُهُم لا يَعقلونَ.

أيضا ورد في سورة لقمان - سورة 31 - آية 25:

وِلئِن سألتِهُم من خَلَقَ السَّماوَاتِ والأرْضَ ليَقُولنَّ اللهُ قلِ الحَمْدُ للهِ بل أكثَرُهُم لا يَعلمُونَ.

أيضا ورد في سورة الزمر - سورة 39 - آية 38:

وَلئِن سألتَهُم مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ قُلْ أفَرأيْتُم مَّا تَدْعُونَ من دُونِ اللهِ إنْ أرَدَني اللهُ بِضُرَّ هَلْ هُنَّ كاشِفَاتُ ضُرِهِ أوْ أرَادني بِرحمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمسِكاتُ رَحمَتِهِ قُلْ حَسبي اللهُ عَلَيْهِ يَتَوكلُ المُتَوكلونَ.

أيضا جاء في سورة الزخرف - سورة 43- آية 9:

وَلئِن سَألتَهُمْ من خَلَقَ السَّمَاواتِ وَالأرضَ ليَقُولنَّ خَلقَهُنَّ العَزيزُ العَليمُ.

كذلك ورد في سورة الزخرف - سورة 43- آية 87:

وَلئِن سَألتَهُمْ من خَلقَهُم ليَقُولنَّ اللهُ فَأني يُؤفكونَ.

إضافة الى ذلك، فقد كانت قريش تتقرب الى إلهها الكبير (الصنم الله "هبل") عن طريق الآلهة الصغيرة أو الأقل مرتبة، إن جاز التعبير. دليلنا في ذلك هو القرآن نفسه. حيث ورد في سورة الزمر - سورة 39- آية 3:

وَالذينَ اتَّخذُوا مِن دُونهِ أولِياءَ ما نَعبُدُهُمْ إلا لِيُقرِّبُونا الى اللهِ زُلفَى.

يفاجئنا الدكتور جواد علي في الجزء السادس من كتابه المفصل في تاريخ العرب صفحة 306، عن وجود صنم لإله إسمه رحمن، وهو إسم من أسماء إله الإسلام (الله أكبر).:

ونقرأ في النصوص العربية الجنوبية اسم إله جديد، هو الإله (رحمن)، أي (الرحمن). وهو إله يرجع بعض المستشرقين أصله الى دخول اليهودية الى اليمن وانتشارها هناك. وهذا الإله هو الإله (رحمنه) Rahman-a (رحمنا) في نصوص تدمر.

وورد في نص: (رحمنن بعل سمين) (رحمنن بعل سمن)، أي (الرحمن رب السماء) أي أنه إله السماء. فصار في منزلة الإله (ذ سموي). ثم لقب بـ(رحمنن بعل سمين وارضن)، أي (الرحمن رب السماء والأرض) في نصوص أخرى. فصار إله السماوات والأرضين.

بدى جليا الآن، ومن خلال نقل القرآن لمعتقدات العرب، خاصة قريش، الذي يثبت أنهم كانوا يؤمنون بالخالق، وهو معبودهم الصنم (الله أكبر "هبل")، لكنهم في نفس الوقت كانوا يحتفظون به في جوف الكعبة، كصنم يرمز للإله الأعلى وخالق البشر وكل المخلوقات، تماما كما كانت تقدسه الحضارات القديمة في بلاد الشام، في الماضي السحيق، معتقدين أنه الإله الأعلى وخالق البشر وكل المخلوقات، وذلك قبل أكثر من ثلاثة آلاف سنة قبل إدعاء محمد النبوة.

لقد كانت قريش والعرب تعرف اسم هذا الإله الصنم (الله أكبر) بجانب اللات والعزى ومناة ومناف ويغوث ويعوق ونسرا، ومئات أخرى من الأصنام والأوثان. كل تلك الأصنام كانت لها علاقة بطريقة أو بأخرى بكعبة قريش

(كعبة المسلمين حاليا). ويروي بعض الرواة المحدثين والمؤرخين أن كل تلك الأصنام كانت محيطة بالكعبة والبعض في جوفها والبعض فوقها.

أن كثير من الباحثين والعلماء خاصة علماء الحفريات قد عثروا على أدلة وجود إله القمر في الجزيرة العربية وحضارة ما بين النهرين، إضافة لمصر. المنحوتات لذلك الإله أحيانا ما تأتي أو تقترن بالهلال كما بالصورة الموجودة على غلاف الكتاب. الهلال لا زال يرمز للإسلام، والى يومنا هذا. فنجد إنه موجود على جميع قباب ومآذن المساجد والجوامع. وعلى بعض الأعلام والرايات، سواء لدول أو لمنظمات إسلامية. بل أن ذلك الهلال أصبح شعارا حتى لبعض الأندية الرياضية والمؤسسات الطبية والتعليمية والعلمية والثقافية والفنية والإجتماعية والصناعية والزراعية والتجارية والسياسية والعسكرية والأمنية والقضائية. فلا غرابة إذن إن إله الإسلام (الله أكبر) كان في الأساس إلها للقمر.

توحيد الألهة:

ورد في سورة ص - سورة - آية 5:

أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيءٌ عُجابٌ

سبب النزول:

حدثنا أبو كريب وابن وكيع، قالا: ثنا أبو أسامة، قال: ثنا الأعمش، قال: ثنا عباد، عن سعيد بن جُبير، عن ابن عباس، قال: لما مرض أبو طالب دخل عليه رهط من قريش فيهم أبو جهل بن هشام فقالوا، إن ابن أخيك يشتم آلهتنا، ويفعل ويفعل، ويقول ويقول، فلو بعثت إليه فنهيته فبعث إليه، فجاء النبي (ص) فدخل البيت، وبينهم وبين أبي طالب قدر مجلس رجل، قال: فخشي أبو جهل إن جلس الى جنب أبي طالب أن يكون أرق له عليه، فوثب فجلس في ذلك المجلس، ولم يجد رسول الله (ص) مجلسا قرب عمه، فجلس عند الباب، فقال له أبو طالب: أي ابن أخي، ما بال قومك يشكونك؟ يزعمون أنك تشتم آلهتهم، وتقول وتقول قال: فأكثروا عليه القول، وتكلم رسول الله (ص) فقال:" يا عمَ إنَي أريدُهُم على كلمة واحدة يقُلونها، تدينُ لهُم بها العربُ، وتُؤدي إليهم بها العَجَمُ الجزية" (6).

من أسباب النزول، يتضح أن إدعاء محمد بالنبوة فقط كان سعيه للملك وإخضاع الممالك الأخرى للعرب، وليس لنشر الفضائل والعدالة بين العرب، أو حتى لنشر دعوة إلهية المصدر.

معنى الآية حسب أقوال المفسرين المعتمدين لدى أغلبية المسلمين بكافة طوائفهم

1- جامع البيان في تفسير القرآن/ الطبري (ت 310 هـ)

وقوله: {أجعلَ الآلِهَةَ إلها واحِدا} يقول: وقال هؤلاء الكافرون الذين قالوا: محمد ساحر كذاب: أجعل محمد المعبودات كلها واحدا، يسمع دعاءنا جميعنا، ويعلم عبادة كل عابد عبدَه منا (إنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجابٌ): أي إن هذا لشيء عجيب، كما: حدثنا بشر، قال: ثنا يزيد، قال: ثنا سعيد، عن قتادة (أَجَعَلَ الآلِهَةَ إلها واحدا إنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجابٌ) قال: عجب المشركون أن دُعوا الى الله وحده، وقالوا: يسمع لحاجتنا جميعا إله واحد ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة.

2- تفسير الجامع لأحكام القرآن/ القرطبي (ت 671 هـ)

قوله تعالى (أجعَلَ الآلِهَةَ إلها واحِدا) مفعولان أي صير الآلهة إلها واحدا. (إن هذا لشَيْءٌ عُجابٌ) أي عجيب.

3 - تفسير القرآن الكريم/ ابن كثير (ت 774 هـ)

فلما دعاهم الرسول (ص) الى خلع ذلك من قوبهم، وإفراد الإله بالوحدانية، أعظموا ذلك، وتعجبوا وقالوا: {أَجَعَلَ الألِهَةَ إلها واحِدا إن هَذا لشَيْءٌ عُجابٌ وانطَلَقَ المَلأُ مِنهُمْ} وهو سادتهم وقادتهم، ورؤساؤهم وكبراؤهم قائلين: {امشُوا} أي: استمروا على دينكم، {وَاصبِرُوا على الِهتكم} ولا تستجيبوا لما يدعوكم إليه محمد من التوحيد، وقوله تعالى: {إنَّ هَذَا لشَيءٌ يُرادُ} قال ابن جرير: إن هذا يدعونا إليه محمد (ص) من التوحيد لشيء يريد به الشرف عليكم، والإستعلاء، وأن يكون له منكم أتباع، ولسنا نجيبه إليه.

4- تفسير أنوار التنزيل وأسرار التأويل/ البيضاوي (ت 791 هـ)

(أجعل الآلِهة إلها واحِدا) بأن جعل الألوهية التي كانت لهم لواحد. {إن هَذا لشَيءٌ عُجابٌ} بليغ في العجب فإنه خلاف ما أطبق عليه آباؤنا، وما نشاهده من أن الواحد لا يفي علمه وقدرته بالأشياء الكثيرة.

5 - تفسير فتح القدير/ الشوكاني (ت 1250 هـ)

فقالوا: {أَجَعَل الآلِهَةَ إلها واحِدا} اي: صيرها إلها واحدا، وقصرها على الله سبحانه {إِنَّ هَذا لشَيءٌ عُجابٌ} أي: لأمر بالغ في العجب الى الغاية. قال الجوهري: العجيب: الأمر الذي يتعجب منه.

6- تفسير القرآن/ علي بن ابراهيم القمي (ت القرن 4هـ)

فقالوا (قوم قريش): ندع ثلاثمائة وستين إلها ونعبد إلها واحدا فأنزل الله تعالى: {وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب أجعل الآلهة إلها واحدا - الى قوله - إلا اختلاق} [4-7] أي: تخليط.

7- تفسير الميزان في تفسير القرآن/ الطبطبائي (ت 1401 هـ)

فمعنى جعله صلى الله عليه وآله وسلم الآلهة إلها واحدا هو إبطاله الوهية الآلهة من دون الله وحكمه بأن الإله هو الله لا إله إلا هو.

8 - تفسير الوسيط في تفسير القرآن الكريم / طنطاوي (مـ 1928م)

فقالوا: كما حكى القرآن (أَجَعَل الآلِهَةَ إلها واحِدا)

والإستفهام للإنكار: أي: أجعل محمد (ص) الآلهة المتعددة، إلها واحدا. وطلب منا أن ندين له بالعبادة والطاعة؟ (إن هَذا لشَيءٌ عُجابٌ) أي: إن هذا الذي طلبه منا، ودعانا إليه، لشئ قد بلغ النهاية في العجب والغرابة ومجاوزة ما يقبله العقل. و(عُجابٌ) أبلغ من عجيب، لأنك تقول في الرجل الذي فيه طول: هذا رجل طويل، بينما تقول في الرجل الذي تجاوز الحد المعقول في الطول: هذا الرجل طوال. فلفظ (عُجابٌ) صيغة مبالغة سماعية، وقد حكاها - سبحانه - عنهم للإشعار بأنهم كانوا يرون - لجهلهم وعنادهم - أن ما جاءهم به الرسول؛ هو شئ قد تجاوز الحد في العجب والغرابة.

واسم الإشارة يعود الى جعله صلى الله عليه وسلم الآلهة إلها واحدا، لأنهم يرون - لإنطماس بصائرهم - أن ذلك مخالف مخالفة تامة لما ورثوه، عن آبائهم وأجدادهم من عبادة للأصنام.

9- تفسير أيسر التفاسير/ أبو بكر الجزائر (مـ 1921 م)

(أَجَعَلَ الآلِهَةَ إلها واحِدا):

{أي لما قال لهم قولوا لا إله إلا الله، فقالوا كيف يسع الخلائق إله واحد؟} (إن هذا لشيء عجاب) أي جعل الآلهة إلها واحدا أمر عجيب.

10- تيسير التفسير/ اطفيش (ت 1332 هـ)

(أَجَعَل الآلِهَةَ إلها واحِدا إِنَّ هَذا لشِيءٌ عُجابٌ)

{أَجَعَل الآلهة} المتعددة {إلها واحدا} هو الله عز وجل، كيف يبطلها ويثبت واحدا ولا يسمى إلها إلا واحدا سبحانه وتعالى، والإستفهام تعجب إنكار، ومعلوم أن المتعدد لا يكون واحدا، وأنه لا تعدد في اعتقاده صلى الله عليه وسلم، لكن المعنى تعجبهم من نفى معنى الألوهية عن غير الله البته، ونفى اسمها عن غيره كذلك {إِنَّ هذا} أي هذا الجعل {لشَيءٌ عُجبٌ} ما المانع أن تكون آلهة صغار تحت إله كبير سبحانه وعالى نتوسل بها إليه، وذلك منهم خطأ واضح لهم ولغيرهم تعمدوه، تقليدا لآبائهم، ألا يرون أنها لا تنفع ولا تضر، ولا تعلم شيئا ولا تعين الله في علم ولا عمل، وليس فيها معنى الألوهية "ولئن سألتهم من خلق" الخ وربما توهموا لألفتهم لها أنها قد تضر وقد تنفع، وفُعال بضم وتخفيف وارد في المبالغة، يقال: رجل طوال وسراع، أي بليغ في العجب نادرة فيه أو محال.

11- تيسير التفسير/ القطان (ت 1404 هـ)

وقالوا: هذا ساحر كذاب، كيف جعل الآلهة كلها إلها واحدا! إن هذا لأمر عجيب.

12- تفسير المنتخب في تفسير القرآن الكريم/ لجنة القرآن والسنة

أجعل الآلهة المتعددة إلها واحدا؟ إن هذا الأمر بالغ نهاية العجب

13- تفسير روح البيان في تفسير القرآن/ اسماعيل حقي (ت 1127هـ)

(أجعل الآلهة إلها واحدا) الهمزة للإنكار والإستبعاد. والآلهة جمع إله وحقه أن لا يجمع إذ لا معبود في الحقيقة سواه تعالى لكن العرب لإعتقادهم أن ههنا معبودات جمعوه فقالوا آلهة. وإلها واحدا مفعول ثان لجعل لأنه بمعنى صير أي صيرهم إلها واحدا في زعمه وقوله لا في فعله لأن جعل الأمور المتعددة شيئا واحدا بحسب الفعل محال.

الإستنتاج:

من خلال الشروح التي سردناها لأغلبية المفسرين المسلمين، والذين يمثلون كافة مذاهبهم، يتضح لنا أكثر معنى ذلك التوحيد الذي قام به محمد، وهو تصييره جميع تلك الآلهة المتعددة والمتفرقة ومن ضمنها الصنم (الله "هبل") لتكون إلها واحدا، أي وحدهُم ليكونوا إله كبير واحد إتفق على تسميته الله أكبر، ليكون إلها للمسلمين.

الهـــوامـــش

(1) قوم ثمود كانوا من سكان شبع الجزيرة العربية القدماء، عاشوا منذ 715 قبل الميلاد، يعتقد بأنهم قطنوا شمالا نحو الحجاز وسكنوا الحجر والبتراء.

(2) مملكة لحيان هي مملكة عربية قديمة، قامت في الحجر شمال غرب المملكة العربية السعودية كانت تسمى في أولى مراحلها مملكة ديدان ودامت مملكة لحيان في مرحلتها الأولى في الفترة (2000ق.م -1700ق.م.) وفي مرحلتها الثانية بين (1300ق.م. - 9000ق.م. الى 20ن0ق.م.) ومرحلتها الثالثة بعد الإستقلال من الأنباط في الفترة بين (107م - 150م)

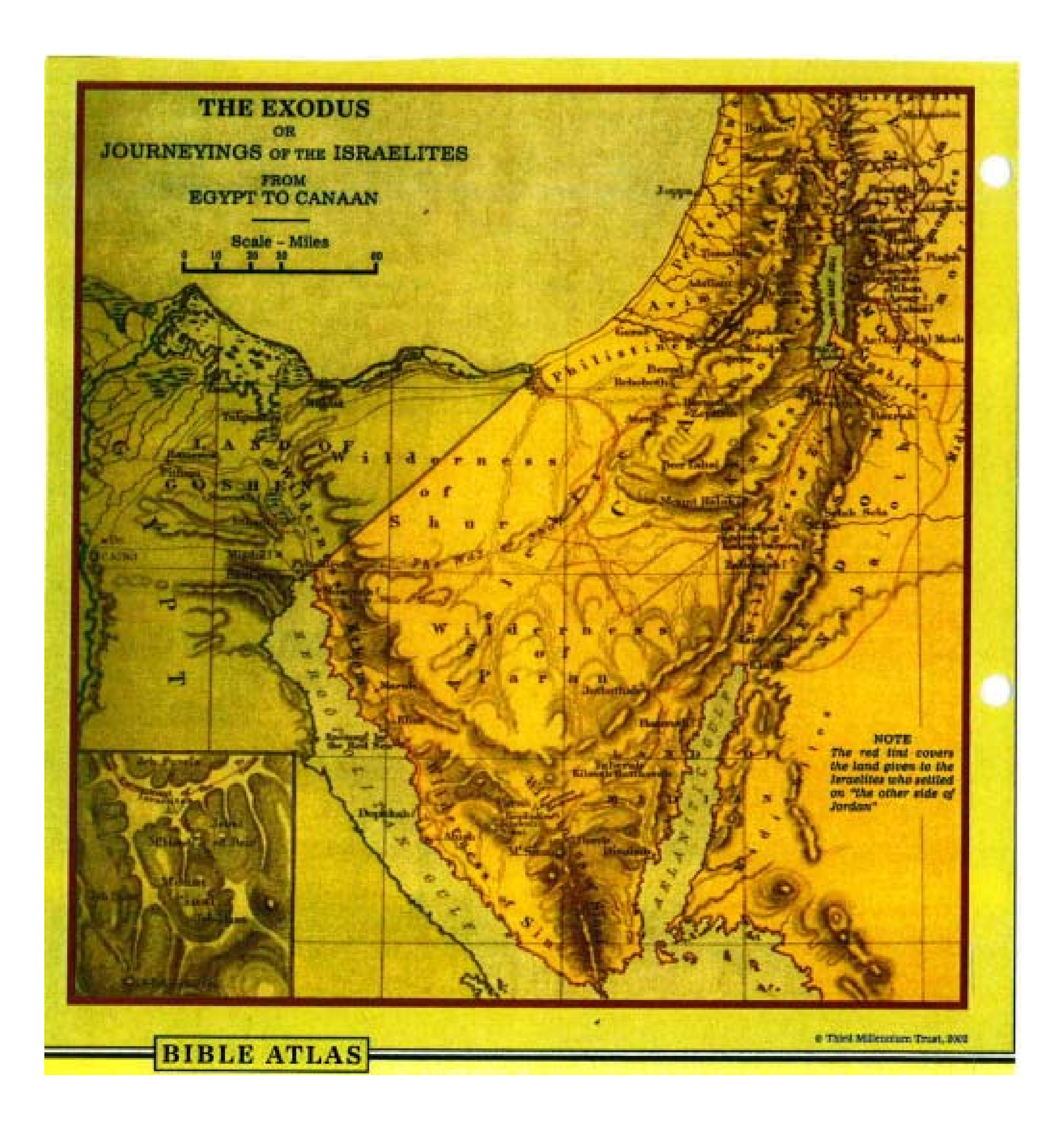
(3) (كبر ال) (كبر ايل) معناه باللغة اللحيانية العربية الله أكبر.

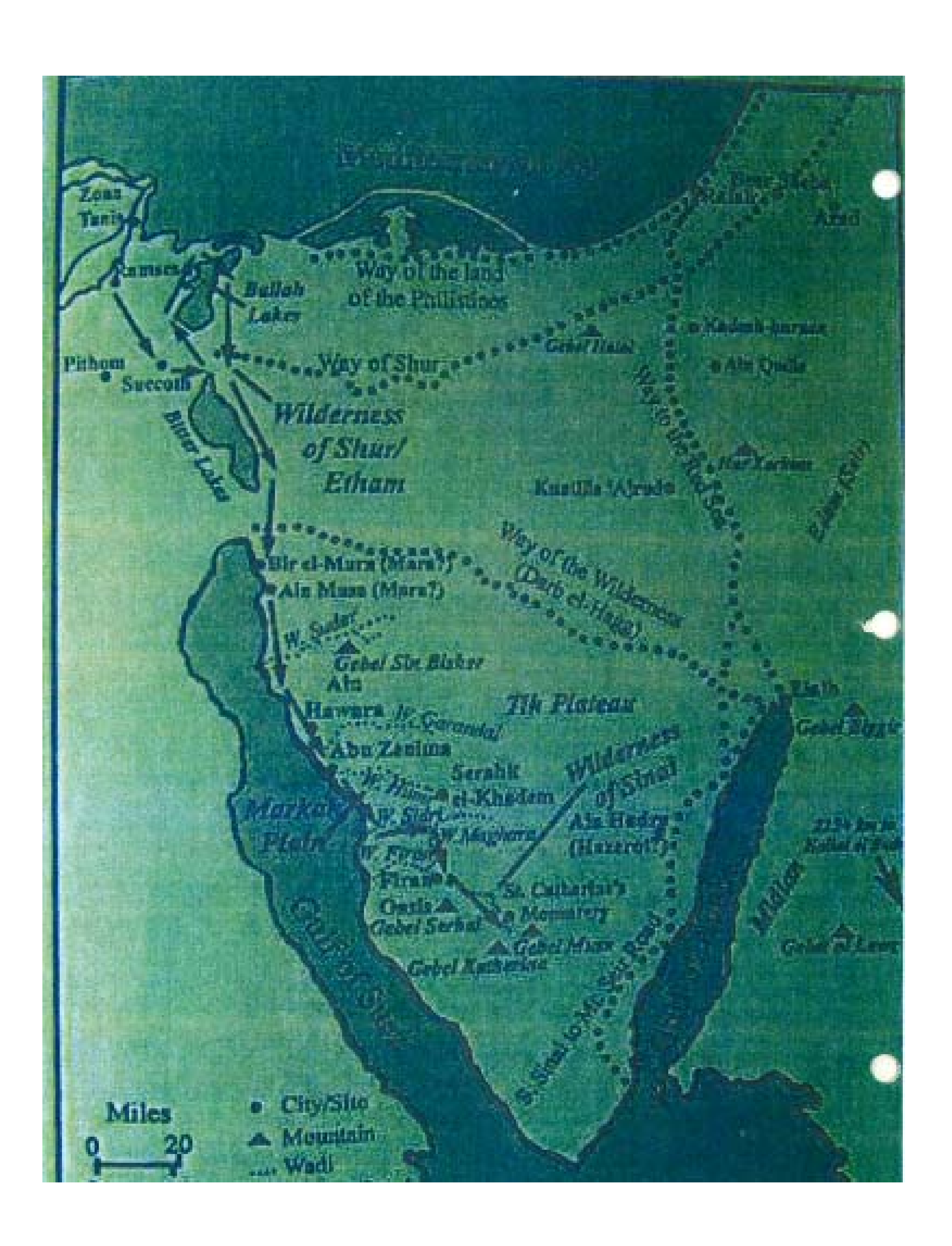
(4) الطواف: بقايا الطقوس الوثنية التي ورثها الإسلام من عرب الجاهلية.

(5) أوس ابن حجر أوس بن حجر بن مالك التميمي (530-620م) شاعر مضر أبو شريح، من كبار شعراء تميم في الجاهلية، أبوه حجر هو زوج أم زهير بن أبي سلمة. كان كثير الأسفار، وأكثر إقامته عند عمرو بن هند في الحيرة. عمَر طويلا (حوالي 90 عاما). عدَّهُ ابن سلام في الطبقة الثانية من شعراء الجاهلية. وذكر الأصفهاني في الأغاني أنه " من الطبقة الثالثة، وقرنه بالحطينة نابغة بني جعدة".

(6) المصدر: جامع البيان في تفسير القرآن/الطبري (ت 310 هـ).ظ




THE EXODUS
OR
JOURNEYINGS OF THE ISRAELITES
FROM
EGYPT TO CANAAN
Scale – Miles
0 10 20 30 60
Wilderness of Shur
Wilderness of Paran
LAND OF GOSHEN
Philistines
Joppa
NOTE
The red tint covers the land given to the Israelites who settled on "the other side of Jordan"
BIBLE ATLAS


Zoan
Tanis
Ramses
Ballah
Lakes
Way of the land
of the Philistines
Pithom
Succoth
Way of Shur
Gebel Halal
Ain Qudis
Wilderness
of Shur/
Etham
Bitter Lakes
Way to the Red Sea
Kuntilla 'Ajrud
Way of the Wilderness
(Darb el-Hagg)
Bir el-Mura (Mara?)
Ain Musa (Mara?)
W. Sudar
Ain
Hawara
Tih Plateau
Abu Zenima
Serabit
el-Khadem
Wilderness
of Sinai
Markha
Plain
W. Sidri
Ain Hadra
(Hazeroth?)
Firan
Oasis
Gebel Serbal
St. Catherine's
Monastery
Gebel Musa
Gebel Katherina
Gulf of Suez
Midian
Miles
0
20
City/Site
Mountain
Wadi

RedCrescent




Algeria
Azerbaijan
Comoros
Malaysia
The Maldives
Mauritania
Pakistan
Tunisia
Turkey
Turkmenistan
Uzebekistan